

تفسير

مِنْ مَحَبَّةِ الْقُرْآنِ

سَمَاحَةُ آيَةِ اللَّهِ الْعُظْمَى
السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ جَسِينٍ فَضَّلَ اللَّهُ (دَامَ ظِلُّهُ)

المجلد الرابع

دارالمعالي

تفسير
مِنْ مَحَبَّةِ الْقُرْآنِ

حقوق الطبع محفوظة للنّاشِر

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.

بيروت - لبنان - حارة حريك - طريق المطار - خلف كلية الهندسة هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ص.ب ١٥٨ / ٢٥ الغبيري

سَمَاحَةُ آيَةِ اللَّهِ الْعَظِيمِ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ حَسْبَيْنِ فَضَّلَ اللَّهُ (دَامَ ظِلُّهُ)

مِنْ وَجْهِ الْقُرْآنِ

المجلد الرابع

دار الملاك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبُرْجَةِ

مَدَنِيَّةٌ

وَآيَاتُهَا مِائَتٌ وَسَبْعٌ وَثَمَانُونَ

(٢٥٢-١٨٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآيات

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ
خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ
بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ
مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: المعروف: هو المعروف المتداول من الصنعة والإحسان.

﴿خَيْرًا﴾: الخير: ضد الشر، وهو ما يرغب فيه الكل لما يشتمل عليه من المنفعة، والمراد به هنا: المال. قال الراغب: «المال ربما يكون خيراً لزيد

وشرّاً لعمرٍو، ولذلك وصفه الله تعالى بالأمرين، فقال في موضع: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، وقال في موضع آخر: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهِرُهُ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ سَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالا، وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خير حتى يكون كثيراً ومن مكان طيب^(١).

﴿جَنَفًا﴾: الجنف: الميل عن الحق على جهة الخطأ، وأصل الجنف ميل في الحكم.

﴿إِثْمًا﴾: الإثم: الميل عن الحق على وجه العمد.

* * *

الوصية.. الصوم.. الدعاء..

هذه إحدى آيات الأحكام التي تضمنتها هذه السورة كجزء من تنظيم المجتمع المسلم في المدينة في علاقاته الإنسانية، وذلك في نطاق مبدأ الوصية للوالدين والأقربين، فقد أراد الله للإنسان أن يعبر عن شعوره بالمسؤولية تجاه أرحامه بعد الموت، كما أراد له أن يصلحهم في حال الحياة، وذلك بأن يوصي لهم ببعض من ماله — في ما إذا ترك شيئاً منه — ليدل على عاطفته نحوهم، مما يحقق لرابطة القرابة أساساً يمتزج فيه الجانب الروحي بالعطاء المادي في عملية إنسانية هادفة.

ولعل هذا ما يميز الوصية عن الإرث، فإن الإرث يمثل وضعاً تشريعياً لا تتدخل فيه إرادة الإنسان وعاطفته، لأنه حكم شرعي لا خيار للإنسان فيه فهو

(١) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ت: نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ص: ١٦٣.

من فرض الله الذي يجب أن يُخضع له . أمّا الوصية ، فإنها تنطلق من إرادة الموصي وتفكيره بحالة الموصى له بعد الموت ، ومحاولته إيجاد فرصة مادية له في ما يوصي له به . ويأتي التشريع — بعد ذلك — ليؤكد هذه الإرادة ، ويفرض تنفيذها على المكلفين بشكل دقيق لا مجال فيه للتغيير والتبديل تحت طائلة الإثم والعقاب .



هل الآية منسوخة؟

وقد حاول بعض الفقهاء والمفسرين أن يعتبر الآية منسوخة بآية الإرث . وقيل في وجه ذلك : «إن الميراث في أول الإسلام لم يكن ثابتاً على الكيفية التي جُعِلت في الشريعة بعد ذلك ، وإنما كان الإرث يدفع جميعه للولد ، وما يُعطي الوالدان من المال فهو بطريق الوصية ، ولكن هذا الرأي غير دقيق من وجهين :

الوجه الأول : لأن آية الإرث قد رُتبت على عدم الوصية ، الأمر الذي يجعلها مؤكدة لشرعية الوصية بدرجة متقدمة ، فكيف يمكن أن تتضمن إلغاءها ونسخها الذي يتوقف على أن يكون الناسخ منافياً للمنسوخ في دلالته؟!

الوجه الثاني : لأن النسخ يفرض تأخر الآية الناسخة عن المنسوخة ؛ ولم يثبت ذلك بدرجة قطعية ، لأن الخبر الدال على ذلك من أخبار الآحاد التي لا تفيد علماً ، مع أن النسخ يحتاج إلى الدليل القطعي .

ونضيف إلى ذلك أنه لا يمكن أن تكون ناسخة للوصية للأقربين ، لأنهم لا يرثون مع الولد ليكون الإرث بديلاً عن الوصية .

وحاول البعض اعتبارها منسوخة بالحديث المروي عن النبي ﷺ : «لا وصية لوارث»^(١) . ولكن ذلك لا يتم لوجوه ذكرها أستاذنا السيد الخوئي قدس سره في كتابه «البيان في تفسير القرآن» وهي :

١ - إن الرواية لم تثبت صحتها، والبخاري ومسلم لم يرضياها. وقد تكلم في تفسير المنار على سندها.

٢ - إنها معارضة بالروايات المستفيضة عن أهل البيت ﷺ الدالة على جواز الوصية للوارث. ففي صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن الوصية للوارث فقال: تجوز. قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وبمضمونها روايات أخرى.

٣ - إن الرواية لو صحت وسلمت عن المعارضة بشيء، فهي لا تصلح لنسخ الآية، لأنها لا تنافيها في المدلول. غاية الأمر أنها تكون مقيدة لإطلاق الآية، فتختص الوصية بالوالدين إذا لم يستحقا الإرث لمانع، وبمن لا يرث من الأقربين. وإذا فرض وجود المنافاة بينها وبين الآية، فقد تقدم أن خبر الواحد لا يصلح أن يكون ناسخاً للقرآن بإجماع المسلمين فالآية محكمة وليست منسوخة»^(٢).

وقد يخطر في البال، أن ظهور الآية في أن الوصية فرض على الإنسان لا يتناسب مع فريضة الإرث، لأن الاهتمام بالإيصاء ينطلق من مبدأ الحرص على مساعدة الموصى لهم بعد الموت، نظراً إلى فقدان رعايته الثابتة لهم حال

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٤٩٨، باب: ٣٥، رواية: ٥.

(٢) الخوئي، الموسوي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء، ط: السادسة، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ص: ٢٩٨ - ٢٩٩.

الحياة. وهذا ما يمكن أن يحققه مبدأ الإرث. قد يخطر ذلك في البال على أساس الاستبعاد، لا على أساس الحجة والاستدلال.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن يستوحي الإنسان منها أجواء النسخ، ولكن في ما تدل عليه الآية من الوجوب، فلا تنافي ثبوت الجواز في ما تدل عليه الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام. ولكننا ألمحنا في بداية الحديث عن الآية، إلى أن دور الوصية في مدلوله الإنساني، يختلف عن مدلول تشريع الإرث، ونضيف إلى ذلك أن موارد الوصية لا تلتقي دائماً مع موارد الإرث؛ فقد تحدث بعض الحالات التي لا مجال للإرث فيها، مما يجعل للوصية دورها الفاعل الكبير؛ وقد تحدث بعض الأوضاع التي يحتاج فيها الوارث إلى مزيد من الرعاية المادية التي لا يحصل عليها من خلال نصيب الإرث... وعلى كل حال، فإن الاستبعاد لا يصلح أساساً لتقرير فكرة أو رفضها في أي مورد من الموارد القرآنية التي لا بد لنا فيها من الاعتماد على الأسس الدقيقة للتفسير.



جولة مع مفردات الآية

ولا بد لنا بعد ذلك من جولة تفسيرية تفصيلية مع الآية في مفرداتها ومضمونها العام.

﴿كُتِبَ﴾ بمعنى قضي من القضاء، وهو الحكم الذي قد يوحى بالإنزام، فلا بد من الالتزام به إلا أن يدل دليل من كتاب أو سنة أو إجماع على خلاف ذلك، لأن اللفظ لا يخلو من قابلية لذلك، فالحكم بشيء على شخص قد يقترن بالظروف التخفيفية التي تجعل المضمون اختيارياً، وقد لا يقترن بذلك فيبقى على حاله. ولما كان إجماع المسلمين قائماً على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين، فلا بد من أن نلتزم بذلك فنحمل الكتابة على أصل

التشريع والجعل.

وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي: سجل عليكم تأكيد الوصية ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ مالا معتدأ به.

والخير: كناية عن المال. وقد اختلفت الروايات في تحديده، ولكن الظاهر منها هو المقدار المعتد به، الذي يمكن أن يبقى منه مقدار زائد على حصة الإرث - حسب حالة الورثة - كما ورد في الحديث عن علي عليه السلام، أنه «دخل على مولى لهم في الموت وله سبعمائة درهم، أو ستمائة درهم، فقال: ألا أوصي؟ قال: لا، إنما قال الله تعالى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وليس لك كثير مال، فدع مالك لورثتك»^(١). والظاهر منه المقدار الذي يتناسب مع طبيعة واقع الحال للموصي والموصى له والورثة، ﴿ الْوَصِيَّةُ ﴾ وهي التحليل لما بعد الموت ﴿ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ الذي يحسن الإنسان فيه إلى أقربائه.

﴿ حَقًّا ﴾ ثابتاً ﴿ عَلَى الْمُنْفِقِينَ ﴾ لأن التقوى تفجر في الإنسان طاقات الخير بما توحى به من الحصول على محبة الله ورضاه، والابتعاد عن غضبه وسخطه، مما يدفعه إلى القيام بالأعمال المحبوبة له، واجبة كانت أو مستحبة، لأن ذلك هو سبيل القرب إليه والنجاة من عذابه.

﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَمًا سِعَةً فَإِنَّهَا إِيْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾. إن تنفيذ الوصية وتحولها إلى واقع عملي هي مسؤولية الوصي، في ما سمعه وعرفه من الوصية تحت طائلة العقاب في حالة التبديل والتغيير. وقد أكد الله على ذلك وشدد الأمر فيه، لأن غياب الموصي بالموت يجعل الوصي في أمن من جهته، على أساس أن الإنسان لا يلتزم عادة بتنفيذ إرادة الآخرين، إلا إذا كانوا في وضع خاص من القوة المادية أو المعنوية التي تستتبع الحساب أو العقاب أو العتاب.

(١) السيوطي، جلال الدين، الدرّ المثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٩٣ م - ١٤١٤ هـ، ج: ١، ص: ٤٢٢ - ٤٢٣.

فلهذا أراد الله أن يشير القضية في نطاق عذاب الآخرة، كوسيلة من وسائل التنفيذ الحاسمة. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن سمعه وعلمه أي شيء مما يخوض الناس فيه في ما يريدون وما يفعلون... وفي الآية دلالة على أن الميت لا إثم عليه في تبديل الوصي للوصية، لأنها مسؤولية الوصي لا مسؤوليته.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ربما تفسر هذه الآية بما قبل موت الموصي، وذلك في الحالة التي يتصرف الموصي تصرفاً جائزاً - وهو معنى الجنف - أو منحرفاً عن خط الحق - وهو معنى الإثم الذي يوحى بتعمد الظلم - فإن للوصي أن يتدخل لإصلاح الأمر بين الموصي وبين الوالدين والأقربين؛ وذلك بإرجاعه عن الخطأ وإعادته إلى الحق، لئلا يحصل الخصام والنزاع من جراء ذلك، كما نشاهده في بعض الأوضاع الخاصة، عندما يحاول الموصي أن يحرم بعضاً ويعطي بعضاً كنتيجة لبعض الدوافع الذاتية.

وربما تُفسر بما بعد الموت، وذلك على أساس الاستثناء من حرمة التبديل، فإن للوصي أن يبدل الوصية من حالة الباطل إلى حالة الحق، لأن الإثم هو في تغيير الوصية المنسجمة مع خط الحق، لا المنحرفة عنه.

كما إذا كانت الوصية بما يزيد على الثلث للورثة، فللوصي إرجاعه إلى الثلث إذا رفض الورثة ذلك، أو إذا أوصى بتوزيع جميع ثروته على غير الورثة الشرعيين، فلا بد من ردها إلى الثلث، وإذا كان في الوصية ما يؤدي إلى الظلم كإعانة مراكز الفساد أو فعل حرام أو ترك واجب، أو إذا أدت الوصية إلى نزاع أو فساد يوجب إزهاق الأرواح، فللوصي أن يتدخل لمنع ذلك بنفسه أو بالاستعانة بالحاكم الشرعي.

وربما يوحى سياق الآية بالتفسير الثاني، لأنها وقعت بعد الآية الأخرى

التي تتحدث عن التبديل بعد الموت، باعتبار أن التصرف من صلاحية الوصي .
أما حالة ما قبل الموت، فلا يملك الوصي أية صلاحية فيها .

ولكن دراسة الآية بدقة، توحى بالمعنى الأول، لأنها واردة في تخطيط
خط الوصية في ما هو تكليف الموصي في ما ينبغي أن يوصي به مما لا يتناسب
مع خط الجور أو الظلم، فإذا انطلق في هذا الاتجاه الذي يثير الخصومة
والنزاع، فإن للوصي — باعتبار علاقته الأكيدة بالموضوع لأنها مهمته في
المستقبل — أن يتدخل للإصلاح من موقع الإصلاح، لا من موقع السلطة ليقال
— كما سبق — إنه لا يملك صلاحية في الموضوع. وهذا التفسير هو المروي
عن الإمامين الباقر والصادق عليه السلام في ما ذكره صاحب مجمع البيان^(١) .

وقد جاء في كلمة الإمام علي عليه السلام، في نهج البلاغة: « يا بن آدم كن
وصي نفسك واعمل في مالك ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك »^(٢) .

إنها توحى بأن الإنسان قد يفكر بالخير في وصيته بماله بعد الوفاة سواء
أكان ذلك في ما يتعلق بقضايا الخاصة في عباداته أو معاملاته أو صدقاته، أم
في ما يتعلق بالآخرين، وهذا عملٌ جيّد يدلُّ على روح الخير في نفسه. ولكن
هناك مسألة مهمة في عمق القيمة الروحية الأخلاقية في النظرة الواقعية إلى
الأمر، فإنه عندما كان يوصي بماله بعد الموت، كان يودّع الحياة ويبتعد عن
كل علاقة له بالمال، مما لا يجعله يواجه تضحية كبرى بإنفاقه في الخير لنفسه
أو للآخرين؛ ولكنه عندما ينفقه في الحياة مع امتداد الأمل بالبقاء، فإنه يضحى
به في الوقت الذي تكبر حاجته إليه ويعيش الارتباط به؛ الأمر الذي يؤكد عمق
القيمة الإيمانية الروحية في الإخلاص لله في عمله .

(١) الطبرسي، أبو علي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار
المعرفة، بيروت - لبنان، ط: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ج: ١، ص: ٤٨٥ .

(٢) ابن أبي طالب، الامام علي (ع)، نهج البلاغة، قصار الحكم / ٢٥٤ .

وقد ختم الله له الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ للإيحاء بأن رعاية الله له لهذا الوحي كانت بإيجاد المصلح الذي يرد الوصية إلى الخط المستقيم في الصلاح والإصلاح، من موقع المغفرة والرحمة اللتين يمنحهما الله لعباده الصالحين إذا أذنبوا، فكيف هو الحال إذا أصلحوا ولم يكن هناك ذنب؟!



الإيحاءات والدروس

إننا نستوحي من مبدأ الوصية في هذه الآيات أموراً:

١ - إن الإسلام يريد أن يركز على مسؤولية المسلم في الاهتمام بأمور الآخرين - لا سيما أقربائه - فيفكر بأمورهم في حالة الحياة وفي ما بعد الموت، ويعمل على تحويل التفكير إلى ممارسة عملية حقيقية بما يوصي به إليهم من مال ليضمن لهم نوعاً من كرامة الحياة في ما بعد الموت.

٢ - إن في اعتبار هذا التوجه مظهراً من مظاهر التقوى دلالة على أن قضية التقوى في الإسلام لا تتصل بالجانب الروحي العبادي فحسب، بل تتسع لتواجه حسَّ المسؤولية في الإنسان تجاه أخيه الإنسان في الحياة وفي ما بعد الموت، مما يؤكد على تنمية الجانب الإنساني للشعور في أعماق الإنسان.

٣ - ربما نستوحي من فقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾: أن الله يريد للإنسان أن يستفيد من الفرصة الأخيرة في الحياة ليتقرب إليه من خلال عمل الخير للناس الذين يحتاجون إليه ممن كانوا السبب في وجوده، أو الذين يرتبطون به برابطة الرحم من خلال إيحاءات القرابة التي تفتح كل مشاعر الخير في نفس الإنسان في الأجواء الحميمة المنسابة في روحه، الأمر الذي يجعله يفكر بطريقة

موضوعية متوازنة بعيدة عن كل نوازع الطمع والجشع والذاتية، لأنه سوف يفارق المال كله والحياة كلها بعد قليل فيفقد كل شيء، بينما توحى الوصية إليه الفرصة الإلهية في الحصول على العفو والمغفرة والرحمة في عمل الخير.

٤ - إن الله لم يعط الإنسان كل الحرية في الوصية، بل حدّد له الثلث كحدّ أقصى حتى لا يجور على ورثته، فيتركهم في فقر وحاجة، يسألون الناس إذا تجاوز ذلك فخصّ بعضهم بالمال كله أو أوصى به للمشاريع العامة أو لبعض الناس الذين تربطه بهم علاقة خدمة أو إحسان أو نحو ذلك، فلمورثة أن يرفضوا الزيادة على الثلث، فتبطل الوصية في الثلثين. ووضح ما في هذه النظرة من مراعاة كلا الطرفين: الموصي، والموصى لهم.

فالإجازة للموصي بالتصرف بثلث التركة يشبع لديه الحاجة إلى التصرف في تركته في السياق الذي يلبي شعوره بالواجب وإحساسه بالمسؤولية، فضلاً عن إشباع رغبته وأحلامه؛ فلا يحرم - لذلك - من التصرف بماله في ما بعد الموت. وأما ترك الثلثين للموصى لهم فيندرج في سياق إعانتهم على تلبية حاجاتهم ومعالجة قضاياهم الخاصة. وقد جاء في الحديث عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «من عدل في وصيته كان بمنزلة من تصدق بها في حياته، ومن جار في وصيته لقي الله يوم القيامة وهو عنه معرض»^(١).

وربما كان المراد بالجور هو الوصية بأكثر من الثلث، أو بالمقدار الذي يخلق للورثة مشكلة في حياتهم لحاجتهم إلى المال الذي أوصى به.

٥ - إن الوصية ليست ملزمة لصاحبها ما دام في الحياة، فله أن يرجع عنها أو يغيّرها بأيّ نحو كان، فلا حق لأحد عليه في ذلك.

٦ - إن على الإنسان أن يوصي بكل الواجبات والمسؤوليات المترتبة

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠٠، ص: ١٢٩، باب: ٥٤، رواية: ١٧.

عليه، في حقوق الناس عنده أو حقوق الله التي لا بد من قضائها، إذا خاف على نفسه الموت وفوات الفرصة في الأداء والقضاء. أما في غير ذلك فالوصية مستحبة.



الآيات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ
 عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ
 مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾
 شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
 وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
 فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
 وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

* * *

معاني المفردات

﴿الصِّيَامُ﴾: في اللغة: الإمساك عن الفعل أو الكلام أو أي شيء آخر... وهو في الشرع: إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة في زمان مخصوص.

﴿فَعِدَّةٌ﴾ : فِعْلَةٌ من العدّ، وهي بمعنى المعدود كالطحن بمعنى المطحون.

﴿يُطِيقُونَهُ﴾ : يتحملونه بمشقة شديدة وجهد كبير، ويؤيده قراءة ابن عباس: يطوقونه: من الطاقة اي: المشقة في مثل حال الكبير الهرم، والحامل، والمرضع، والمريض الذي لا يُرجى برؤه ونحوهم.

﴿فَذِيَّةٌ﴾ : ما يقي به الإنسان نفسه من مال يبذله في عبادةٍ قصّر فيها. والفدية: ما يبذل، والفداء: اسم لذلك المبدول.

﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ : ما يفرق بين الحق والباطل، والفرقان: كلام الله تعالى. والفرقان: يوم بدر فإنه أول يوم فرق فيه بين الحق والباطل. وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْأَجْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٤١].

* * *

القيام مع بعض أحكامه

وهذا تشريع عبادي جديد أراد الله لعباده أن يتعبدوا له فيه، من أجل أن يحققوا لأنفسهم البناء الروحي والعملي من خلال ذلك، كما هو الحال في العبادات الأخرى التي لم يجعلها الله استغراقاً في ذاته أو غيبوبةً في قدسه، ليبتعدوا بذلك عن حياتهم، بل جعلها انطلاقة في وعي الإنسان لعلاقته بربه، من حيث هي عبودية ومسؤولية وانفتاح، لتؤكد له إنسانيته الصافية النقية البعيدة عن كل خبث وزيف ورياء، وعن كل ضعف وحقد وانحراف، والقريبة من المعاني الروحية التي تبني للإنسان حياته على الصورة التي يحبها الله ويرضاها، فهي تلتقي بالحياة من خلال التقائه بالله.

وفي هذا الإطار، اعتبرت العبادات الإسلامية من ركائز الإسلام، باعتبار علاقتها ببناء الشخصية الإسلامية للإنسان في ما يفكر ويعمل ويمارس من علاقات عامة وخاصة، وفي ما يخطط له من غايات، وما يستخدم من وسائل، وذلك من خلال تعدد وتنوع أساليبها وتنوعها، وفي ما تثيره من مشاعر، وما تحركه من نوازع وأفكار.

وقد نلاحظ في روعة التشريع العبادي في الإسلام، أنه حرّك العبادة في إطار العطاء فاعتبر العطاء عبادة، وأطلقها في الحياة فقرر أن العمل في سبيل طلب الحلال عبادة، وأثارها في خط الدفاع عن الإنسان وقيمه الكبيرة في الحياة، فالجهاد في سبيل الله عبادة يتعبّد فيها الإنسان لربه، وأفصح المجال للنية الخالصة في داخل الإنسان، لتعطي كل عمل يقصد به الإنسان وجه ربه في كل شأن من شؤون الحياة الذاتية والعامة، صفة العبادة التي تقربه إلى الله.

وكان الصوم إحدى العبادات التي بُنيَ عليها الإسلام حسب ما ورد في أحاديث أئمة أهل البيت عليه السلام، فقد فرضه الله على المؤمنين في الإسلام، كما فرضه على المؤمنين قبلهم في الشرائع السابقة، فقد ورد في قاموس الكتاب المقدس: «الصوم بشكل عام وفي جميع الأوقات كان متداولاً في أوقات الأحزان والنوائب بين جميع الطوائف والملل والمذاهب»^(١).

ويظهر من التوراة أن موسى عليه السلام صام أربعين يوماً، فقد جاء فيها: «أقامت في الجبل أربعين ليلة لا أكل خبزاً ولا أشرب ماءً. وكان اليهود يصومون لدى التوبة والتضرّع إلى الله. واليهود كانوا يصومون غالباً حينما تتاح لهم الفرصة للإعراب عن عجزهم وتواضعهم أمام الله، ليعترفوا بذنوبهم عن طريق الصوم والتوبة، وليحصلوا على رضى ضرة القدس الإلهي»^(٢).

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص: ٤٢٧

(٢) التوراة، سفر التثنية، إصحاح: ٩، الرقم: ٩.

«الصوم الأعظم مع الكفارة كان على ما يبدو خاصاً بيوم من أيام السنة بين طائفة من اليهود. طبعاً كانت هناك أيام أخرى مؤقتة للصوم بمناسبة ذكرى تخريب أورشليم وغيرها»^(١).

السيد المسيح ﷺ صام أيضاً أربعين يوماً، كما يظهر من الإنجيل «ثم صعد يسوع إلى البرية... فبعدها صام أربعين نهراً وأربعين ليلة جاع أخيراً»^(٢).

ويبدو من نصوص «إنجيل لوقا» أن حوارى السيد المسيح صاموا أيضاً^(٣).

وجاء في قاموس الكتاب المقدس «من هنا كانت حياة الحواريين والمؤمنين مملوءة بالابتعاد عن اللذات وبالأتعاب والصوم»^(٤).

وقد لا نجد تفصيلات وافية عن طبيعة هذا الصوم المفروض على السابقين في شرائعهم، ولكننا نجد في القرآن الكريم حديثاً عن صوم الصمت في ما حدثنا الله به من قصة زكريا قال: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١] وفي ما حدثنا به من قصة مريم ﷺ: ﴿فَكُلِّي وَأَسْرُبِي وَفَرَى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. وقد نجد لدى بعض المنتسبين إلى الديانات السابقة من اليهود والنصارى نوعاً من الصوم الذي يمتنعون فيه عن بعض المأكولات كاللحوم ونحوها في بعض أيام السنة. وقد يخل بعض الناس أن تشبيه الصوم

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص: ٤٢٨.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح الرابع، الرقم: ١ - ٢.

(٣) إنجيل لوقا، الإصحاح الخامس، الرقم: ٣٣ - ٣٥.

(٤) قاموس الكتاب المقدس.

المكتوب علينا بما كتب على الذين من قبلنا يوحى بوحدة الصوم عندنا وعندهم، ولكن ذلك غير ثابت، لأن التشبيه يكفي فيه أن يكون وارداً لبيان أصل التشريع من دون دخول في تفاصيله.



الصوم والتقوى

وهذا ما نستوحيه من الآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إذ لا بد لكم من القيام به فرضاً واجباً، كعبادة شرعية تقتربون بها إلى الله، وتحققون فيها الكثير من المنافع الروحية والأخلاقية والجسدية، ﴿كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فلستم أول الأمم التي يفرض عليها هذا النوع من الإمساك العملي، لأن القضية ليست حالة خاصة في ظرف خاص يتصل بكم بشكل خاص، بل هي حالة عامة في الإنسان كله من حيث علاقة الترك المخصوص لبعض الأشياء في توازن حياته، كما هي علاقة الفعل الخاص في الجوانب الأخرى منها، وربما اختلف الصوم في طبيعته ومفرداته بين أمة وأخرى، ولكن المبدأ واحد.

وقد ختمت الآية بيان الصوم، بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ للإيحاء بأن التقوى هي غاية للصوم أو نتيجة له، نظراً لما يشره في داخل الإنسان من الرقابة الذاتية الداخلية التي تمنعه من ممارسة كثير من الأشياء المعتادة له من شهواته ومطاعمه ومشاربه، انطلاقاً من وعيه التام للإشراف الإلهي عليه في كل صغيرة وكبيرة.

وهذا ما تعبر عنه مفردة «التقوى» بما تمثله من الانضباط أمام ما يريده الله منه وما لا يريده، وذلك بأن لا يفقده الله حيث يريده ولا يجده حيث

ينهاه. وبذلك يكون هذا الصوم الصغير مقدمة للصوم الكبير، وذلك يتوافق مع ما ورد به الحديث الشريف: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر.»^(١)، فيمن لا يمنعه صومه من الممارسات المحرمة الأخرى في شهر رمضان وفي غيره.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ هناك قولان في المقصود بهذه الأيام:

أحدهما: إنها غير شهر رمضان، وكانت ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ، عن معاذ وعطا وعن ابن عباس وروي ثلاثة أيام من كل شهر وصوم عاشوراء، عن قتادة. ثم قيل: إنه كان تطوعاً. وقيل: بل كان واجباً. واتفق هؤلاء على أن ذلك منسوخ بصوم شهر رمضان.

والآخر: إن المعني بالمعدودات هو شهر رمضان، عن ابن عباس والحسن واختاره الجبائي وأبو مسلم، وعليه أكثر المفسرين، قالوا: أوجب سبحانه الصوم أولاً فأجمله، ولم يبين أنها يوم أو يومان أم أكثر، ثم بين أنها أيام معلومات وأبهم، ثم بيّنه بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، قال القاضي: وهذا أولى، لأنه إذا أمكن حمله على معنى من غير إثبات نسخ كان أولى، ولأن ما قالوه زيادة لا دليل عليه^(٢).

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فليس على المريض صيام في شهر رمضان، والظاهر - من مناسبة الحكم والموضوع - أن المراد به المرض الذي يضر به الصوم، لأن ذلك ما يعتبر عسراً على المكلف، فلا يشمل الصوم الذي ينفع المريض أو الذي لا يترك أي أثر ضار على صحته. وقد وردت بذلك الأحاديث الكثيرة المتعددة في هذا الشأن.

أما السفر، فقد حُدِّدَتْ كميته بما ورد في السنة الشريفة التي اختلفت

(١) البحار، م: ٣٠، ج: ٨٤، ص: ٣٣٩، باب: ٨١، رواية: ١٧.

(٢) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٤٩٢ - ٤٩٣.

الروايات بشأنها، مما أوجب اختلاف المذاهب فيها بين السنة والشيعة، مما تعرضت له كتب الفقه.



الإفطار في السفر رخصة أم عزيمة؟

ولكن هنا بحثاً آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو أن الإفطار في السفر رخصة أم عزيمة؟ فذهب جمع من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وعروة بن الزبير^(١) إلى أنه عزيمة، وهو المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام^(٢)، وهو الظاهر من الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فإن الظاهر منها هو أن صيام الأيام المعدودات فرض غير المسافر والمريض، أما هما فإن فرضهما هو أيام أخر، في غير شهر رمضان لأن السياق جرى مجرى العزيمة والفرض وذهب

(١) روي أن عمر بن الخطاب أمر رجلاً صام في السفر أن يعيد صومه، وروي يوسف ابن الحكم قال: سألت ابن عمر عن الصوم في السفر، فقال: رأيت لو تصدقت على رجل صدقة فردها عليك، ألا تغضب، فإنها صدقة من الله تصدق بها عليكم. وروى عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله: الصائم في السفر كالمفطر في الحضر. وروي عن ابن عباس أنه قال: الإفطار في السفر عزيمة [مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٤٩٣].

(٢) قال في مجمع البيان: وروي أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: الصائم في شهر رمضان في السفر كالمفطر فيه في الحضر؛ وعنه عليه السلام قال: لو أن رجلاً مات صائماً في السفر لما صليت عليه، وعنه عليه السلام قال: من سافر أفطر وقصر، إلا أن يكون رجلاً سفره إلى صيد أو في معصية الله. وروي العياشي بإسناده مرفوعاً إلى محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لم يكن رسول الله يصوم في السفر تطوعاً ولا فريضة حتى نزلت هذه الآية بكراع الغميم عند صلاة الهجير، فدعا رسول الله بإناء فيه ماء فشرب وأمر الناس أن يفطروا، فقال قوم: قد توجه النهار، ولو تمنا يوماً هذا فسماهم رسول الله العصاة، فلم يزالوا يسمون بذلك الاسم حتى قبض رسول الله. [مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٤٩٣].

أكثر أهل السنة، إلى أنه رخصة، وقدّروا في الآية كلمة: فأفطر، فقالوا، إن تقديرها فمن كان مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر... ولكن هذا ضعيف بأن التقدير خلاف الظاهر ولا يصار إليه إلا بدليل، ولا دليل في الآية عليه، وبأن هذا التقدير لا يمنع من العزيمة لأن الحديث عن الإفطار لا يعني إلا جوازه في مقابل التحريم ولا يعني ذلك في مقابل الإلزام.

* * *

متى تجب الفدية؟

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونُ فِدْيَةً طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾. الإطاقة — كما ذكره بعضهم — صرف تمام الطاقة في الفعل، ولازمه وقوع الفعل بجهد ومشقة^(١). والفدية هي البديل المالي عن الصوم. والظاهر من الآية — بمقتضى السياق — هو حالة الذين يستطيعون الصوم بجهد ومشقة وهم الشيوخ الذين يجهدهم الصوم، فإن مثل هؤلاء لا يكلفون بالصوم ولا يكلفون بالقضاء، بل يمكنهم الاكتفاء بدفع الفدية. وقد ورد ذلك في تفسير العياشي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: الشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش^(٢).

وقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الفقرة تدلّ على الرخصة، على أساس تخيير الله للقادرين بين الصوم وبين الإفطار ودفع الفدية، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. ولكن ذلك مردود بدراسة الآيات التي تدلّ على وحدة الفرض والسياق، ولا يحتاج ذلك إلا إلى ذوق سليم وحس مرهف.

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط: ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ج: ٢، ص: ١٢.

(٢) انظر: م. ن.، ج: ٢، ص: ٢٨.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ ربما كان المقصود منه التطوع بالزيادة على الفدية، بأن يعطي الزيادة على ما وجب عليه، كما ورد في بعض الأحاديث أن الأفضل مدّان من الطعام. وفسرها صاحب الميزان بإيتاء الصوم عن رضى ورغبة^(١)، لأن كلمة التطوع تعني الاختيار في مقابل الإلزام لتدلّ على الاستحباب، بل تدلّ على الطوع في مقابل الكره؛ وذلك بأن يأتي الإنسان به عن رغبة ورضى وقناعة. ولكن هذا خلاف الظاهر لظهور كلمة التطوع في الفعل الذي يأتي به الإنسان من دون إلزام باعتبار أن الإلزام يوحى بالضغط والكره، بينما الاستحباب لا يوحى إلا بالتوسعة والتخفيف. وأما ما ذكره من أن استعمال الكلمة في الفعل المستحب اصطلاح جديد فهو غير دقيق؛ لأن القضية ليست قضية استعمال الكلمة في المعنى، بل استيحاء المعنى من معنى الكلمة في ما يفهم من مدلول الواجب والمستحب.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الظاهر منها — بقرينة السياق — هو أنها خطاب للذين يجهدهم القضاء، فتباح لهم الفدية لإعلامهم بأن الفدية، وإن كانت جائزة، إلا أن الصوم خير لهم إن كانوا يعلمون لما فيه من النتائج الروحية والعملية. وهناك احتمال بأن الفقرة واردة في الحديث عن الصوم، بأنه خير للناس في ذاته بحسب فلسفة الصوم في تشريعه من حيث المنافع الكثيرة العائدة إلى الناس، وقد جرى أسلوب القرآن على الإتيان بهذه الفقرة بعد كل تشريع، لما ورد في قوله سبحانه بعد ذكر وجوب صلاة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هَبْنَا إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا ذُلُّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وبهذا يبطل قول من قال: إن الصوم كان في بداية التشريع واجباً

تخييراً، وكان المسلمون مخيرين بين الصوم والفدية، ثم نسخ ذلك بعد أن تعود المسلمون على الصوم فأصبح واجباً عينياً. وهو خلاف الظاهر.

* * *

ما معنى نزول القرآن في شهر رمضان؟

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾.

في هذا التأكيد القرآني على نزول القرآن في شهر رمضان، في هذه الآية، وفي تحديد ليلة القدر في سورتي الدخان والقدر، إichاء بأن عظمة هذا الشهر مستمدة من مناسبة نزول القرآن فيه. وقد اختلف الحديث في تحليل نزول القرآن في هذا الشهر، فهناك من ذكر أن المراد به أول نزوله، وهناك من ذكر أنه النزول إلى اللوح المحفوظ من البيت المعمور، وهناك من حاول أن يجعل من مفهوم الكتاب معنى غامضاً لا نستطيع إدراكه، فهو الذي نزل على قلب النبي محمد ﷺ دفعة واحدة ثم نزل عليه تدريجياً. وقد كان السبب في هذا الاختلاف، ظهور هذه الآية وغيرها في نزوله دفعة، بينما الآية الكريمة تنص على أنه نزل تدريجاً: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: ٣٢] والآية الأخرى ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

كما أن هناك وجهاً آخر لهذا الاختلاف، وهو أن النزول والبعثة كانا في موعد واحد، مع أن المعروف أن البعثة كانت في السابع والعشرين من شهر رجب وأن أول ما أنزل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] فكيف يمكن التوفيق بين الآية وبين ذلك؟!

والواقع أن الظاهر من القرآن الكريم هو أن إنزاله كان في شهر رمضان، ولا نجد هناك فرقاً بين الآيات التي تتحدث عن إنزال القرآن في ليلة القدر أو في شهر رمضان، وبين الآيات التي تتحدث عن إنزاله على مكث أو تدريجياً، ولا نستطيع أن نحمل القرآن على معنى غامض خفي في علم الله، وذلك لا من جهة أننا نريد أن نفسر القرآن تفسيراً حسياً مادياً كما يفعل الحسيون، بل من جهة أنه لا دليل على ذلك في ما حاول بعض المفسرين أن يقيم الدليل عليه، مما لا مجال للخوض في النقاش فيه، لأننا لا نجد فيه كبير فائدة.

وعلى ضوء ذلك، فإن هذا الظهور القرآني البين يجعلنا لا نثق بالروايات التي توقّت البعثة في رجب أو تعيّن أوّل الآيات النازلة في سورة اقرأ؛ ولذلك فإن من الممكن أن يكون المراد من الإنزال هو أوّل الإنزال، كما أن كلمة القرآن تطلق على القليل والكثير بما يشمل السورة والآية والمجموع. والظاهر أن هذا المقدار كافٍ في الجانب التفسيري من القضية، لأن الباقي يدخل في باب التخمين والتأويل من غير فائدة تذكر.

* * *

القرآن هدى للناس

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾.

هذه هي قيمة القرآن وأهميته في حياة الناس؛ فهو كتاب هدى يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور. وهو كتاب البيّنات التي توضح للناس حقائق الأشياء ودقائقها بما يزيل كل شبهة، ويفرق بين الحق والباطل. وقد بينا في بداية هذا التفسير أن معنى كون القرآن هدى، هو اشتماله على أسس الهدى لمن أراد أن يهتدي بها، فلا مجال للإشكال بأن هناك من لا يهتدي بالقرآن، لأن الهدى هنا بمعنى الشّانية لا

بمعنى الفعلية؛ فراجع.

* * *

بين القضاء واليسر

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. هذا تأكيد على الحكم الذي استفدناه من الآية السابقة ولكن بشكل أوضح، فإن المراد من الشهود الحضور في مقابل السفر. أما المريض والمسافر، فيجب عليهما الصوم في أيام آخر في غير شهر رمضان، ولا يجب عليهما في هذا الشهر، ولا يشرع لهما وقد تقدم الحديث عن موضوع الرخصة والعزيمة في صوم المسافر.

وقد ذكر البعض أن المراد بشهود الشهر رؤية الهلال، لتكون الآية دالة على أن الصوم مشروط بالرؤية، كما جاء في الحديث الشريف عن النبي محمد ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»^(١). ولكن لا دليل في الآية على ذلك بل ربما كان ذكر السفر في مقابل ذلك دليلاً على أن المراد به الحضور في البلد. وقد جاء في رواية زرارة عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام أنه قال لما سئل عن هذه ما أبينها لمن عقلها قال: «من شهد رمضان فليصمه، ومن سافر فيه فليفطر»^(٢). وقد روي أيضاً — كما في مجمع البيان — «عن علي وابن عباس ومجاهد وجماعة من المفسرين أنهم قالوا: «من شهد الشهر بأن دخل عليه الشهر وهو حاضر، فعليه أن يصوم الشهر كله»^(٣) وهذا دليل على أن المراد به الحضور في البلد.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ هذا بيان للحكمة في تشريع

(١) البحار، م: ١٨، ج: ٥٥، ص: ٤٣٠، باب: ١٣.

(٢) م. ن. م: ٣٤، ج: ٩٣، ص: ٢٠٠، باب: ٤٢، رواية: ١٥.

(٣) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٤٩٨.

القضاء على المسافر والمريض، وأن الله أراد من خلال ذلك بناء أمر الإنسان في ما يفعله وفي ما يتركه على أساس التيسير، لأن الله قد أرسل نبيه بالشرعية السهلة السمحة. وقد حاول البعض أن يستفيدوا من هذه الفقرة من الآية أن الإفطار في السفر رخصة لا عزيمة، ولكن لا دليل لهم في ذلك لأنه يمكن أن يكون اليسر في إسقاط الصوم عنهم، وإن كان ذلك إلزامياً.

وربما يستفاد من هذه الآية قاعدة فقهية حاکمة على أدلة الأحكام العامة وهي قاعدة «اليسر» أو «لا حرج»، فهي دالة على أن الله يريد - في كل تشريعاته - أن ييسر للناس حياتهم في ما يفعلون وفي ما يتركون، مما يوحي بأن كل حكم يوقع الناس في العسر فهو غير مجعول في الشريعة، حتى لو كان الدليل الدال عليه يدل على ذلك بإطلاقه وعمومه. وهذا هو الأساس في فتاوى الفقهاء في انتقال الإنسان من حالة في الصلاة إلى حالة أخرى حيث يرفع الإلزام عن الحالة المستلزمة للمشقة والعسر كالقيام بالنسبة إلى الجلوس، والوضوء بالنسبة إلى التيمم ونحو ذلك.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ في صيام الأيام التي فاتت المكلف في شهر رمضان، ليكمل له بذلك الصيام الذي فرضه عليه. ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ﴾ فسرّه المفسرون بالتكبيرات التي يكبرها المصلون في صلاة العيد، ولعل الظاهر أنها تعليل للتشريع العبادي في الصوم الذي يوحي بالتذلل، والخضوع، والانقياد، والوعي الروحي للربوبية الشاملة والألوهية العظيمة في موقع العظمة والكبرياء، وعلى هدايته لدينه الذي به يعرف ربه في توحيده، وقدرته، وكل مواقع العظمة عنده، ليحس الإنسان بأن الله هو كل شيء في وجوده وفي حركته، ولا شيء لأي مخلوق إلا من خلاله، فهو الذي يمنحهم القوة والعظمة والغنى والسعة في حياتهم، ولا يملكون، في ذواتهم، نفعا ولا ضرراً... وهذا ما يجعل المؤمن واعياً لمقام ربه، ومنفتحاً على مسؤوليته في توحيده في العبادة والطاعة، فيكبر الله على ذلك كله، في روحه وعقله

وشعوره ولسانه وعمله .

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما رزقكم الله من الفرصة في طاعته وفي القيام بما يصلح أمر دينكم ودنياكم، فإن ذلك من النعم التي تستحق الشكر، وأي نعمة أفضل من النعمة التي تهتء للإنسان سعادة الدارين .



الآية

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ
إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾



الدعاء.. في علاقة الحب بربه

ربما كانت الأجواء التي عاشت فيها الآيات المتقدمة، من تقوى الله التي ينطلق فيها الإنسان مع الصوم، ومن شكر الله على ما أنعم به على الإنسان من نعمة الطاعة والرعاية والتيسير... ربما كانت هذه الأجواء تحمل الكثير من الإيحاءات الحميمة التي تفتح قلب الإنسان على الله في محاولة للتقرب إليه، كوسيلة من وسائل الحصول على لطفه ومحبه ورضاه في كثير مما يهم الإنسان من شؤون حياته في تطلعاتها وأحلامها وآلامها، وهذا مما يجعل القضية تلح على وجدان الإنسان، في سؤال عميق عن طبيعة العلاقة التي تشد الخالق إلى مخلوقاته. فكانت هذه الآية تقريراً لروعة الألوهية التي انطلقت عظمتها وقوتها في رحمتها للعباد، فهي قريبة الى كل آلامهم وآلامهم ومطامحهم ونوازعهم في شتى مجالات حياتهم، تستمع إليهم في دعواتهم،

وتليهم في نداءاتهم، وتستجيب لهم في مناجاتهم من دون وسيط أو شفيع، بل هي الكلمات التي تنطلق من القلب لترتفع إلى السماء حيث المحبة والرحمة والعفو والمغفرة.

إنها دعوة الله إلى عبده أن يستجيب له، فيدعوه لأن في ذلك خلاصاً له من كل سوء أو شدة، وتحرراً عن كل عبودية لغير الله عندما يشعر أن الله هو وليّ حاجته، فمنه الفرج لكل شدة، وبه الخلاص من كل سوء، وهو — لا غيره — مالك الدنيا والآخرة، ووليّ الحياة والموت، وبيده مقاليد الأمور، وذلك هو سبيله إلى الشعور بالأمن والطمأنينة والاستقرار، حين يشعر بأن حاجاته الصعبة هي في دائرة رحمة القادر على قضائها والعالم بما يصلحه أو يفسده منها... وهي في الوقت نفسه دعوة إلى الإيمان به، لأنه الحقيقة الواضحة التي لا يحتاج الإنسان في وعيها، وفي الإيمان بها، إلى مزيد من الفكر والتأمل والمعاناة؛ بل يلتقي بها في كل شيء يعيش معه، وفي كل ظاهرة من ظواهر الوجود. وفي الحالين معاً، في الدعاء عندما ينطلق، وفي الإيمان عندما يتحرك الرشد — كل الرشد — في واقع الحياة وفي حركتها الصاعدة أبداً إلى الله.



الدعاء عبادة

والدعاء — بعد ذلك كله — عبادة تهزّ أعماق الإنسان بالشعور بوجود الله وحضوره في كل ملتقى للإنسان في ما يهمه من أمور الحياة، وفي ما يثيره من شؤون الآخرة. وهي عبادة لا تُفرض عليه كلماتها وأجواؤها من خارج ذاته، من خلال تعليمات مفروضة، بل هي مشاعره وأفكاره وحاجاته وآلامه وآماله وكلماته المنطلقة من ذاته في أسلوب عفوي محبب في جو حميم يفقد

معه الشعور بالفواصل التي تفصله عن الله بما تمثله علاقة العبد بالسيد، أو علاقة المخلوق بخالقه؛ بل هو الجو الذي يحس فيه بالانفتاح والامتداد في أجواء المطلق. وتلك هي السعادة، كل السعادة، والروحية الفياضة بالنور والعطر والحياة.

إنها عبادة الإنسان التي تتحرك معها حياته كلها بين يدي الله، في شعور بالمحبة الذاتية الخالصة التي لا يعرف روعتها إلا المخلصون من عباد الله.

وقد ورد عن النبي ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»^(١)، وعنه أيضاً: «الدعاء هو العبادة»^(٢).



ملاحظات بخصوص الدعاء

ربما تثار أمام الدعاء عدة ملاحظات: أولها ما أثاره اليهود حين قالوا: إن الله لما خلق الأشياء وقدر التقادير تمّ الأمر، وخرج زمام التصرف الجديد من يده بما حتمه من القضاء، فلا نسخ ولا بداء ولا استجابة لدعاء لأن الأمر مفروغ عنه^(٣).

وقد عبروا عن هذه الفكرة في الدعاء بأسلوب الاستدلال، فقالوا — في ما نقل عنهم — «إن الحاجة المدعو لها إما أن تكون مقضية مقدرة أولاً، وهي على الأول واجبة، وإن لم تكن كذلك فهي ممتنعة. وعلى أي حال لا معنى لتأثير الدعاء. والجواب عن ذلك أن التقدير الإلهي للأشياء لا يعني تحقق

(١) البحار، م: ٣٢، ج: ٩٠، ص: ٤١٦، باب: ١٦، رواية: ٣٧.

(٢) م. ن، م: ٣٢، ج: ٩٠، ص: ٤١٦، باب: ١٦، رواية: ٣٧.

(٣) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ٣٣.

الشيء بشكل مطلق من دون سبب أو علة، بل يعني أن الله قدّر لها الوجود بأسبابها المادية والمعنوية، فلا منافاة بين تقدير وجودها وتوقفها على حصول الأسباب، وقد يكون الدعاء سبباً معنوياً للوجود بالإضافة إلى الأسباب المادية الأخرى التي يرتبط بها ارتباطاً عفوياً؛ فإذا لم يصدر الدعاء من العبد لم يوجد شيئاً — حسب التقدير الإلهي — لأن سببه المعنوي لم يوجد، وهذا ما قد تشير إليه الأحاديث المتضافرة عن أهل البيت عليهم السلام : «من القدر الدعاء»^(١)، لأن الله جعل له دوراً في مسألة التقدير. وقد ورد في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في رواية ميسر بن عبد العزيز عنه، كما ورد في الكافي، «قال: قال لي: يا ميسر: ادع ولا تقل إن الأمر قد فرغ منه، إن عند الله عز وجل منزلة لا تنال إلا بمسألة، ولو أن عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً، فسل تعط. يا ميسر إنه ليس من باب يقرع إلا يوشك أن يفتح لصاحبه»^(٢).

وقد جاء في بعض الأحاديث عن الدعاء أنه يرد القضاء وقد أبرم إبراماً، كما جاء في رواية بسطام الزيات عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «إن الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراماً»^(٣).

وروى أبو همام اسماعيل بن همام عن الرضا عليه السلام قال: قال علي بن الحسين عليه السلام : إن الدعاء والبلاء ليرافقان إلى يوم القيامة. إن الدعاء يرد البلاء وقد أبرم إبراماً^(٤).

وربما يفسّر هذا الحديث وما قبله بأن الأسباب المادية التي تفرض وجود البلاء وتهيئ الظروف لحركة القضاء، قد تكون متوفرة في الواقع الذي يحيط بالإنسان في دائرة الظروف الموضوعية المتصلة بعلاقة المسبب بالسبب، فيأتي

(١) البحار، م: ٣٢، ج: ٩٠، ص: ٤١٦، باب: ١٦، رواية: ٣٧.

(٢) الكليني، الكافي، ج: ٢، ص: ٤٣٧ — ٤٣٨.

(٣) م.ن.، ج: ٢، ص: ٤٤٠.

(٤) م.ن.، ج: ٢، ص: ٤٤٠.

الدعاء ليعطل ذلك في درجة الفعلية بعد أن تكون الشأنية الذاتية مقتضية له، لتكون المسألة أن الله جعلها أسباباً لولا الدعاء، حيث يأخذ الدعاء دور المانع عن تأثير المقتضي في المقتضى.

وقد يشير إلى ذلك الحديث المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي رواه إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله ليدفع بالدعاء الأمر الذي علمه أن يدعى له فيستجيب، ولولا ما وفق العبد من ذلك الدعاء لأصابه منه ما يجثه^(١) من جديد^(٢) الأرض»^(٣).

ويؤكد ذلك الحديث المروي عن أبي ولاد قال: قال أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام: عليكم بالدعاء، فإن الدعاء لله والطلب إلى الله يرد البلاء. وقد قُدر وقضي ولم يبق إلا إمضاؤه، فإذا دعي الله - عز وجل - وسُئل، صرف البلاء صرفه^(٤).

ثاني هذه الملاحظات: إن الدعاء وسيلة من وسائل التخدير الذاتي، الذي يدفع الإنسان إلى الكسل والتواكل والابتعاد عن الأخذ بالأسباب الطبيعية في الأشياء، وعن الانفتاح على حركة الحياة من أجل تنميتها وتقويتها وتطورها، ويتعد بالإنسان عن عالم الحس إلى عالم الغيب، ليكون غيبياً في وعيه للحياة بالإضافة إلى كونه غيبياً في ما وراءها.

ونجيب عن ذلك بأن دراسة الأحاديث الواردة في الحث على الدعاء توحي بأنه ليس بديلاً عن الأخذ بالأسباب الطبيعية المقدورة للإنسان في الوصول إلى أهدافه وحاجاته، لأن مورده هو الحالات التي لا يملك فيها

(١) يجثه: يقتلعه ويتنزعه، وهو كناية عن الإهلاك.

(٢) جديد الأرض: وجهها.

(٣) الكافي، ج: ٢، ص: ٤٧٠، رواية: ٩.

(٤) م. ن. ج: ٢، ص: ٤٧٠، رواية: ٨.

الوسائل الطبيعية لتحقيق غاياته . وهذا ما جاءت به الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، فقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق مما رواه الوليد بن صبيح عنه ، كما في الكافي ، قال : «صحبته بين مكة والمدينة ؛ فجاءه سائل فأمر أن يُعطى ، ثم جاء آخر فأمر أن يُعطى ، ثم جاء آخر فأمر أن يُعطى ، ثم جاء الرابع فقال أبو عبد الله عليه السلام : يشبعك الله . ثم التفت إلينا فقال : أما إن عندنا ما نعطيه ولكن أخشى أن نكون أحد الثلاثة الذين لا يستجيب لهم دعوة : رجل أعطاه الله مالاً فأنفقه في غير حقه ، ثم قال : اللهم ارزقني فلا يستجاب له ؛ ورجل يدعو على امرأته أن يريحه منها ، وقد جعل الله عز وجل أمرها إليه ؛ ورجل يدعو على جاره ، وقد جعل الله له السبيل إلى أن يتحوّل عن جواره ويبيع داره»^(١) .

وفي رواية أخرى عنه مما رواه عنه جعفر بن إبراهيم قال : «أربعة لا تستجاب لهم دعوة : رجل جالس في بيته يقول : اللهم ارزقني ، فيقال له : ألم آمرك بالطلب ؛ ورجل كان له امرأة فدعا عليها ، فيقال له : ألم أجعل أمرها إليك ؛ ورجل كان له مال فأفسده ، فيقول : اللهم ارزقني ، فيقال له : ألم آمرك بالاقتصاد ، ألم آمرك بالإصلاح . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] ورجل كان له مال فأدان بغير بينة ؛ فيقال له : ألم آمرك بالشهادة»^(٢) . وجاء عن النبي ﷺ قوله : «لتأمرن بالمعروف ، ولتنهّن عن المنكر ، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم ؛ فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(٣) .

فإننا نلاحظ في الحديثين الأولين تأكيداً على عدم استجابة الدعاء ممن يملك الوصول إلى غايته وتحقيق مراده بالوسائل الموجودة عنده ، ولكنه

(١) الكافي ، ج : ٢ ، ص : ٥١٠ .

(٢) م . ن . ، ج : ٢ ، ص : ٥١١ .

(٣) البحار ، م : ٣٢ ، ج : ٩٠ ، ص : ٤٦٥ ، باب : ٢٤ ، رواية : ٢١ .

يهملها ويلجأ إلى الدعاء؛ الأمر الذي يدلّ على أن الدعاء يمثل الوسيلة التي يلجأ إليها الإنسان حيث لا وسيلة لديه، لأن الله لا يريد للإنسان أن يجعل من إيمانه بربه سبيلاً للابتعاد عن سنن الله في الحياة، التي جعلها أساساً للعلاقة بين الأسباب والمسببات في الواقع الإنساني في شؤونته وحاجاته وأوضاعه الاختيارية. . . وهذا ما يمثله معنى التوكل في توكل الإنسان على الله، بعد استفاد كافة الوسائل التي تحقق له غرضه، فلا يسقط أمام حالة العجز بل يترك أمره إلى الله الرحمن الرحيم القادر على كل شيء والذي يحب عباده المتوكلين عليه. كما أن الحديث الثالث يؤكد أن التخلص من الأشرار يفرض القيام بمواجهتهم بالوسائل الموجودة ثم الدعاء، لا إهمال الواقع الفاسد ثم الدعاء.

ومع هذه الملاحظة، فكيف يمكن أن يدّعي أحد أن الدعاء يجعل الإنسان غيبياً في حياته العملية، حتى في موارد قدرته على الارتباط بعالم الحسن، ويعزله عن حركة النشاط الطبيعي في الواقع الذي يتحمل مسؤوليته؟

ثالث هذه الملاحظات: إن الدعاء يتنافى مع رضى الإنسان بقضاء الله وقدره، لأنه لا يصبر على الواقع الذي يعيش في داخله مما قدّره الله له.

وهذه شبهة لا معنى لها، لأن الدعاء — كما ذكرنا — جزء من الوسائل التي أراد الله للإنسان أن يأخذها في استكمال نظام الحياة التي جعل الله فيها لكل شيء قدراً في عناصره المادية والمعنوية. وكما أن الله لا يريد للإنسان أن يصبر على البلاء الذي يقدر على دفعه عن نفسه بالوسائل المادية، فإنه لا يريد له أن يتعد عن الرجوع إليه بالأخذ بالوسائل الروحية، ومنها الدعاء في دفعه، مما يعني أنه يحقق إرادة الله في ذلك لأنه جعل قضاءه وقدره مربوطين بمسألة الدعاء سلباً أو إيجاباً.

وهذا هو الرد على من قال — في الاعتراض على الدعاء —: بأنه تدخل في شؤون الله، والله يفعل ما يريد مما ينسجم مع مصالحنا، فلماذا نطلب منه

ونتضرع إليه؟! إذ إن الله يريد الأشياء بأسبابها ويحرك مصالحنا في اتجاه هذه الأسباب المادية والروحية، ونحن نطلب منه لأنه أراد منا ذلك.

* * *

إجابة الله دعاء عباده

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ في قلق المعرفة وحيرة الفكر، انطلاقاً من عالم الغيب الذي لا يملكون السبيل إليه بطريقة حسية، ومن علو الألوهية وسموها وارتفاعها في آفاق العظمة التي لا يدركون كنهها وحقيقتها، ولا يعرفون الوسيلة التي ينطلق فيها الإنسان إلى ربه، والعلاقة التي تربطه به في حاجاته التي يتطلبها، وفي مشاعره التي يحس بها، وفي تطلعاته التي يهفو إليها، ولا يدرون كيف يتحدثون معه، ويصلون إليه، وهو البعيد عنهم بعد السماء عن الأرض في الغموض الكثيف الذي يلف السماء في مفهومها الطبيعي في أفكارهم؛ الأمر الذي يخيل إليهم أنه لا مجال لأية صلة بينهم وبينه، لأنها تنطلق من مواقع القرب المكاني الذي لا دور له هنا، والمعنوي الذي لا مجال له بين العبد في حقارة موقعه وبين الرب الذي هو في العلو الأعلى الذي ليس فوقه شيء.

ولكن الله، الذي يعلم عمق أسرار عبادته، ودقة أحاسيسهم، وضبابية الغيب في تصوراتهم، وقلق المعرفة في دائرة الحيرة في علامات الاستفهام الكامنة في ذواتهم، أراد أن يستبق السؤال — في حال صدورهم منهم — بالجواب عن السؤال المتحرك في وجدانهم الخفي. وهذا هو الفرق بين أسلوب السؤال هنا، وأسلوب السؤال في الأسئلة التي يقدمها الناس إلى النبي ﷺ، مما حدثنا الله عنه بعنوان «يسألونك» لأن هذا السؤال كان في الأعماق، وفي همسات النفس، وهو جس الفكر بحيث يمثل علامة استفهام جنينية، فهو

الحالة الشأنية في السؤال . بينما ما ورد في القرآن من أسئلة الناس كان يمثل الفعلية التي تبحث عن معرفة كل ما يدور في الذهن، مما يجهره الناس ويتطلبون معرفته .

﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ لأنني لست وجوداً محصوراً في المكان لتكون المسافات هي التي تفصلني عنهم، بل هو الوجود الكلي في القدرة والإحاطة والشمول؛ فلا يغيب عنه شيء، فهو العالي في علوه في الوقت الذي هو الداني في دنوه، فلا شيء أقرب إلى عباده منه . ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ . وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

إنه الحاضر الذي لا يملك أحد معنى حضوره في وجود الإنسان لأنه سر وجوده، ولهذا كان قرب به إليه من خلال ارتباط ذاته به، فهو الذي يمنحها الوجود في كل آن من جهة فقره المطلق إليه .

وإذا كانت المسألة بهذا المستوى من معنى قرب الله إلى عبده، فإن على عباده أن يتعاملوا معه من موقع هذا القرب، ليتحدثوا معه حديث القريب إلى القريب، سرّاً وجهراً، في همسة الروح، وتمتمة الشفاه، وانفتاح القلب . . . ليجدوا فيه المعنى الروحي للقرب من عمق رحمته، ليتحسسوا وجوده في وجودهم، فلا يشعروا بالانفصال عنه، وليعيشوا لهفة الفقر في غناه، وصرخة الحرمان إلى عطائه لتكون حاجاتهم بين يديه؛ فهو الذي يسمع من فوق عرشه ما تحت سبع أرضين، ويسمع الأتني والشكوى، ويعلم السرّ وأخفى، ويسمع وساوس الصدور .

وهكذا خاطب الله كل واحد منهم بالأمل الحي، الأخضر، المنفتح على النتائج الإيجابية لكل طلباتهم، باعتبار أنهم عباده الذين خلقهم، وأفاض عليهم من نعمه، وتكفل بتدبيرهم في حياتهم كلها، وقربهم إليه . ﴿ أَجِيبْ دَعْوَةَ

أَلَدَّاعِ إِذَا دَعَا ۖ ﴿١٨٦﴾ من كل عمق الإخلاص في قلبه، وصدق المسألة في لسانه، وحقيقة الإحساس بالفقر والحاجة في روحه، وخفقة الإحساس في شعوره، ورقة الدموع في عينيه، ورعشة الخشوع في كيانه... إنه الدعاء الذي ينبع من وجود الذات في إنسانيتها المؤمنة بخالقها، المفتحة عليه، المستغيثة به، المستجيبة بقدرته، الراجعة إليه في كل أمورها، من دون وسيط بل، هو العبد بين يدي ربه...

وإذا عاش الإنسان هذا الروح الإلهي في الدعاء، كانت الإجابة قريبة منه لطفاً به ورحمةً له. وقد يؤخر الله الإجابة لمصلحته، لأن المسألة التي أَرادها لم تتوفر عناصر وجودها في هذا الوقت من خلال الظروف الخاصة أو العامة، أو لم تكن له المصلحة في الإجابة الآن، وقد لا تتحقق الإجابة أصلاً لأن مضمون الدعاء لم يكن مرضياً عند الله لاشتماله على طلب حرام، أو ترك واجب، أو مضرة إنسان لا يستحق إيقاع الضرر به، أو لتعلقه ببعض الأمور التي لا تتناسب مع حركة النظام الكوني أو الاجتماعي العام، ونحو ذلك... فإن مسألة الإجابة ليست مطلقة من خلال رغبة الإنسان ومزاجه، بل من خلال مصلحته، لأن الآية واردة — على الظاهر — في التدليل على استجابة الله لدعاء الداعي من حيث المبدأ، في مقابل عدم الاستجابة له مطلقاً، كما قد يحدث في بعض الناس الذين لا يستجيبون للطلبات المقدمة إليهم تكبراً وترفعاً وتجبراً على الطالبين، لتبين بأن الله يستجيب للداعين دعاءهم من موقع قربه إليهم، وإلى ما يصلح أمرهم ويحقق لهم غاياتهم، مع عدم وجود مانع ذاتي في متعلق الدعاء للإنسان أو لغيره من الناس أو للحياة من حوله.

وقد ورد أن من شروط استجابة الدعاء الإقبال على الله بقلبه، بحيث يفتح على الله بوعي الكلمة والموقف بين يديه، فلا يستجيب دعاء اللاهي الغافل الذي يتحوّل الدعاء عنده إلى كلمات لا عمق لها في القلب. فقد جاء في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن سليمان بن عمرو قال: سمعت أبا

عبد الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يستجيب دعاء بظهر قلب^(١) ساه^(٢)، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة»^(٣).

وجاء في بعض الأحاديث أن صاحب اللسان البذيء، والقلب العاتي الجبار، والنية غير الصادقة، لا يستجاب دعاؤه. فقد روي عن الإمام جعفر الصادق ﷺ قال: كان في بني إسرائيل رجل، فدعا الله أن يرزقه غلاماً ثلاث سنين. فلما رأى أن الله لا يجيبه قال: يا رب أبعد أنا منك فلا تسمعني، أم قريب أنت مني فلا تجيبني؟! قال: فأناه آتٍ في منامه فقال: إنك تدعو الله - عز وجل - منذ ثلاث سنين بلسانٍ بذيء، وقلب عاتٍ غير تقي، ونية غير صادقة، فأفلع عن بذائك، وليتق الله قلبك، ولتحسن نيتك. فقال: ففعل الرجل ذلك، ثم دعا الله فولد له غلام^(٤).

ولعل لبذاءة اللسان أي ألفاظه، وقسوة القلب في أحاسيسه، دور في إبعاد الإنسان عن الله، بحيث لا يعيش روحية الدعاء في موقفه البعيد عن خط التقوى.

وفي وصية الإمام علي ﷺ لولده الحسن ﷺ، كما في نهج البلاغة قال: «ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية. وربما أخرت عنك الإجابة، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا

(١) بظهر قلب: المشهور أن الظاهر هنا زائد مقحم. وفي الحديث: لا صدقة إلا عن ظهر غنى أي: صادرة عن غني، فالظاهر فيه مقحم كما في ظهر القلب.

(٢) ساه: أي: غافل عن المقصود وعما يتكلم به غير مهتم، أو غافل عن عظمة الله وجلاله ورحمته، غير متوجه إليه بسرائره وعزمه وهمته.

(٣) الكافي، ج: ٢، ص: ٤٧٣.

(٤) م. ن.، ص: ٣٢٤ - ٣٢٥.

تؤتاه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك؛ فلرب أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك في ما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله. فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له»^(١).

ففي هذه الفقرات من الوصية أن الله ينظر إلى قلب الداعي في حجم القضايا التي يحملها ويتطلع إليها في أعماقه، مما قد لا يعبر اللفظ عنه، لأن اللفظ قد لا يدلّ على الآفاق الواسعة التي ينفّح عليها القلب، الأمر الذي يؤكد أن الدعاء في القلب قبل أن يكون في اللسان، وبمقدار النية قبل أن تكون بمقدار المعنى المدلول عليه باللفظ، فتكون الاستجابة على قدر النية.

وفي هذه الوصية أن الاستجابة قد لا تكون في دائرة المطلوب لأنها لا تحقق مصلحة للداعي، أو قد تسبب مفسدة له؛ ولكن الله لا يهمل للداعي تطلعاته للخير من خلال ما اعتقده خيراً في دعائه، بل يختار له في مبدأ الاستجابة ما هو الأفضل والأوسع والأغنى في الدنيا أو في الآخرة. وهذا هو سر الرحمة الإلهية في رعاية الله لعبده الذي يمنحه الخير من خلال دعائه وتضرعه إليه، حتى لو كان الدعاء في اتجاه آخر، لأن المسألة هي أن يستجيب له في انفتاح الخير على حياته لا في مفردات الدعاء بذاتها.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ في كل نداءاتي ودعواتي وأوامري ونواهي... التي أردت لهم من خلالها الصلاح في دنياهم وأخراهم، لتكون حياتهم متوازنة منفتحة على الخير في كل أوضاعهم، ولتنطلق آخرتهم في خط الاستقامة المنفتح على الله.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ وبربوبيتي الشاملة، وبتوحيدي في الألوهية والعبادة والطاعة، لأن ذلك هو الذي يؤكد الصلة بين العبد وربّه، ليعيش الحضور الإلهي في عقله وروحه وحياته، وليدرك معنى القرب الذي يوحى به الله إليه،

ليكون قريباً إلى ربه بالاستجابة له والإيمان به كما أن ربه قريب إليه، وفي كلا الحالين تعود المنفعة له.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ لأنهم إذا استجابوا لله انطلقوا في خط الوعي للحياة في كل قضاياها العامة والخاصة، ولإنسانيتهم في كل خصائصها الداخلية والخارجية، وتحركوا نحو الأهداف من موقع الرشد العملي الذي يضع الأمور في مواضعها.

وإذا آمنوا به الإيمان العميق الشامل الذي ينطلق من سكينة العقل وطمأنينة الروح، فإنه يقف على أرض صلبة ثابتة بعيدة عن الاهتزاز، ويسير إلى الحياة من خلال انطلاق الوجود من مبدأ الإله الواحد الذي ينطلق الخير منه، ويقف الحق عنده، وتنطلق الرحمة منه، مما يعني الانطلاق في خط الرشد الفكري الذي يفتح على الله الذي هو الحق، ليكون الفكر كله حقاً لا مجال للباطل معه.

وإذا كان اعتبار الرشد هدفاً من الاستجابة لله والإيمان به، فإن من الممكن أن نستوحي من ذلك أن الله — سبحانه — يوجه عباده إلى السير على خط الإيمان بالله، الذي يجعل العقل يشرق بالنور الإلهي، ليتأسس التوحيد على قاعدة للفكر تبتعد به عن كل الآلهة المزعومين، ممن يؤلهون أنفسهم، أو يؤلههم الناس من دون الله، ليستقيم لهم أن يوحّدوا الخط العملي في خط الاستقامة؛ وإلى الاستجابة لله في خطوط الإسلام الفكرية والعملية، حيث يتحول الإنسان من خلال تأثير ذلك في الشخصية إلى إنسان رشيد في عقله وفي حركته وعلاقته بالآخرين، بحيث يحرك طاقاته في المواقع التي تمنح الحياة العامة ما تحتاجه منها، فلا يضيع منها شيء في الفراغ أو في ما لا ينفع الحياة والناس، سواء كانت الطاقات طاقات الإنسان في داخل ذاته، أو في الزمن الذي جعله الله مسؤولية الإنسان في الانتفاع به في كل مفرداته الصغيرة والكبيرة، لأنه يمثل عمره في مراحل المتعددة، أو في القوى المادية التي

يملكها الإنسان مما رزقه الله إياه وأعد له وسخره لخدمة حياته، فلا يريد الله لها أن تضيع في متاهات اللهو والعبث الذي لا يؤدي إلى أية نتيجة في الحياة. إن الرشد يمثل الحركة الإنسانية السائرة في النور، لتصل بالطاقة إلى أهدافها التي خلقت لها في النتائج الكبرى التي تتحقق من خلالها في الحياة والإنسان، ليكون السفه عبارة عن إهدار تلك الطاقة وتضييعها وإطلاقها في صحراء الفراغ.



الآية

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

* * *

معاني المفردات

﴿الرَّفَثُ﴾: وأصله كلام متضمن لما يستقبح ذكره كالجماع ودواغيه .
وجعل كناية عنه .

قال الطباطبائي في تفسيره: «وهو من أدب القرآن الكريم، وكذا سائر الألفاظ المستعملة فيه في القرآن كالمباشرة والدخول والمس واللمس والإتيان

والقرب، كلها ألفاظ مستعملة عن طريق التكنية^(١).

ويمكن أن نلاحظ على ذلك، أن التعبير بهذه الكلمات الكنائية الإيحائية كان منطلقاً من استعمالها في كلام العرب للدلالة على هذه المعاني الفاحشة، تماماً كما هو التعبير بالكلمات الصريحة. وقد جاء في السيرة النبوية الشريفة أن النبي ﷺ كان يتحدث عن الجماع بالكلمات الأكثر وضوحاً عندما تمس الحاجة، مما يوحي أن مسألة الاستقباح تابعة للعرف الحضاري الذي يختلف بين مرحلة وأخرى، فإن الفحش في المعنى لا في الكلمة.

﴿لِيَأْسُ﴾: الثياب التي من شأنها أن تستر الأبدان. ولعل هذا التعبير ينطلق من استعارة لطيفة، فإن كلاً من الزوجين يمنع صاحبه من اتباع الفجور، فكأن كلاً منهما لباس لصاحبه بحيث يوارى به سوءه، ومنه جعل التقوى لباساً باعتبار أنه يمنع الإنسان من إظهار عيوبه بإبعادها عن حياته. وقد يكون للتعبير وجه آخر.

﴿تَخْتَانُونَ﴾: تخونون عن قصد واختيار. قال الزمخشري: والاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، فيه زيادة وشدة^(٢). أما الراغب فيقول في مفرداته: «والاختيان: مراودة الخيانة، ولم يقل: تخونون أنفسكم، لأنه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان. فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة»^(٣).

﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾: بياض النهار، وأصل الخيط هو الخط الممتد المستقيم.

(١) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ٤٥.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، ج: ١، ص: ٣٣٨.

(٣) مفردات الراغب، ص: ١٦٢.

﴿الْخَيْطُ الْأَسْوَدُ﴾: سواد الليل.

﴿تُبَشِّرُوهُمْ﴾: المباشرة الإفضاء بالبشرتين من خلال إلصاق البشرة - وهي ظاهر الجلد - بالبشرة. وكُنِّي به عن الاتصال الجنسي.

﴿حُدُودُ﴾: الحد هو الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، يقال: سميت أحكام الله وشرائعه حدوداً لمنعها عن التخطي إلى ما وراءها.

* * *

مناسبة النزول

وقد جاء في رواية علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه رفعه إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق عليه السلام - قال: «كان الأكل محرماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان، وكان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له مطعم بن جبير، أخو عبد الله بن جبير الذي كان رسول الله ﷺ وگلَّهُ بفم الشعب يوم أُحُد في خمسين من الرماة، وفارقه أصحابه وبقي في اثني عشر رجلاً، فقتل على باب الشعب، وكان أخوه هذا مطعم بن جبير شيخاً ضعيفاً وكان صائماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام، فنام قبل أن يفطر. فلما انتبه قال لأهله: قد حرم علي الأكل في هذه الليلة، فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمي عليه، فرآه رسول الله ﷺ فرق له. وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان، فأنزل الله هذه الآية، فأحل النكاح بالليل في شهر رمضان والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر»^(١).

* * *

الصوم وحدود العلاقات الجنسية في شهر رمضان

في هذه الآية تحديد للأوقات التي تحرم فيها العلاقة الجنسية على الصائمين. فقد ورد في بعض الأحاديث أنها كانت محرمة عليهم في الليل والنهار، وكان هذا التحريم حرجاً عليهم حتى أن بعض الشباب كانوا يمارسونها سراً في الليل، فيجدون في أنفسهم الشعور المهين بالخيانة. فجاء هذا التحليل في هذه الآية ليرفع ذلك عنهم، في ما يأتي، ويتوب عليهم ويعفو عنهم في ما مضى.

وربما كان في جو الآية — كما ورد في أسباب النزول — ما يوحي بالتشجيع على هذه الممارسة، من أجل أن يفرغ الصائمون أنفسهم من كل المشاعر الشهوانية التي تثقل وجدانهم، فتشغلهم عن روحانية الصوم وأسلوبه العملي في التربية على التقوى، لأن الله لا يريد للتقوى أن تتحرك في حياة الإنسان على أساس منهج القسر والضغط والشدة، الذي لا يترك مجالاً للإنسان ليتنفس أو يفتح أو يواجه الموقف من موقع الطبيعة البشرية، بل أرادها أن تنطلق على أساس الإرادة المرتكزة على الانفتاح على الشهوات من بعض الجهات، لتغلق عنها في الأخرى التي حرمها الله، فيكون الالتزام بخط التحريم قريباً إلى طبيعة الإنسان في حركته في صعيد الواقع.

وفي ضوء هذا، كان الصوم في النهار أسلوباً واقعياً عملياً، لأنه لا يشل الحاجة الغريزية في الإنسان تماماً، بل يترك لها المجال لتشبع جوعها في الليل. وبهذا جاءت الفقرة القرآنية في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ للإيحاء بشدة العلاقة التي تربط الرجل والمرأة ببعضهما البعض، مما يوجب قلة الصبر عن الامتناع والاجتناب عن الحاجة الجنسية لأحدهما تجاه الآخر. وقد كنى عن الجماع بالرفث، لأن الرفث هو الإفصاح بما يجب أن

يكنى عنه، ولا يخلو الجماع من ذلك، كما في الكشف^(١).

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تنقصونها حظها من اللذة بامتناعكم عن الجماع في الليل، وخيانة النفس تكون في ظلمها بمنعها عما ترتاح إليه، أو تكون بمعنى ممارسة المعصية تمرداً على التحريم الذي كان مفروضاً في ليالي الشهر بالإضافة إلى نهاراته، فلا تؤدون الأمانة الإلهية بالامتناع عن الجماع، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ تخفيفاً لما اشتد عليكم، بإباحته لكم أو بالغفران لكم ﴿فَالْتَنَبَّشُوا هُنَّ﴾ بالليل لتحصلوا على حاجتكم الجنسية من دون تحريم ولا حرج. والأمر هنا بمعنى الإباحة لا الوجوب، لأنه وارد بعد التحريم مما يكون قرينة على أن المراد به رفع التحريم، لا الوجوب.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الظاهر منه الولد باعتباره الغاية من العمل الجنسي غالباً، بالإضافة إلى قضاء الشهوة، أو للتشجيع على التناسل واعتباره غاية مطلوبة لذلك.

وهناك احتمال آخر وهو أن المراد: اطلبوا ما كتب الله لكم من الحلال الذي بينه بكتابه، فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فقد أباح الله لكم ذلك في الليل، ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ﴾ أي: يظهر ويتميز لكم على التحقيق في وضوح الرؤية، ﴿الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ﴾ وهو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخييط الممدود، ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ما يمتد معه من غبش الليل، كما في الكشف^(٢) ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ الذي يبدأ طلوعه بالبياض، الذي يبدو في الأفق.

﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَىٰ آيِلٍ﴾ هذا تحديد لنهاية موعد الصيام، وعدم تشريع صوم الوصال الذي يصل به الصائم ليله بنهاره بنية واحدة. ﴿وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ﴾

(١) انظر: تفسير الكشف، ج: ١، ص: ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢) انظر: م. ن. ج: ١، ص: ٣٣٩.

وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ ﴿١﴾ هذا استثناء من جواز الجماع والمباشرة في ليل الصوم، فإنه لا يجوز للإنسان المعتكف في المسجد أن يمارس ذلك، سواء كان ذلك في شهر رمضان أو في غيره. والاعتكاف عبادة خاصة، يحبس الإنسان فيها نفسه في المسجد للعبادة، فلا يخرج إلا لضرورة. ومن شروطها الصوم، والاستمرار فيها ثلاثة أيام. وأحكامها مذكورة في كتب الفقه.

* * *

لَا تَقْرَبُوا حُدُودَ اللَّهِ

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(١) إن في هذه الآية إشارة إلى أن المحرمات هي حدود الله التي يجب أن يقف الناس عندها فلا يقربوها بممارستها والإقبال عليها، وربما كان المقصود بحدود الله هي شرائعه في ما أحل وفي ما حرم، فتكون الآية كناية عن الوقوف عند الحاجز بين الحلال والحرام، لئلا يصل الإنسان إلى الانتهاك للمحرمات كما ورد في بعض الكلمات المأثورة: «المحرمات حمى الله، فمن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه».

وربما كان التعبير بكلمة: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بدلاً من «ولا تتعدوها» للإيحاء بعدم الاكتفاء بتركها بل بالابتعاد عنها. قال الزمخشري في الكشاف: «فإن قلت: كيف قيل: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ مع قوله: «فلا تتعدوها ومن يعتد حدود الله؟! قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق، فمنه أن يتعداه لأن من تعداه وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فمنه أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الوسطة متباعدًا عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه»^(١).

(١) تفسير الكشاف، ج: ١، ص: ٣٤٠.

ولا بد للإنسان من أن يعي جيداً كيف يثير الله أمامه حدوده التي لا يريد له أن يتجاوزها ويتمرد عليها، من أجل أن يفهمها ويعرف كيف ينفذ إرادة الله في ما يرضيه وما يسخطه، ليكون ذلك باعثاً له على الالتزام والانضباط وبناء شخصيته على الأسس الشرعية التي تعطيه صفة التقوى في كل مجالات حياته الخاصة والعامة. وهذا ما يجب أن نتوفر عليه في مجالات التوجيه والتربية في بناء الشخصية الإسلامية، وذلك بالتأكيد على الجانب الشرعي في قضايا الإنسان الصغيرة والكبيرة معرفة وتطبيقاً، لأن الاكتفاء بالمفاهيم العامة يجعل الإنسان غارقاً في الضباب، بعيداً عن الحدود الفاصلة بين الحق والباطل، والكفر والإسلام.



الآية

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿تَأْكُلُوا﴾: الأكل: كناية عن الأخذ والاستيلاء، أو مطلق التصرف مجازاً.

﴿بِالْبَاطِلِ﴾: الباطل: هو الذاهب الزائل يقال: بطل إذا ذهب، وقيل: الباطل هو ما تعلق بالشيء على خلاف ما هو به خبراً كان أو اعتقاداً أو ظناً أو تخيلاً. وربما كان إطلاق الكلمة على هذا باعتبار أن ما كان على خلاف الحق والواقع لا ثبات له في مضمونه، فهو في معرض الزوال من النفس إذا انكشف الأمر على حقيقته.

﴿وَتُدْلُوا﴾: الإدلاء هو إرسال الدلو في البئر لنزع الماء، والمراد به هنا الإلقاء بالمال إلى الحكام رشوة للحصول على الحكم. وربما كان وجه

المناسبة بين معنى الكلمة وبين المقام — وهو إعطاء المال إلى الحكام — هو استبطان حكمهم المطلوب بالرشوة الممثل لحال الماء في البئر بالنسبة إلى من يريده، كما يقول صاحب الميزان^(١). وقال الطبرسي في مجمع البيان: «وفي تشبيه الخصومة بإرسال الدلو في البئر وجهان:

أحدهما: أنه تعلق بسبب الحكم، كتعلق الدلو بالسبب وهو الحبل.

الثاني: أنه يمضي فيه من غير تثبيت، كمضي الدلو في الإرسال من غير تثبيت^(٢).

﴿فَرِيقًا﴾: الفريق هو القطعة المعزولة من الشيء، سواء كانت من الناس أم من غيرهم.

﴿بِالْإِثْمِ﴾: الإثم: الفعل الذي يستحق به الذم، كالظلم والتعدي عن الحق، كما في شهادة الزور واليمين الكاذبة ونحوهما.

* * *

لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

جاء في الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية: كانت قريش تقامر الرجل بأهله وماله فنهاهم الله عز وجل عن ذلك^(٣).

وفي الكافي عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (جعفر الصادق عليه السلام) قول الله — عز وجل — ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾؟ فقال: يا أبا بصير إن الله — عز وجل — قد

(١) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ٥٣.

(٢) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٠٦.

(٣) الكافي، ج: ٥، ص: ١٢٢، رواية: ١.

علم أن في الأمة حكاماً يجورون. إلا أنه لم يعنِ حكام أهل العدل، ولكنه عنى حكام الجور. يا أبا محمد أنه لو كان لك على رجل حق فدعوته إلى حكام أهل العدل فأبى عليك إلا أن يرافعك إلى حكام أهل الجور ليقضوا له، لكان ممن حاكم إلى الطاغوت؛ وهو قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ﴾ [النساء: ٦٠] ^(١).

وفي المجمع قال: روي عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام: «يعني بالباطل اليمين الكاذبة يقطع بها الأموال» ^(٢).

وهذا المنهج في التفسير جاء وفق الأسلوب الذي اتبعه أئمة أهل البيت عليهم السلام في التفسير بالمصداق للإشارة إلى المفردات التي ينطبق عليها العنوان العام، من دون تخصيص الآية بهذا المورد أو ذاك. وهذا ما نلاحظه في هذه الروايات التي فسرت الباطل بالقمار تارة واليمين الكاذبة أخرى، كما استوحت الرواية الثانية من الآية قضية التحاكم إلى حكام الجور والامتناع عن التحاكم إلى حكام العدل، لأن أولئك قد يحكمون بغير الحق بالرشوة التي قد يطلبها الحاكم ويقدمها المرتشي إليه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لا يتملك أي واحد منكم المال الذي لا يستحقه، وذلك من خلال الوسائل غير الشرعية التي لا يرضاها الشرع ولا يقبلها العقلاء، سواء كان ذلك بالغصب والظلم أو القمار ونحوه، فإن مسألة الحق في المال خاضعة لأسباب معينة جرى عليها العقلاء في الواقع الاجتماعي والاقتصادي في المعاملات العامة والخاصة، وأمضاها الشارع أو لم يردع عنها، مما يجعل الوسائل الأخرى تقع في حيز الباطل الذي يحرم أكل

(١) الكافي، ج: ٧، ص: ٤١١، رواية: ٣.

(٢) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٠٦.

المال والاستيلاء عليه من جهته، ﴿وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي: تلقوا بها إلى القضاة الذين ينظرون في قضايا الناس لإصدار الأحكام فيها، وذلك قد يكون برشوة الحاكم الجائر المنحرف للحكم بالباطل، وقد يكون بتقديم القضايا للمحاكم من خلال الحجة الباطلة، والبيئة الكاذبة، والضغط القاسي، واليمين الكاذبة، للوصول إلى أخذ المال من غير حق بفعل الأساليب غير المشروعة. وقد روى المفسرون عن النبي ﷺ أنه قال للخصمين: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم ألحن^(١) بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإنما أقضي له قطعة من نار. فبكيا وقال كل واحد منهما: حقي لصاحبي، فقال: اذهبا فتوخيا، ثم أسهما^(٢)، ثم ليحلّ كل واحد منكما صاحبه»^(٣).

وربما كان الظاهر من سياق الآية — على ما يخطر بالبال — أن المشكلة تتصل بالإدلاء بالأموال إلى الحكام، بحيث تكون المسألة اتفاقاً بين الآكل والحاكم للحكم بالباطل بواسطة الرشوة ونحوها، لأن الآية تدل على الإدلاء بالأموال إلى الحاكم بمعنى تقريبها منه وجعلها في تصرفه، ليحكم بها على مزاجه من خلال ما يقدم اليه منها من الحصة أو الرشوة. وهذا هو المستفاد من رواية الإمام الصادق عليه السلام الثانية التي ذكرناها في صدر تفسير الآية. وفي ضوء هذا لا مجال للاستدلال بالحديث المروي عن النبي محمد ﷺ على عنوان الآية؛ والله العالم.

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ من خلال الوسائل غير المشروعة

(١) ألحن: أظن وأعرف وأقدر عليها من صاحبه.

(٢) أسهما: اقترعا أي: اقصدا الحق في القسمة وليأخذ كل منكما ما تخرجه القرعة من النصيب.

(٣) تفسير الكشاف، ج: ١، ص: ٣٤٠.

في الاستيلاء عليه، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ واقع الحال الذي يوحى إليكم بأنكم على الباطل من دون أية شبهة، مما يجعل جريمتكم أكبر لأن ارتكاب الحرام مع العلم أكثر خطورة وأعظم قبحاً من ارتكابه مع الشك.

* * *

بين الملكية الفردية وأكل الحرام

وهذا تشريع جديد، يضاف إلى التشريعات الإسلامية التي يراد من خلالها تنظيم الواقع الاجتماعي للمسلمين، ولكنه تشريع يتعلق بالعلاقات المالية بينهم، فإن الإسلام يقر الملكية الفردية التي تقتضي اختصاص كل فرد بحصته من المال الذي أعده الله وخلق له للإنسان، ولكنه نظم له طريقة الاختصاص والتملك بطرق شرعية خاصة، فأحل له ذلك بأسباب وحرّم عليه بأسباب أخرى، واعتبر كل سبب لا يقره الشرع باطلاً لا يحقق ملكاً ولا يبيح تصرفاً، ونهى الإنسان عن كل علاقة باطلة بكل ما تستتبعه من أوضاع وتكاليف، وكنتى عن ذلك بالأكل باعتبار أن الأكل يمثل أولى الحاجات الطبيعية التي يُقبل عليها الإنسان في وجوده لحفظ حياته. وربما كان التعبير بـ ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ إشارة إلى أن المال للجماعة، ولكن الله جعل لكل فرد منه حصة خاصة يتصرف فيه بما يريد مما لا يسيء إلى مصلحة الآخرين، الأمر الذي يؤكد الصفة العامة للمال من موقع تأكيده على الصفة الخاصة على أساس أن لكل منهما وظيفة ودوراً لا يتعداه ولا يسيء في حركته العملية للآخر.

ولا بد لنا في هذا المجال من مواجهة كل علاقاتنا المالية بالوعي الشرعي الذي يميز بين الحق والباطل فيها، في ما أباحه الله وما حرّمه منها، وذلك في ما يستحدثه الناس من التشريعات المالية في توزيع المال من جهة، وفي أخذه من أصحابه من جهة أخرى، كما نراه في تشريعات التأمين في

الأوضاع الثورية التي قد تتفجر بها التطورات السياسية، وفي ما ينحرف به السلوك في مجالات التطبيق الفردي والجماعي، فإن على المسلم أن لا يندفع مع التيارات المتحركة في الساحة بعيداً عن حكم الله، انطلاقاً من الحالات الانفعالية في الثورة على الظلم والظالمين، فإن تحطيم الظلم لا يمكن أن يحصل بظلم جديد آخر، بل لا بد من أن ينطلق من موقع العدل المتمثل بالتشريع الإسلامي.

وقد تعرضت الآية، في حركة التطبيق العملي لهذا الخط، إلى ما يتعارف بين الناس من بذل الأموال لحكام الجور على طريق الرشوة، من أجل أن يحكموا لهم بالباطل في ما يتنازعون فيه من قضايا الأموال والحقوق، وما يقدمونه ضد بعضهم البعض من دعاوى باطلة؛ فإن الآية تشجب هذا السلوك وتنبه الناس إلى أن لا يقدموا أموالهم إلى الحكام على سبيل الرشوة، من أجل أن يأكلوا فريقاً من أموال الناس بالطرق غير الشرعية التي لا يكسب الإنسان منها إلا الإثم والعذاب عند الله، الذي يعلمونه حقاً في ما أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله.

وفي الآية لفظة موحية إلى الحكام بطريق غير مباشر، في أن يمتنعوا عن أخذ ذلك، باعتبار ما فيه من تزيف للحق بالباطل ومن الحكم بالمال إلى غير مستحقه، مما يؤدي بهم إلى عذاب الله من جهة وإلى ضمان المال من جهة أخرى. وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تفيد أن رسول الله ﷺ قال «لعن الله الراشي والمرتشي والماشى بينهما»^(١) بالرشوة، وفي بعضها أن الرشوة كفر بالله العظيم، وفي بعضها أنها شرك.

وقد يكون من بين الموارد التي تشملها هذه الآية — ولو بالإيحاء — ما يتعارف عليه بعض الناس من توكيل بعض المحامين، ليدافعوا عن الدعاوى

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٤٣٦، باب: ٣، رواية: ١١.

الباطلة، وليجدوا لهم مخرجاً من القانون يمكنهم من خلاله ربح الدعوى على الإنسان البريء أو المظلوم، وقد يكون من بينها ما يلجأ إليه بعض الناس من الرجوع إلى القانون الوضعي المدني، الذي يحلل للناس بعض ما حرمه الله، كما في القوانين التي تساوي بين الذكر والأنثى في الميراث، وذلك للحصول على الحصة التي لا يحلها الشرع من المال، فإن ذلك أكل للمال بالباطل من جهة، وإدلاء بالمال إلى الحكام ولو بالواسطة من جهة أخرى، في ما يتعلق بالمحامين الذين يحرم عليهم أخذ الأجرة على ذلك كما يحرم على الآخرين دفعها إليهم، لأن ذلك باطل بباطل.



الآية

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^{١٨٩}

* * *

معاني المفردات

﴿الْأَهْلَةُ﴾: جمع هلال، وهو القمر، يبدو دقيقاً في ليلتين أو ثلاث من أول كل شهر، ثم يزيد حتى يمتلئ نوراً. ثم يعود كما بدأ ولا يكون على حالة واحدة كالشمس.

﴿مَوَاقِيتُ﴾: جمع موقات، وهو مقدار من الزمن جعل علماً لما يقدر من العمل.

﴿الْبِرُّ﴾: النفع الحسن.

﴿ظُهُورِهَا﴾: الظهر: الصفحة المقابلة للوجه.

﴿أَتَوَيْهًا﴾: الباب: المدخل.

* * *

مناسبة النزول

جاء في أسباب النزول في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ قال ابن عباس: إن معاذ بن جبل وثعلبة بن عزمة وهما رجلان من الأنصار، قالوا يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يكون كما كان، لا يكون على حالة واحدة؟^(١)

وسياتي الحديث في الجانب التفسيري أن هناك اعتراضاً على هذا الوجه من الاحتمال في الآية، وقد ناقشنا في هذا الاعتراض.

وجاء في أسباب النزول - في ما رواه السيوطي في الدر المنثور - قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره. فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(٢). وجاء في تفسير الكشاف: «كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقليل لهم: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ ليس البر بتحرجكم من دخول الباب ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ بر ﴿مَنِ اتَّقَى﴾ ما حرم الله»^(٣).

(١) الواحدي، أبو الحسن، علي بن أحمد، أسباب النزول، دار الفكر، بيروت -

لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ص: ٢٩.

(٢) الدر المنثور، ج: ٢، ص: ٤٩١.

(٣) تفسير الكشاف، ج: ١، ص: ٤٣٠ - ٣٤١.

وقد لا نجد مانعاً من التسليم بنزول الآية في هذا المورد، ولكن سبب النزول لا يحدد مفهوم الآية بمورد نزولها، بل يكون منطلقاً للفكرة العامة.

* * *

الإسلام يفتح على الاستجابة أمام إثارة التساؤلات

وهذا أسلوب جديد من أساليب القرآن في التربية، وهو أسلوب إثارة السؤال من خلال ما يقدمه الآخرون من القضايا التي تدور في تفكيرهم، فيحاولون معرفتها بهذه الطريقة، وقد أراد الله للنبي ﷺ أن يهتم بكل الأسئلة التي تطرح عليه، لأن من حق الناس عليه أن يتدبرهم بالمعرفة إذا لم يسألوه، وأن يجيبهم إذا توجهوا إليه بالسؤال، لأن الله قد أرسله من أجل أن يزيكهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويفتح لهم أبواب المعرفة على أوسع مدى وأرحب مجال.

وقد يكون هذا التأكيد على الأسئلة التي كانت توجه إلى النبي محمد ﷺ من المسلمين، والأجوبة التي كان يقدمها إليهم، ونقل ذلك في القرآن، إحياء بأن الإسلام يفتح على كل علامات الاستفهام التي تدور في أذهان الناس في القضايا التي تشغل تفكيرهم في حياتهم الخاصة والعامة، فمن حق الناس أن يطلعوا كل الأسئلة أمام القيادة الإسلامية، حتى إذا كانت في مستوى النبوة المتمثلة بالنبي محمد ﷺ، لأن ذلك هو الذي يحرك الإنسان في خطوات المعرفة.

فقد ترد هناك بعض العناوين التي لا يملك الإنسان وضوح الفكرة فيها، وقد تنطلق بعض الأفكار المضادة للعقيدة، أو للشريعة، أو للموقف القيادي، أو للواقع العام، مما يثير التساؤل أو الرفض... ولا بد للقيادة الفكرية والسياسية من الاستجابة لذلك كله بكل انفتاح ورحابة صدر وسعة أفق، بعيداً

عن كل تشنج أو انفعال؛ فليست هناك محرمات أمام أي سؤال لأن التحريم يعني سدّ باب المعرفة لدى الناس ممّن لا يملكون الوضوح فيه، فيتحول الإسلام إلى حالة معيّنة، متخلفة بعيدة عن أية إمكانيات للتقدم والتطوير؛ ويجعل الناس يعيشون حالة التعبّد في خطوط الفكر في الوقت الذي يقتصر فيه التعبّد على الجانب العبادي وبعض الجوانب العملية في التشريع، مع بعض الملاحظات التي تتحرك لتحدث عن أسرار العبادة أو التشريع بطريقة قريبة إلى الوجدان.

إن الله سبحانه يحدث دائماً لنبيه عن أنه أنزل الكتاب عليه ﷺ ليسين للناس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]. وذلك يعني أن على النبي أو الإمام أو العالم الداعية، أن يدخل مع الناس في التفاصيل التي يختلفون فيها فتتعدد آراؤهم حولها، ليعطيهم الحكم الفاصل في ذاك الموضوع أو ذلك، لينطلق الناس في المعرفة على أساس من الوضوح في المبدأ والتفاصيل.

إننا نلاحظ في الأسئلة التي بدأها القرآن في هذا الفصل، أنها لا تقتصر على جانب واحد، بل تتنوع فيها الموضوعات، فقد سألوا عن الأهله، وماذا ينفقون، وعن القتال في الشهر الحرام، وعن الخمر والميسر، وعن اليتامى، وعن المحيض، وعما أحل لهم وأمثال ذلك مما يتصل بملاحظاتهم التأملية، وبأوضاعهم الإنفاقية والقتالية، وبما يشربون وما يلبسون، وبما يطرأ عليهم من حالات جسدية، وبما يتفشى بينهم من حالة اليتم والحرمان...

وسألوا عن الساعة وعن توقيتها، وعن الأنفال من يملكها، وعن الروح ما هي، وعن الجبال كيف يكون مصيرها عند نهاية الكون مما يتصل بالجو

التأملي، وعن القلق المستقبلي والأشياء الموجودة في الطبيعة وعمق الذات الإنسانية...

فلا بد من أن تكون هناك حالات وأوضاع وأشياء أثارت هذه الأسئلة في أذهانهم مما بيّنه النبي ﷺ ولم يكن واضحاً في تفاصيله، أو مما لم يبيّنه مما ترك للناس أمر السؤال عنه ليبيّن لهم ذلك في الجواب.

وإذا كان الله سبحانه يولي مثل هذه الأمور البسيطة الأهمية البالغة، فينزل على نبيه الأجوبة عنها على حسب المستوى الذهني الذي كانوا يتمتعون به ليستريحوا إليه في ما يتأملونه أو يتعلمونه؛ فهل يمكن أمام ذلك، أن لا يحتمل الله رسله والدعاة إلى دينه المسؤولية في أن يستجيبوا للأسئلة الصعبة التي تتصل بالعقيدة في أصولها وتفصيلها، وعلى الخطوط العامة للمفاهيم الإسلامية لا سيما في الحالات التي يعيش فيها الواقع الإسلامي الصراع بين الإسلام والتيارات الأخرى المضادة أو في داخل الإسلام في اختلاف المذاهب الكلامية والفقهية، بحيث تتحرك من خلالها علامات الاستفهام في أكثر من موقع أو قضية مما يثيره الآخرون أو تفرضه أجواء الخلافات التي تثير الحيرة والقلق الفكري والروحي؟

إن حركة الجواب في السؤال تستطيع أن تؤصل للإنسان عقيدته وتفكيره، وتملأ بالصفاء روحه وعقله، وتقوي قدرته على المواجهة والدخول في ساحات الصراع، ليحمي مواقفه عندما تحتدم الأفكار وتعنف الكلمات.

* * *

السؤال والجواب أسلوب تربوي

وقد نلاحظ أن أسلوب السؤال والجواب هو من أفضل الأساليب التربوية

في تعميق الفكرة في وجدان الإنسان، لأنك في الجواب تحدث السائل عن نفسه عندما تعالج أسباب حيرته، فتفتح له أبواب المعرفة في ما يجهله، مما يجعله ينجذب إلى الكلمة انجذاباً وجدانياً بفكره وشعوره، لأنها تمثل ردّ الفعل لكلمته، ومفتاح الحل لمشكلته؛ فلا يستسلم في انفتاحه على الجواب لأية حالة شرود أو ذهول أو غفلة، لأن الإنسان لا يسأل عادة إلا عن الأشياء التي تضغط على وجدانه وتنطلق من عمق اهتماماته، بينما نجد هذا الإنسان لا يندفع بمثل هذا المستوى لسماع محاضرة أو درس أو نقاش بين اثنين... فقد يقف موقف اللامبالاة، أو يستسلم لبعض الشرود الفكري أو الذهول الروحي، أو يتعد عن الجو كلياً من خلال قضايا أخرى أكثر أهمية من هذه القضية أو تلك.

ولهذا نجد أن القرآن لم يكتف بالجواب عن الأسئلة التي يقدمها الناس إلى النبي، بل بادر إلى أن يطرح الأسئلة على الآخرين، فقد تعددت الآيات التي فرضت الأسئلة التي لو أطلقت أمام الناس الذين قد يكفرون أو يشككون، لانطلق الجواب من عمق الفطرة في إجابة حاسمة تؤكد أصالة الإيمان في الفطرة كقاعدةٍ للمنهج في حركة التفكير، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَوَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ

سَكْرَمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾
[القصص: ٧١-٧٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

إنها الأسئلة التي تفتح على الإنسان ذاته في الحالة التي لا يعيش فيها العقدة المرضية التي توحى له بالجحود والعناد، بل يعيش فيها عفوية حركة ذاته مع الآخرين، لينطلق الجواب مع عفوية الحقيقة في أعماقه من خلال فطرته التي ترى الله في كل شيء.

وتحدثنا بعض الآيات كيف يطرح الله الجواب التفصيلي عن علاقته بعباده انطلاقاً من السؤال الذي يفرض أنهم يقدمونه إلى النبي محمد ﷺ أو إلى كل داعية، لأن طبيعة الأمور في إيمانهم بالله تدعو إلى مثل هذا السؤال الذي يحاول أن يستشرف أسرار الغيب في الذات الإلهية المقدسة في ما لا يملكون الوسائل العادية للوصول إلى معرفته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولا بد للعاملين في حركة التربية والدعوة الإسلامية من أن يأخذوا بهذا الأسلوب التربوي في مناهجهم وأساليبهم، انطلاقاً من المنهج القرآني الذي يفتح على أقرب الطرق للوصول إلى عقل الإنسان وروحه في الدعوة والحركة.

وقد اختلفت وجهة النظر عن المسؤول عنه في الآية، فاختار أكثر المفسرين أن مورده هو حالات القمر المختلفة، فإنه يبدو صغيراً ثم يكبر، ثم يصغر بعد ذلك، فأرادوا أن يفهموا السر في ذلك الاختلاف الذي يلفت النظر لدى كل إنسان. ولكن الجواب لم يكن على وفق السؤال، بل اتجه اتجاهها

آخر، وهو الحديث عن فوائد هذا الاختلاف، لأنه يحدد للناس مواقيتهم ومواعيدهم في ما يحتاجون إليه من تحديد الوقت في قضاياهم العامة والخاصة، ولا سيما في موضوع الحج الذي له موعد خاص - وقد ركز عليه لأهميته عندهم - وقال بعض المفسرين في التعليق على ذلك: إنهم لم يكونوا في مجال الاستفادة من المعرفة الفلكية، مما يجعل الدخول في ذلك اقتحاماً في عملية لا تتسع لها أفكارهم من جهة، ولا تخدم حياتهم من جهة أخرى؛ ولهذا أعرض عن الجواب حول الموضوع، لينتقل إلى السؤال عن فوائد ذلك وحكمته في الحياة، من حيث إنها تضبط لهم مواقيتهم في أعمالهم، وتحدد لهم وقت الحج بالخصوص في الوقت الذي تتميز فيه عن الشهور الشمسية بسهولة تناول التاريخ القمري لكل الناس، لأنه لا يحتاج إلا إلى النظر والملاحظة؛ بينما يتوقف التاريخ الشمسي على الحساب، فلا يعرفه إلا الحاسبون. ويعقبون على ذلك بأن من مهمة الموجه والمرشد أن لا يجيب عن كل الأسئلة، لأن بعضها لا يتصل بحياة الناس بالمستوى الكبير، بل ينبغي له أن يوجههم إلى القضايا المهمة التي يجب أن يسألوا عنها ليستفيدوا منها بشكل مباشر، وفي ضوء ذلك كان تفسيرهم للتعقيب القرآني اللاحق للجواب:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فقد ذكروا أنه دعوة إلى أن يواجه الإنسان القضايا من أبوابها ولا يواجهها من ظهورها، بالأسلوب الكنائي الذي عبر فيه عن ذلك بالبيوت.

وقد انطلق هؤلاء المفسرون في هذه الاستفادة من الآية إلى ما روي «أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم^(١) الأنصاري قالاً: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى

(١) كذا ورد، وفي الرواية الأولى في أسباب النزول ورد: وثعلبة بن عزيمة.

يعود كما بدأ، لا يكون على حالة واحدة؟ فنزلت»^(١).

* * *

مع صاحب تفسير الميزان

وذهب بعض المفسرين — ومنهم صاحب تفسير الميزان — إلى أن السؤال لم يكن عن ماهية القمر واختلاف تشكيلاته؛ إذ لو كان كذلك، لكان الأنسب أن يقال: يسألونك عن القمر لا عن الأهلة. وأيضاً لو كان السؤال عن حقيقة الهلال وسبب تشكله الخاص، لكان الأنسب أن يقال: يسألونك عن الهلال، إذ لا غرض حينئذ يتعلق بالجمع، ففي إتيان الأهلة بصيغة الجمع دلالة على أن السؤال إنما كان عن السبب أو الفائدة في ظهور القمر هلالاً بعد هلال ورسمه الشهور القمرية، وعبر عن ذلك بالأهلة لأنها هي المحققة لذلك، فأجيب بالفائدة»^(٢).

أما تعليقنا على ذلك، فإننا لا نرى رأي صاحب الميزان في ما استفاده، لأنه استند إلى إتيان ﴿الْأَهْلَةُ﴾ بصيغة الجمع، بدعوى أنها لا تتناسب مع السؤال عن القمر أو الهلال؛ ولكننا نرى أنه يكفي في ذلك تكرار الظاهرة في الزمن، بحيث إنها تلفت النظر دائماً، مما يجعل السؤال عنها كشيء متكرر بصيغة الجمع... ويؤكد ذلك أن السؤال كان عن الظاهرة، لا عن حقيقة القمر كما يوحي به كلامه في ما يستفاده من وجهة نظر الآخرين ونحن نستقرب ما ذكره، لأنه هو المناسب للسؤال، وهو المتبادر من الآية. فإن اختلاف الشهور وتعددتها لا يلفت أنظارهم كحالة ذهنية صعبة، لأنه من الأمور التي يسرون عليها في حياتهم، بل الذي يلفت النظر هو اختلاف حالات القمر

(١) تفسير الكشاف، ج: ١، ص: ٣٤٠.

(٢) تفسير الميزان، ج: ٣، ص: ٥٦.

— كما ورد في الرواية — أما لماذا كان الجواب بما يعرفونه، فلأن الآية أرادت أن ترشدهم إلى ما يجب أن يهتموا به من تنظيم أوقاتهم على حسب ما أراه الله لهم في ذلك، بما أوجده لهم من هذا التنظيم الكوني للوقت ليسيروا على هداية بطريقة منظمة مركزة؛ والله العالم بحقائق آياته.

* * *

يسألك عن الأهلّة

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ في اختلاف أشكال القمر منذ خروجه من المحاق إلى أن ينتهي إليه، كيف كان صغيراً ثم يكبر ثم يعود صغيراً كما كان، كيف ذلك؟ ولماذا؟ وما الفرق بين القمر في هذا التنوع في حجمه وبين الشمس في بقائها على حالة واحدة في الوضع الطبيعي في القانون العام؟ ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجِ﴾ فللشمس وظيفة واحدة في النظرة العامة في رؤية الناس الحسية، وهي تحديد الليل في عملية الغروب والشروق. أما القمر، فإن وظيفته هي التوقيت المتحرك على مستوى الأيام في بداية الشهر ونصفه وآخره، وعلى مستوى الشهور، مما يفرض هذا النوع من الاختلاف؛ فهي مواقيت للناس في كل قضاياهم المتصلة بنظام حياتهم، وهي ميقات للحج الذي يمثل الاهتمام في الواقع الإسلامي وفي منطقة الدعوة.

وهذا ما يفرض اختلاف الأوقات الذي يمكن أن يشير إليه اختلاف الشكل للقمر؛ والله العالم.

* * *

البرّ من اتقى

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ فإن ذلك يخالف الوضع الطبيعي الذي تقتضيه الفطرة الإنسانية في حركتها في الواقع على حسب

الخصائص الذاتية المتمثلة في عناصر وجوده، إذا أراد الإنسان أن يدخل بيته أو بيوت الآخرين، فإن من الطبيعي بحسب نظام البيت أن يدخله من بابه الذي هو المدخل له.

وإذا كان هذا هو المفروض في الواقع المادي للبيوت والأبواب، فإن من الممكن الاستيحاء المعنوي في القضايا الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، بأن ندخل إليها من مداخلها التي يمكن أن تكون نقطة البداية في التحرك نحوها، إن من جهة طبيعة القضية أو من ناحية الوسيلة التي توصل إليها، والأسلوب الذي يتمثل في طريقة التعامل معها.

وربما كانت الفقرة المذكورة «كناية عن النهي عن امتثال الأوامر الإلهية والعمل بالأحكام المشرعة في الدين، إلّا على الوجه الذي شرّعت عليه، فلا يجوز الحج في غير أشهره، ولا الصيام في غير شهر رمضان، وهكذا... وكانت الجملة على هذا متممة لأول الآية، وكان المعنى: إن هذه الشهور أوقات مضروبة لأعمال شرّعت فيها، ولا يجوز التعدي بها عنها إلى غيرها، كالحج في غير أشهره، والصوم في غير شهر رمضان، وهكذا، فكانت الآية مشتملة على بيان حكم واحد»^(١). ولكننا نلاحظ على هذا الاحتمال أن الحديث عن الالتزام بالمواعيت لا يمثل أية مشكلة في الذهنية العامة للناس، فلا يفكر أحد أن يقوم بالعمل في غير وقته، كما لا يفكر مسلم بالإتيان بالحج في غير شهره، وبالصيام في غير شهر رمضان؛ الأمر الذي يجعل من إثارة هذا الموضوع في خصوصيته إثارة لأمر غير ذي موضوع، فيدخل في دائرة العبث - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ حيث تتحول التقوى إلى صورة إنسانية نموذجية في الواقع الإنساني، لينطلق الإنسان في مبادراته وأوضاعه وعلاقاته بالحياة

وبالانسان من موقع الخط الإسلامي المنفتح على وحي الله في أوامره ونواهيه التي تحمي الانسان من نفسه، كما تحمي غيره منه، فيكون البر عنواناً للإنسان قبل أن يكون عنواناً للعمل، لأن قيمة العمل تتحدد بمقدار ما يكون تجسيداً للإنسان.

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ التي تفتح لكم كل مواقعها وجناباتها، سواء في ذلك البيوت المادية أو الروحية والعملية. وربما كان من أظهر مصاديقها الأبواب التي تفتح شخصيات الناس، لأن لكل إنسان باباً تدخل منه إلى عقله وقلبه وحياته، مما يجعل من الضروري أن ندرس المدخل إلى عمق الشخصية في نقاط ضعفها وقوتها، وفي مستواها الثقافي، وتطلعاتها الروحية والمادية. فقد نلاحظ أن الكثير من المشاكل في المجتمعات الإنسانية انطلقت من عدم اكتشاف الأبواب الثقافية والروحية والاجتماعية التي تمثل المداخل الطبيعية إلى الواقع الداخلي للناس، مما يجعل الإنسان بعيداً عن الفهم الحقيقي لإنسانية الآخرين في أوضاعهم الخاصة والعامة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وراقبوه في كل أموركم في ما تفعلون وتتركون؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ لأن التقوى التي تربط الإنسان بالله هي سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.



من وحي الآية

يمكننا أن نستوحي من الآية الفكرة التالية: وهي أن على الإنسان الذي يريد أن يجعل حياته في طريق البر، أن ينظر إلى الأشياء الأساسية التي تركز على دراسة واعية لخط التقوى الذي يدفع الإنسان إلى الانطلاق في مجال الالتزام بأوامر الله ونواهيه والوقوف عند حدوده. وفي ضوء ذلك،

يمكنكم أن تتجاوزوا هذا العمل الذي ألزمتكم أنفسكم به بالدخول إلى البيوت من ظهورها في حال الإحرام، لأنه ليس أمراً مفروضاً عليكم من الله، فيمكنكم أن تأتوا البيوت من أبوابها من دون أي خوف أو حرج إذا التزمتم بالتقوى في ما حرمه الله عليكم أو في ما أوجبه الله عليكم، ولكن التأمل في الآية يجعلنا نتجاوز ما ورد في هذه الروايات التي لم تثبت عندنا.

إن الظاهر في قضية قوله: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أنها ليست واردة في مقام الرخصة بذلك، بل هي واردة في مقام تحديد الخط العام الذي يسير عليه الإنسان في حياته في كل ما يفيض فيه من حديث، أو يسأل عنه من أمر، أو ينطلق فيه من عمل، أو يتحرك نحوه من هدف... وبذلك يكون مفاد الآية التأكيد على أن يتحرك الموقف العملي للإنسان من الوجه الذي يجب أن ينطلق منه، فإن الله قد جعل لكل شيء في الحياة باباً يدخل منه، فلكل غاية وسيلة معينة تنسجم مع طبيعتها وواقعها، ولكل فكرة أجواؤها التي تتحرك فيها، ولكل حركة قيادتها التي تتحرك من خلالها... وبذلك تلتقي فكرة إتيان البيوت من أبوابها مع خط التقوى، كما أن إتيانها من ظهورها كناية عن الانطلاق من غير مواردها الشرعية بعيداً عن خط التقوى، ويكون البرّ وعدمه تابعاً لذلك.

ويؤيد هذا المعنى ما روي عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام — في كتاب المحاسن للبرقي — في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ قال: يعني أن يأتي الأمر من وجهه، أي الأمور كان^(١) ويمكن أن يكون ذلك على سبيل الاستيحاء أو التطبيق لا على سبيل التفسير. ولعل هذا هو الأقرب إلى الأجواء القرآنية العامة. وهو الذي يجب أن نستوحيه في حياتنا العملية عندما نريد أن ننطلق في أي مجال للدعوة، فتتحرك معه بالأسلوب الذي يمكن أن يؤدي إلى الغاية، ويوصل إلى المطلوب من خلال دراسة الواقع

(١) نقلاً عن : تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ٥٩.

الفكري والعملي والمؤثرات التي تساهم في طبيعة الشخص أو الحالة، أو عندما نريد أن نعمل في أية حركة ثقافية أو سياسية أو اجتماعية أو عسكرية... فإن علينا أن نواجه القضايا من بابها الذي ندخل من خلاله إلى كل المجالات التي تخلق من التحرك حالة واقعية تساهم في تحقيق فرص النجاح وتبتعد عن كل أسباب الفشل، سواء في ذلك جانب الفكرة، أو الوسيلة، أو الأسلوب، أو القيادة، أو طبيعة الساحة التي تنطلق فيها الحركة، أو الظروف الموضوعية التي تحيط بها، أو الخلفيات التي تكمن وراءها وهكذا في كل العناصر الحية التي تجعلنا نواجه الموقف من وجهه لا من ظهره. وذلك هو سبيل التقوى الذي يجعلنا نحسب حساب كل خطوة نخطوها على أساس رضى الله، الذي هو سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.



الآيات

وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ
وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ
فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَبِّلُوهُمْ حَتَّى لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾



معاني المفردات

﴿وَقَتِّلُوا﴾: القتال والمقاتلة: محاولة الرجل قتل من يحاول قتله.
﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾: الاعتداء: مجاوزة الحد. يقال عدا طوره: إذا جاوز
حدّه.

﴿تَفْتَنُوهُمْ﴾: أي: وجدتموهم وأدركتموهم على نحو الأخذ والغلبة.

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾: أصلها الاختبار، ثم ينصرف إلى معان منها: الابتلاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] أي: ابتليناك ابتلاءً على أثر ابتلاء. ومنها: العذاب، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٍ إِلَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] ومنها: الصدّ عن الدين، نحو قوله: ﴿أَن يَفْتِنُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن﴾ [المائدة: ٤٩] والمراد بها في الآية: الشرك بالله ورسوله.



تشريع القتال في الخطوات الأولى

في هذه الآيات، يضع القرآن الخطوات الأولى لتشريع القتال في الإسلام، ويثير أماننا الفكرة التي يستند عليها هذا التشريع في بداياته. فقد كانت قريش هي البادئة بالقتال والعدوان على المسلمين، فليس من الطبيعي أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمامها، ينادون بالسلام والمحبة والعفو والمغفرة، لأن مثل هذه المفاهيم الروحية الأخلاقية لا يفهمها المعتدون الذين يحركون سيوفهم في هوى أطماعهم وشهواتهم وظلمات أنفسهم، فلا بد من الحديث معهم باللغة التي يفهمونها جيداً، من موقع الجوّ الذي يعيشونه في اعتبار القوة أساساً للحق وللسيطرة. وكان الإسلام واقعياً في نظرته إلى طبيعة الموقف، فأذن للمسلمين في القتال في سبيل الله لمن يقاتلهم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم﴾ فلم يأذن لهم أن ينطلقوا من موقع الثأر الشخصي الذي يستجيب للنوازع الذاتية، التي قد تضعف وقد تقوى تبعاً للحالة النفسية التي تحكم الواقع الداخلي للإنسان، بل أذن لهم أن يعتبروا الخط القتالي سائراً في سبيل الله، لأن هؤلاء يعملون على أساس إبعاد الناس

عن الله وعن سبيله، ومجابهة المؤمنين به، العاملين بطاعته، وأرادهم أن لا يعتدوا، بل أن يواجهوا الموقف بروحية الدفاع عن الحق وعن أصحابه، ليكون الإسلام هو القوة البديلة، لأن قوته لا تمثل خطراً على الحياة. بل هي على العكس من ذلك تدفع الخطر عن القيم الأصيلة للإنسان ابتداءً من الحفاظ على وجوده الخير إلى كل خطوة من خطواته العملية الخيرة في بناء الحياة.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ إن الكافرين هم الذين بدأوا العدوان والقتال، فليتحملوا نتائج أعمالهم وعدوانهم، وليتحرك المسلمون في اتجاه تهديم القوة الطاغية، وصنع القوة البديلة من مواقع الحق؛ وليلاحقوهم حيث وجدوهم، لأن ذلك هو السبيل لإذلالهم وإضعافهم والسيطرة عليهم... ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم، وأدركنموهم، وتمكنتم من السيطرة عليهم.

فكل الساحات التي يوجدون فيها هي ساحات حرب شرعية ضدهم، فلا مأمّن لهم في أي مكان، ولا ملاذ لهم في أي ملجأ ليعيشوا الخوف الدائم الذي لا يترك لهم مجالاً للشعور بالأمن في أي موقع من مواقع وجودهم... إنه قانون المعاملة بالمثل. ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ فقد اضطهدوا المسلمين وأبعدوهم عن مكة حتى تفرقوا في بلاد الله في هجرات متعددة. فللمسلمين الحق في أن يعاملوهم بمثل ما عاملوهم به، ولم تكن قضيتهم قضية قتال للمسلمين وإخراجهم من ديارهم، بل كانت القضية هي ممارسة أقصى أنواع الضغوط ضد المسلمين من أجل فتنهم عن دينهم تحت تأثير الضغوط الصعبة من التهديد والتعذيب والإغراء والإبعاد والتشريد.

الفتنة أشد من القتل

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ عن الدين - في نظر الإسلام - ﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، لأن القتل يعني الموت الجسدي، بينما تمثل الفتنة عن الدين الموت الروحي الذي يفقد الإنسان معه نفسه، ويتحول إلى عنصر ضار للحياة بدلاً من أن يكون عنصراً نافعاً لها، مما يجعل من الجريمة جريمة تتصل بالجانب الشخصي للإنسان، وبالجانب العام لحياة المجتمع كله.

وعلى ذلك الأساس أعطاها الإسلام طابع التحدي للحياة، لأنها تحمل التحدي لكل ما تحمله الحياة التي يريدها الله للإنسان من الخير الشامل، والمحبة المرتكزة على العدل، والتصور الإيجابي لكل ما يواجهه الإنسان من مشكلات على أساس الفكر الواقعي الإنساني المسؤول الذي لا يهرب من المشكلة بل يواجهها بشجاعة، ولا يخضع للتاريخ بل يناقشه بمسؤولية، ولا يتعبد للمحدود، بشراً كان أو حجراً، بل يتمثل فيه سر إبداع الخالق المطلق بعيداً عن كل نظرة ذاتية خاشعة للمخلوق... وهكذا يتحرر الإنسان في أجواء الدين السمع الذي يبني للإنسان شخصيته على أساس الحرية أمام كل شيء حوله، ليجعله عبداً لله وحده، ويركز للحياة قواعدها على أساس العدل الذي يتجاوز الطبقة للمساواة، والتمييز بين الناس للتنوع، وتوزيع الفرص على أساس الأدوار التي تحتاجها الحياة... وفي هذا الجو، أراد الإسلام للإنسان أن يقاتل الذين يحاربون فيه هذا التوجه الحر للحياة وهذه الحرية الخاشعة في محراب عبوديتها لله. ولا يعتبر الإسلام مثل هذا القتال عدواناً على الآخرين، بل دفاعاً عن الإنسان والحياة ضد الذين يريدون قتل إنسانية الحياة في الإنسان.

وإذا كانت الفتنة - وهي الصد عن الدين - تتمثل بالضغط النفسي،

والتعذيب الجسدي، والتجويع الغذائي، والحصار الاقتصادي، ونحو ذلك مما مارسه قريش وحلفاؤها ضد المسلمين الذين دخلوا في الإسلام آنذاك من النساء والرجال، وكانت قمة ذلك ما قامت به ضد آل ياسر وبلال الحبشي وبنو هاشم في حصار الشعب، وإلجاء المسلمين إلى الهجرة فراراً من شدة التعذيب، فإنها قد تتمثل في الأوضاع الفاسدة الضاغطة على الجو الأخلاقي العام، المانعة من السعي نحو إيجاد المجتمع المسلم في أخلاقته وروحانيته ومناهجه الإسلامية بمختلف وسائل الاضطهاد الروحي، مما يدفع بالناس إلى الانحراف عن الحق، وقد يتمثل بمصادرة الحريات الفكرية والسياسية والإعلامية من قبل القوى المستكبرة لمصلحة تيارات مضادة كافرة، تتحرك في حرياتها الضاغطة على الدين وأهله، بحيث تمنع الجيل الجديد من الثبات على الإسلام، وتنحرف بالجيل الحاضر عن الخط المستقيم؛ سواء كان ذلك على مستوى الحكومات أم الشخصيات أم الأحزاب المستبدة.



القتال في المسجد الحرام

﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ وجاءت هذه الآية لتدل على أن للمسجد الحرام حرمة الكبيرة عند الله، لأن الله جعله قاعدة السلام للإنسان في الأرض، فلا يحل فيه القتال مهما أمكن الامتناع عن ذلك، ولا يجوز لأحد أن يبدأ أحداً بقتال فيه؛ ولكن الدفاع عن النفس حق مقدس، فللإنسان حق الوقوف بقوة ضد الذين يقاتلونه في هذا المكان الآمن، لأن انتهاك الحرمة لم يكن من قبل المدافعين، بل من جانب المهاجمين، ولذلك فإن على المسلمين أن لا يشعروا بالحرَج أمام حالة اضطرابهم للدفاع عن أنفسهم بقتال المشركين في المسجد الحرام، لأن ذلك

هو السبيل لحماية المسجد الحرام من القوة الطاغية الباغية التي تشوّه روحية المعاني الكبيرة في المسجد، وتهذّم أجواء السلام في داخله، فلا بد من قتالهم وإبعادهم عنه حتى يخلو الجو للخير والمحبة والتقوى والسلام في نهاية المطاف، ليستمر قاعدة للأمن لكل الناس في ظل الدعوة التي تؤمن بهذه الحقيقة، انطلاقاً من إيمانها بالله في شريعته الممتدة في رحاب الحق والعدل والأمان.

وقد كان المسلمون يتخرجون من ذلك في بعض المواقف التي كانت تتفجر بالحرب بينهم وبين قريش، وذلك في ما روي في مجمع البيان عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ - الآية - نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، ذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج هو وأصحابه في العام الذي أرادوا فيه العمرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فساروا حتى نزلوا الحديبية؛ فصدّهم المشركون عن البيت الحرام، فنحروا الهدي بالحديبية. ثم صالحهم المشركون على أن يرجع من عامه، ويعود العام القابل، ويخلوا له مكة ثلاثة أيام فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، فرجع إلى المدينة من فوره. فلما كان العام المقبل تجهز النبي ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا تفي لهم قريش بذلك وأن يصدوهم عن البيت الحرام، ويقاتلوهم، وكَرِهَ رسول الله ﷺ قتالهم في الشهر الحرام في الحرم، فأنزل الله هذه الآية^(١).

ومن خلال هذه الآية نعرف واقعية الإسلام في التشريع في ما يحرمه ويحلله من أشياء، فإن حرمة الأشخاص والأمكنة والأزمنة تفرض نفسها على واقع التشريع والممارسة، ما دامت في حدودها الخاصة التي لا تصطدم بحرمة أشياء أعظم منها في مقياس القضايا الكبيرة، فإذا اصطدمت بها في بعض المواقف، بحيث كان الحفاظ عليها موجباً لسقوط الحرمة الأعظم وهي حرمة

الإنسان المؤمن في نفسه ودينه، كان للمسلمين الحق في تجاوز الحرمات العظيمة أمام الحرمه الأعظم، على ما هي القاعدة الإسلامية التي يغلب فيها الجانب الأقوى في المصلحة على الجانب الأضعف. ومن هنا تأتي الاستثناءات التي تخرج بعض الأمور من القاعدة العامة في أي حكم شرعي. ولولا ذلك لأمكن للفئات الباغية أن تستغل جرمة بعض الأمكنة والأزمنة، لتحارب الإسلام في قوته انطلاقاً من عدم قدرة المسلمين على الرد نظراً لحرمه الشهر أو المكان، مما يوجب تقدم تلك الفئات في مواقع القوة على الإسلام والمسلمين. وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلَوْكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

ولما كانت هذه الحالة التي يمارس فيها المسلمون القتال في المسجد الحرام دفاعاً عن أنفسهم، استثناءً، فلا بد من أن تقدّر بقدرها وذلك في مجال عدوانهم على المسلمين. ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ وكفّوا عن القتال في هذا المكان المقدس، فيجب أن يتوقف القتال عند ذلك لزوال السبب الذي أباحه في هذا المكان الحرام. ويمكن أن يكون التعليل بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على أساس وضع السبب موضع المسبب إعطاء لعله الحكم — كما في تفسير الميزان^(١) — فإن غفران الله ورحمته هما الأساس في جواز أي عمل يريده الله في أي شأن من شؤون الحياة. أي يجوز لكم الامتناع عن قتالهم، لأنه لا يبقى بعد ذلك أي سبب له، فكان الله يغفر لكم ويرحمكم بالكف عنهم والله العالم. وربما فسر قوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ بالانتهاء عن الكفر بالتوبة منه، فيكون قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دالاً على أن الله يقبل توبة المشرك ويغفر له ذلك ويرحمه بعده، ويكون مسلماً، له ما لهم وعليه ما عليهم.

* * *

كيف نفهم القتال من موقع الجهاد؟

ثم انطلقت الفكرة، لتجعل من قضية القتال ضد الشرك والمشركين قضية تدخل في حساب تهديم الأسس التي يرتكز عليها الكفر في قوته التي يحارب من خلالها الإسلام، ويضغط بها على حرية المسلمين ليفتنهم عن دينهم، ويقف على أساسها ضد كل تحرك للإسلام في العالم. إن القضية ليست نزاعاً على مستوى الأشخاص أو القبائل أو الفئات المتخاصمة، لتحل على أساس الهدنة أو إنهاء النزاع في نطاق المعاهدات القائمة على التجميد المؤقت للمشكلة؛ بل هي نزاع على مستوى رسالة الله التي أراد أن تقوم الحياة على قاعدتها الصلبة الممتدة بالحق والعدل؛ ولذا فإن وجودها يعتبر نقيض وجود الكفر الذي يعمل على العدوان والبغي والطغيان... ولذلك فلا بد من قتال الشرك والمشركين، حتى لا يبقى هناك أساس للضغط الذي يفتن المؤمنين عن دينهم، وحتى يكون الدين كله لله؛ فلا يبقى للشيطان وللطاغوت موطئ قدم في الأرض. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ من دون أي ضغط أو تهديد أو مصادرة للحرية، مما يمنع المسلمين عن ممارسة دينهم براحة وطمأنينة.

إن القضية هي قضية مصلحة الإنسان؛ فلا بد من الجهاد الشامل بشروطه الإسلامية الشرعية من أجل أن تبقى للإنسان حريته الحقيقية في الحياة القائمة على الحق والعدل، بعيداً عن أوهام الحرية في ظل سيادة الكفر والظلم والعدوان باسم حرية الفكر والموقف. ومن الواضح أن قضية الجهاد ليست قضية سيطرة سلطة غاشمة تضغط على إرادة الإنسان، فلا تمنحه الحرية ليناقش أو يحاور أو يسأل من أجل الوصول إلى الحقيقة الإيمانية، بل هي قضية

تحديد حرية الكفر وتجميد دوره، وذلك بإعطاء الإنسان الحرية في الوصول إلى القناعة من خلال الحوار الإيجابي المنفتح في نطاق خاص. فإذا تمرّد كان الحق للحياة الرسالية أن تعبر عن نفسها بفرض سلطتها على الواقع من أجل الإنسان. وقد نعرف، من خلال دراسة الشروط الشرعية للجهاد، أنه لا يهدف دوماً إلى تغيير عقيدة الإنسان بالقوة، بل نراه يحافظ على إبقاء الآخرين على عقيدتهم في ما يتصل بالديانات السماوية الأخرى إذا حافظوا على شروط العهد والذمة، أو في ما يتصل بالفئات الأخرى غير المؤمنة — في بعض الحالات — في نطاق المعاهدات التي تقتضي مصلحة الإسلام إقامتها معهم. إن القضية هي أن لا تكون هناك فتنة، وأن يكون الدين كله لله، بحيث تكون له الكلمة العليا في الأرض، فلا تبقى هناك كلمة للكفر في موقع السيادة الشاملة. وتلك هي قضية كل فكر ودين يريد أن يجعل الحياة على صورته.

﴿ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾. فسّر الانتهاء في هذه الآية بإيمانهم بالإسلام والابتعاد عن خط الكفر، فإنهم إذا أسلموا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وذلك في ما روي عن النبي ﷺ: «إن ربي أمرني أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها اعتصموا مني دماءهم وأموالهم»^(١). وفي ضوء ذلك، يعتبر القتال بعد الإسلام مخصوصاً بالظالمين الذين يعتدون على الناس ويغيون عليهم بغير الحق.

ويمكن أن تكون الآية واردة في اتجاه آخر، وهو التأكيد على تحطيم قوة الكفر، وتركيز سيادة الدين وقوّته من خلال القتال الذي يحقق هذا الهدف، بالمستوى الذي لا يستطيع المشركون والكافرون معه الممارسة العدوانية على المسلمين؛ وذلك إما بالإيمان بعد الكفر، وإما بالمعاهدات التي تنظم قواعد السلام القائم على احترام حرية المسلمين في دينهم وفي الدعوة إلى الدين.

(١) البحار، م: ٢٦، ج: ٧٣، ص: ٧٩٣، باب: ٦٧، رواية: ٣٠.

وعلى ضوء ذلك، لا تكون الآية واردة في مجال انتهائهم عن الكفر، بل عن الظلم والعدوان. وليس معنى ذلك أن الإسلام لا يبرر الجهاد من أجل تحطيم واقع الكفر في الحياة، بل كل ما نريد أن نقرره هو إمكانية أن يكون للآية معنى غير ما يذكره المفسرون.



الآيتان

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ
فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ وَأَنفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾

* * *

معاني المفردات

- ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾: هو الذي يحرم فيه ما يحل في غيره من القتال ونحوه.
- ﴿الْحَرَامُ﴾: هو القبيح الممنوع من فعله، ويقابله الحلال المطلق المأذون فيه.
- ﴿وَالْحُرُمَتِ﴾: جمع حرمة، وهي ما يجب حفظه ويحرم هتكه.
- ﴿قِصَاصٌ﴾: الأخذ للمظلوم من الظالم لظلمه إياه.
- ﴿التَّهْلُكَةِ﴾: التهلكة والهلاك بمعنى واحد، وقيل: التهلكة: كل ما يصير عاقبته الهلاك، وأصل الهلاك: الضياع، وهو مصير الشيء بحيث لا يدرى أين هو.

* * *

القتال في الشهر الحرام

كان الحديث في الآية المتقدمة حول القتال في المسجد الحرام الذي كان المسلمون يتخرجون منه، فأباحه الله لهم دفاعاً عن النفس. وفي هذه الآية يتحدث الله عن القتال في الشهر الحرام الذي كان المسلمون لا يجزؤون على القتال فيه احتراماً لحرمته، فأباح الله لهم ذلك على أساس المقابلة بالمثل، في الوقت الذي لا يملك الإنسان فيه أي خيار، لأن القضية قضية حياة أو موت بالنسبة للأمة وللرسالة. وهذا هو قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

وإذا كانت قريش قد انتهكت حرمة هذا الشهر، فلم يحترموا حق الإنسان فيه بالسلام، فللمسلمين الحق في أن لا يحترمهم فيه. وعقب على ذلك بقوله: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾، فلكل إنسان الحق في أن يقتص لحرمته ما انتهكه الآخرون منه، وذلك بانتهاك حرمتهم. وأوضح الفكرة بأن من حق المعتدى عليه أن يرد العدوان بمثله، فلا يتجاوزه إلى أكثر من ذلك التزاماً بخط العدل الذي يتركز على المماثلة في العقاب: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: عاملوه بالمثل، جواز لا إلزاماً. ولا بد من أن يلاحظ أن رد الاعتداء ليس اعتداءً، لأنه من حق المعتدى عليه؛ ولكنه سماه باسمه، لأنه مجازاة اعتداء، باعتبار أنه مثله في الجنس وفي المقدار، ولأنه ضرر كما أن ذلك ضرر، والمماثلة تقتضي عدم تجاوز حجم العدوان وطبيعته.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم أمر بالتقوى تدليلاً على أن الوقوف أمام حدود الله والالتزام بالخط الفاصل بين العدل والظلم يرتكز على أساس التقوى الداخلية، التي يشعر الإنسان معها بالمسؤولية الدائمة أمام الله في كل مواقفه العامة والخاصة، في ما له من الحق وما عليه، فيقف حيث يريد الله منه أن يقف،

ويتحرك حيث يريد الله منه أن يتحرك . فإن الإنسان الذي لا يعيش حس التقوى في نفسه ، قد ينجرف أمام نوازع النفس الذاتية التي توحى بالعصبية والانتقام والتشفي والحقد ، وغير ذلك مما يجعل الإنسان يأخذ أكثر مما له من الحق أو يعطي أقل ما عليه من الحق . . . ثم حددت للمؤمنين الموقع الذي يحصلون عليه مع التقوى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ، فإن الله مع المتقين الذين يخشون ربهم بالغيب ويراقبونه في كل صغيرة أو كبيرة في السر والعلانية .

* * *

الإنفاق في سبيل الله وحفظ النفس

ثم انطلق القرآن في مجال آخر يتصل بأجواء القتال والجهد في سبيل الله ، وهو الإنفاق في هذا السبيل ، فإن للجهد تكاليفه ونفقاته المالية التي يحتاجها المقاتلون في ما يأكلون وما يركبون وما يتسلحون به ضد العدو ، فلا بد من الجهد بالمال مع الجهد بالنفس . ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي : أنفقوا من أموالكم في الجهد وطريق الدين ، وكل ما أمر به من الخير وأبواب البر ؛ فهو سبيل الله ، لأن السبيل هو الطريق ، فسبيل الله هو الطريق إلى الله وإلى رحمته . وعقب ذلك بالنهي عن إلقاء الإنسان نفسه بالتهلكة ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي : بأنفسكم . وجاء التعبير باليد ، باعتبار أنها مظهر القوة للذات . فكأن الإنسان عندما يلقي بنفسه إلى التهلكة يسقط قوته التي تتمظهر في يديه . وهذا التوجيه يتناول المجالات الفردية أو الجماعية التي يعرض فيها نفسه للخطر ، من دون أن يكون هناك أيّ تكليف ملزم من الله بالتضحية والاستشهاد ، وذلك بأن يندفع الإنسان في المواقف التي لا يضمن فيها السلامة بنحو معقول على المستوى الفردي ، أو تندفع الجماعة في المواقف الصدامية مع الأعداء ، من دون إعداد سابق للخطة الحكيمة التي تضمن تحقيق الأهداف الكبيرة ، فإن

الانتحار الفردي أو الجماعي محرّم عند الله، في غير المواقف الشرعية التي تفرض ذلك.

وقد ورد في بعض الأحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ما يوحى بأن الآية واردة في الانتحار المالي - إذا صح التعبير - وذلك بأن ينفق الإنسان ما لديه من المال بحيث لا يبقى معه شيء. فقد جاء في كتاب الكافي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ قال: لو أن رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل من سبيل الله ما كان أحسن ولا وفق. أليس تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المقتصدين^(١).

والظاهر أن الحديث المشار إليه وارد في مورد التطبيق لا التعيين؛ فإن الآية مطلقة لكل عمل يؤدي إلى التهلكة، سواء من ناحية الخطر على الحياة، أو من ناحية الخطر على حاجاتها الطبيعية التي قد تؤدي إلى الخطر على الحياة في نهاية المطاف.

وهناك تفسيران آخران يربطان الإلقاء في التهلكة بالجانب السلبي في حركة الإنسان؛ الأول: أن يكون ترك الجهاد موجباً للتهلكة، وذلك في ما روي في الدر المنثور بطريق كثيرة عن أسلم أبي عمران، قال: «كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد؛ فخرج صف عظيم من الروم فصفقنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ:

(١) الكافي، ج: ٤، ص: ٥٣، رواية: ٧.

إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه؛ فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها . فأنزل الله على نبيه - يرد علينا ما قلنا - ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ ﴾ فكانت التهلكة الإقامة في الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو^(١).

ونحن نلاحظ أن الآية يمكن أن تنطبق على هذا المورد، وهو ترك الجهاد، والاستسلام للدعة والاسترخاء، والإقبال على إصلاح الأموال كهدف كبير للحياة... فإن المجتمع عندما يعيش مثل هذا الجو السلبي أمام قضايا المصير، فلا بد من أن يقع في التهلكة، لأن العدو سوف يتغلب على المسلمين وسيسيطر على مقدراتهم الاقتصادية والأمنية، ويحتل أرضهم، ويهزم جمعهم، ويحطم قوتهم، الأمر الذي يؤدي إلى هلاك الأمة سياسياً واقتصادياً وأمنياً. وهذا ما لا يرضاه الله، ولكن من المستبعد أن تكون الآية دالة على ذلك بخصوصه، فإن الظاهر منها الربط بين الإنفاق والإلقاء في التهلكة، ومع الإغضاء عن ذلك، فإنها تكون مطلقة لكل الموارد الإيجابية والسلبية في الأشياء كلها.

أما التفسير الثاني، فيرى أن «الإنفاق بشكل عام يؤدي إلى نجاة أفراد المجتمع من الهلاك، وبالعكس، حينما يترك أفراد المجتمع الإنفاق وتتراكم الثروة في أحد أقطاب المجتمع، تنشأ أكثرية محرومة بائسة، ولن يلبث هذا المجتمع حتى يحدث انفجار عظيم فيه يحرق الأثرياء وثروتهم، ويتضح من ذلك ارتباط الإنفاق بإبعاد التهلكة»^(٢).

ونلاحظ على هذا الوجه ما لاحظناه على الوجه الأول، مع ملاحظة بعده عن السياق العام للآية، وهو حالة الجهاد، مما يبعد معه إرادة الخصوصية

(١) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٥٠٠.

(٢) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة البعثة، بيروت، ط: ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ج: ٢، ص: ٢٤ - ٢٥.

السلبية، ولكن علاقة ترك الإنفاق بالإلقاء في التهلكة يمكن أن يكون مصداقاً للخط العام الشامل لجميع موارد.

* * *

مع صاحب مجمع البيان في دلالة الآية

هذا وقد اعتبر صاحب المجمع، بعد أن عرض لأكثر من وجه يضع الآية في دائرة خصوصية معينة، أن الأولى حمل الآية على جميع الوجوه ولا تنافي فيها. وفي هذه الآية دلالة على تحريم الإقدام على ما يخاف منه على النفس وعلى جواز ترك الأمر بالمعروف عند الخوف، لأن في ذلك إلقاء بالنفس إلى التهلكة. وفيها دلالة على جواز الصلح مع الكفار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه أو على المسلمين، كما فعله رسول الله ﷺ عام الحديبية، وفعله أمير المؤمنين عليه السلام بصفين، وفعله الحسن عليه السلام مع معاوية من المصالحة لما تشتت أمره وخاف على نفسه وشيعته.

فإن عورضنا بأن الحسين عليه السلام قاتل وحده، فالجواب أن فعله يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه ظن أنهم لا يقتلونه لمكانه من رسول الله ﷺ.

والآخر: أنه غلب على ظنه أنه لو ترك قتالهم قتله الملعون ابن زياد صبراً كما فعل بابن عمه مسلم، فكان القتل مع عز النفس والجهاد أهون عليه^(١). ونلاحظ على هذا المنهج في معالجة المسألة في مفهوم الإلقاء في التهلكة، أن القضية في الصلح وعدمه، سواء أكان ذلك في صلح رسول الله ﷺ في عام الحديبية، أم في طريقة الإمام علي عليه السلام في مواجهة الموقف

بصفين، أم في صلح الإمام الحسن عليه السلام، فهذا التوجه لم يكن منطلقاً من هذا المبدأ الذي تقرره الآية، بل من خلال مراعاة المصلحة الإسلامية العليا التي تفرض ذلك، كالأستعداد لفتح مكة من خلال التخطيط النبوي الذي كان يفرض تبريد الجو. أما موقف الإمام علي عليه السلام من التحكيم، فقد كان منطلقاً من النتائج السلبية في انقسام جيشه ووصول معاوية إلى غايته في السلم بما لم يستطعه في الحرب انتظاراً لفرصة أخرى لم تأت من خلال الظروف الطارئة. أما صلح الإمام الحسن عليه السلام، فقد كان من أجل الإبقاء على المعارضة للتخطيط للمستقبل الذي يكشف طبيعة الحكم الأموي من خلال حركة معاوية في بيعته ليزيد وتجربة يزيد ومن بعده.

إننا نلاحظ أن المسألة لم تكن من باب الخوف على النفس أو على الجيش من الهلاك، بل كانت من أجل النتائج السلبية الطارئة للحرب على مستوى القضايا الكبرى.

وإذا أردنا أن نتحرك مع المبدأ العام في انطلاقه في تشريع الصلح مع الكفار، فإن المسألة لا بد من أن تخضع لدراسة الجانب السياسي على مستوى الحاضر والمستقبل بالإضافة إلى الجانب الأمني، ولا يمكن الاقتصار على الجانب الأمني، لأن المسألة الجهادية تتحرك من أجل دفع المجاهدين إلى التضحية بأنفسهم في سبيل الله. وربما كانت طبيعة الظروف العسكرية توحى بأن السلامة غير محتملة للكثيرين من أفراد الجيش، بحيث كان المطلوب منهم أن يلقوا بأنفسهم إلى الموت، لينالوا شرف الشهادة والقتل في سبيل الله.

أما قضية الإمام الحسين عليه السلام، فقد انطلقت من موقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح في أمة جده، مما يجعل من حركته جهاداً في سبيل الله يتجاوز النصر فيه الجانب المادي إلى الجانب المعنوي، ولينطلق في مدى المستقبل في تأثيراته لعدم وجود أية فرصة للنصر في الحاضر. وهذا ما نستوحيه من كلماته التي قال في بعضها على ما روي عنه:

«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»^(١).

«ألا إن الداعي ابن الدعي قد ركز بين السِّلّة والذلة، وهيهات ما آخذُ الدنية، أبى الله ذلك ورسوله، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأنوف حمية ونفوس أبية، لا تؤثر مصارع اللثام على مصارع الكرام»^(٢).

فلم تكن المسألة لديه دائرة في نطاق احتمالات السلامة، لأن الظروف كلها لا توحى بأي احتمال لذلك أمام رفض الاستسلام لما يفرضونه عليه، كما أنها لم تكن اعتقاداً بأنهم سيقتلونهم على كل حال، حتى لو استسلم إليهم، بل كانت المسألة هي التحرك من موقع العناوين الإسلامية الكبرى التي تتحرك في خط التضحية والشهادة في الواقع الذي يحيط به والذي قد يفرض الصدمة الروحية الجهادية التي تهز أعماق المسلمين في الاتجاه الذي يضع الثورة في المستقبل.

إن هذا المبدأ الذي تقررته هذه الآية ينطلق في دائرة الحالات الفردية التي يتحرك فيها الإنسان في حياته الخاصة لأهدافه الذاتية، ولا يقترب من العناوين الكبرى القائمة على أساس الخطر كالجهاد الذي لا ينفصل عن تعريض النفس للتهلكة على المستوى الفردي، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القضايا العامة في الظروف المشابهة لحركة الإمام الحسين عليه السلام التي تواجه السلطة الحاكمة من موقع الشخصية التي يعتقد الناس قيادتها الشرعية، كما هي كذلك على أساس طبيعة الأمور، مما يجعل التكليف الشرعي يتحرك في دائرة الخطر في نطاق الظروف الموضوعية.

ولذلك فلا بد من دراسة المسؤوليات الشرعية الكبرى في قضايا الحرية

(١) البحار، م: ١٤، ج: ٤٤، ص: ٦٣٧، باب: ٣٧، رواية: ٢.

(٢) م.ن.، م: ١٥، ج: ٤٥، ص: ٩، باب: ٣٧.

أمام المحتل، والعدالة أمام الظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الأوضاع الاجتماعية والسياسية المنحرفة التي يتمثل فيها الخطر على الواقع العام، ودراسة الموازنة بين النتائج الإيجابية في مواجهة الأخطار بما يؤدي إلى الخطر على الفرد أو المجموع من الناحية الذاتية والمالية وما إلى ذلك، وبين النتائج السلبية من جهة التضحيات بالنفس والمال والعرض، فذلك هو الذي يحدد للفرد أو المجتمع أو الأمة مجابهة الأخطار أو عدمها.



بين التهلكة وصراع الاستكبار

وقد أدى فقدان الدراسة المقارنة بين الإيجابيات والسلبيات إلى إيجاد حالة من الضعف أو الانهيار النفسي أو الهزيمة العملية أمام القوى الظالمة أو المحتلة في الداخل والخارج، تحت تأثير عنوان الإلقاء للنفس في التهلكة بالدرجة التي سقطت فيها عناوين الجهاد، والحرية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى استطاع الكفر والاستكبار العالمي السيطرة على البلاد الإسلامية كلها.

وهناك مسألة لا بد من الإشارة إليها في هذا السياق لكثرة الجدل حولها من خلال تطبيق هذه الآية عليها، وهي العمليات الاستشهادية التي قام بها بعض المجاهدين في عصرنا الحاضر في مواجهتهم للصهيونية وللاستكبار العالمي، حيث يقوم أحد المجاهدين بتفجير نفسه من خلال ربط جسده بحزام من المتفجرات أو الانطلاق بسيارة مملوءة بالقنابل المتفجرة، فيفجر نفسه بمركز من مراكز العدو أو بمجموعة من جنوده، فقد أخذ بعض الفقهاء أو المتفكرين يصدر الفتاوى بحرمة هذا العمل، لأنه انتحار وإلقاء للنفس بالتهلكة.

ولكننا لا نرى فرقاً بينه وبين اقتحام المجاهد ساحة الحرب الجهادية مع علمه أو غلبة ظنه بالقتل، إلا في أن القتل هناك بيد العدو، وفي هذه القضية بيده؛ ولكن هذا الفرق ليس بفارق من حيث الحكم الشرعي، ما دامت خطة الجهاد تفرض ذلك من خلال حاجة المعركة للوصول إلى النتائج الإيجابية على مستوى المرحلة في خط الاستراتيجية والهدف النهائي الكبير. وماذا يقول هؤلاء في حاجة الحرب إلى اقتحام المجاهدين للأرض المزروعة بالألغام التي تتفجر بالأشخاص الذين يمرون عليها؟ فإنه قد يجوز لهم أو يجب عليهم القيام بذلك إذا توقف النصر عليه.

وربما كانت مشكلة هؤلاء أنهم لا يؤمنون بالجهاد من حيث المبدأ في هذه المرحلة من عمر الإسلام، ويرون أن التكليف الشرعي يفرض عليهم القعود والانتظار إلى ظهور الإمام المهدي عليه السلام، ليبرروا لأنفسهم الابتعاد عن ساحة المعركة، وليشيروا النكير على المجاهدين في كل ساحات الصراع.



الإحسان... شريعة أخلاقية

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه شريعة أخلاقية قرآنية يؤكد عليها القرآن في أكثر من آية، وهي شريعة الإحسان في كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان في علاقاته مع الآخرين في حالة السلم وفي حالة الحرب. وقد جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. أما قيمة الإحسان فتتمثل في السلوك العملي الذي يفتح فيه الإنسان على الجانب الخير في الحياة، وهو العطاء السمع الذي ينساب من روح الإنسان وشعوره

الحي، فيدفعه إلى أن يحترم مشاعر الآخرين وظروفهم، فلا يثير معهم القضايا الصعبة من موقع صعوبتها؛ بل يحاول أن يفتح معهم على جانب السهولة في الحياة، من جهة، في ما يأخذه من الحق الذي له، وينطلق مع خط العفو والتسامح من جهة أخرى. وبذلك يتحرك الإحسان كخط أخلاقي إسلامي من مواقع الإرادة الطوعية الطيبة في الإنسان، فيخفف من شدة العدل وقسوته، ليعيش الإنسان بين العدل والإحسان في الأجواء التي تبعث الطراوة حتى في أشد المواقف صعوبة وقساوة، انسجاماً مع التركيب الداخلي للإنسان في شخصيته الباحثة أبداً عن العدل والرحمة في مواقع الحياة.

وكما هو الحال في الآية الأخرى، عندما أراد الله أن يرغب في التقوى بأن الله مع المتقين، كانت هذه الآية ترغيباً في الإحسان من موقع أن ذلك يحقق للإنسان محبة الله، فإن الله يحب المحسنين.



الآيات

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ
وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمِن تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ
لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ
حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ
مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا
تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۚ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا
أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ
أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ
أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۚ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي

الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أُحْصِرْتُمْ﴾: الإحصار: المنع. يقال للرجل الذي قد منع منه الخوف أو المرض عن التصرف قد أُحْصِرَ فهو مُحْصَر. ويقال للرجل الذي حبس: قد حصر فهو محصور.

﴿أَهْدَىٰ﴾: في أصل الهدى قولان: أحدهما: إنه من الهدية. يقال: أهديت الهدية إهداءً، وأهديت الهدى إلى بيت الله إهداءً، فعلى هذا إنما يكون هدياً لأجل التقرب به إلى الله، والآخر: أنه من هداه إذا ساقه إلى الرشاد. فسمي هدياً، لأنه يساق إلى الحرم الذي هو موضع الرشاد.

﴿تَحْلِقُوا﴾: الحلق: إزالة شعر الرأس للتحلل.

﴿أَذَى﴾: الأذى: كل ما تأذيت به. وأصله الضرر بالشيء.

﴿نُسُكٌ﴾: النسك: جمع نسيكة وهي الذبيحة، والنسك: العبادة. ومنه رجل ناسك، أي: عابد.

﴿تَمَنَعٌ﴾: التمتع: أصله الالتذاذ والاستمتاع، ومتعة الحج هي أن يعتمر في أشهر الحج ثم يحل، ويتمتع بالإحلال بأن يفعل ما يفعله المحل، ثم يحرم

بالحج من غير رجوع إلى الميقات؛ فهو إحلال بين إحرامين .

﴿رَفَثَ﴾: الرفث: أصله في اللغة الإفحاش في النطق . وقيل: الرفث بالفرج: الجماع، وباللسان: المواعدة للجماع .

﴿فُسُوقٌ﴾: الفسوق: الخروج على الطاعة .

﴿جِدَالَ﴾: الجدل في اللغة، والمجادلة، والمنازعة، والمشاجرة، والمخاصمة نظائر، وقيل: إن المراد به - هنا - قول: لا والله وبلى والله . وقيل: المراد اللجاج .

﴿الزَّادِ﴾: الطعام الذي يتخذ للسفر . وكل من انتقل بخير من عمل أو كسب فقد تزود .

﴿الْأَلْبَبِ﴾: اللب: العقل سمي بذلك لأنه أفضل ما في الإنسان، وأفضل كل شيء لبه .

﴿جُنَاحٌ﴾: الجناح: الحرج في الدين، وهو الميل عن الطريق المستقيم .

﴿تَبَتَّغُوا﴾: الابتغاء: الطلب .

﴿أَفْضُتُمْ﴾: الإفاضة: مأخوذة من فيض الإناء عن امتلائه، فمعنى أفضتكم: دفعتم من عرفات إلى المزدلفة عن اجتماع وكثرة . ويقال: أفاض القوم في الحديث: إذا اندفعوا فيه وأكثروا التصرف .

﴿عَرَفَتِ﴾: اسم للبقعة المعروفة بحدودها، ويوم عرفة يوم الوقوف بها . وهي على بعد أربعة فراسخ من مكة .

﴿الْمَشْعَرِ﴾: المزدلفة، سميت مشعراً لأنه معلم للحج والصلاة والمقام والمبيت به والدعاء عنده من أعمال الحج، وهو على بعد فرسخين

ونصف تقريباً من مكة .

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا﴾ : الاستغفار: طلب المغفرة، والمغفرة: التغطية للذنب . وهو كناية عن العفو عنه وزواله .

﴿مِنْ خَلْقٍ﴾ : الخلق: النصيب من الخير . وأصله التقدير، وهو النصيب من الخير على وجه الاستحقاق .

﴿وَقِنَا﴾ : الوقاء: أصله الحجز بين الشيئين . والوقاء الحاجز الذي يسلم به من الضرر .

﴿نَصِيبٌ﴾ : النصيب: الحظ، وحده الجزء الذي يختص به البعض من خير أو شر .

﴿كَسَبُوا﴾ : الكسب: الفعل الذي يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر .

﴿سَرِيعٌ﴾ : السريع من العمل: القصير المدة .

﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ : تستعمل كثيراً في اللغة للشيء القليل، وكل عدد قلّ أو كثر فهو معدود، ولكن معدودات أدلّ على القلّة لأن كل قليل يجمع بالألف والتاء .

﴿مُحْشَرُونَ﴾ : الحشر: جمع القوم من كل ناحية إلى مكان . والمحشر: المكان الذي يحشرون فيه .



جولة في آفاق الحج

في هذه الآيات يبدأ القرآن جولة في بعض أحكام الحج، وهو فريضة فرضها الله على عباده منذ رسالة إبراهيم عليه السلام، وقد كان معروفاً بين أهل

الجاهلية، وأقرّه الإسلام وزاد فيه بعض المناسك. والحج - لغة - هو القصد، ويقصد به هنا القصد إلى النسك المخصوص. أما العمرة فهي زيارة البيت الحرام على نحو خاص.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ لا بد للإنسان من إتمام الحج والعمرة إذا بدأهما بالإحرام لهما، وذلك بالإتيان بكل الواجبات التي تدخل في نطاق تكوين الفرض في الحالات الاختيارية أو الاضطرارية. وإذا كانت الآية تؤكد على أن يكون هذا الإتمام لله، فمعنى ذلك أنهما من العبادات التي لا بد من أن يقصد بها وجه الله، فيشعر الإنسان معها بالحاجة إلى القرب من الله من خلال ما يؤديه من الأعمال التي تتضمن في داخلها أقوالاً أو أفعالاً أو أفكاراً يتعبد فيها الإنسان إلى ربه. . . .

ولعل القيمة الكبرى للعبادات الإسلامية، أنها لا تمثل مجرد حالة وجدانية ذاتية غارقة في ضباب المحبة وغيوبة الخشوع، ليبقى الإنسان بعيداً عن حركة الحياة عندما يقف بين يدي الله؛ بل هي تعبير عن الخط الإسلامي العملي في علاقة العبد بربه، حيث يلتقي الجانب الروحي بالحياة في أوسع مجالاتها وأرحب آفاقها، ليتصور معها حياته التي تضج فيها الحركة؛ فنجد في الصلاة الكلمات التي تمثلها سورة الفاتحة بالإضافة إلى السورة الأخرى التي يختارها المصلي تبعاً لحاجته الروحية والفكرية، فنلتقي بالتصور الإسلامي لله في صفاته المتصلة بحركة الحياة في مخلوقاته من التربية والرعاية والرحمة، وبطبيعة العلاقة التي تشد الإنسان إلى الله، وبالتوجه إليه في مجال الصراع الذي تزدحم فيه التيارات الضالة والجاحدة في مقابل الخط المستقيم. . . . وهكذا تتحرك الصلاة في كيان الإنسان، فتتحرك الأفكار والتصورات الإسلامية في وجدانه ليستقيم له من خلالها الوعي الروحي والفكري والعملي في كلمات وأفعال يتحرك فيها المضمون في روح نابضة بالحياة.

فإذا التقينا بالحج، فإننا نلتقي بالعبادة الزاخرة بأكثر من معنى، فهي

تلتقي بالصلاة في أجواء الطواف والسعي، والوقوف بعرفات والمزدلفة، والمبيت بمنى، حيث يعيش الإنسان أعمق حالات التأمل وأصفى مشاعره، وأرفع درجاته. أما الإحرام، فإنه يمثل الالتقاء بالصوم حيث يفرض على الإنسان الالتزام الطوعي الاختياري بكثير من الأشياء التي تتصل بشهواته وعاداته وأخلاقه، فتمثل مرحلة تدريبية صعبة يتعلم فيها الصبر والخشونة واحترام مشاعر الآخرين، واحترام كل شيء محترم حوله حتى الحيوان والنبات. إلى جانب دقة الملاحظة عندما يراقب كل حركة من حركاته حتى سقوط الشعر وحك البدن والنظر في المرأة. أما رمي الجمار، فإنه يمثل الرمز العملي للصراع مع الشيطان، في ما تمثله الجمرات من رمز.

وهكذا يتحرك الإنسان من عمل إلى عمل ليحقق لنفسه البناء الروحي والفكري والعملي في أجواء العبادة التي يعيش في داخلها اللقاء بالله. وبذلك لا تشارك العبادة في عزل الإنسان عن الحياة، بل هي — على العكس من ذلك — تدفعه دفعا إليها بكل قوة من موقع الروحية التي تعطي المادة معناها دون أن تفقدها صفاتها المادية.

وقد لا يكتفي الإسلام في تحقيق معنى العبادة بما افترضه وشرعه من أشكالها، بل يمتد بها حتى يجعل كل عمل محبوب لله عبادة إذا قام به الإنسان لوجه الله. وقد كثرت الأحاديث التي ترى في طلب العلم، وفي العمل في سبيل العيال، وفي العفاف وقضاء حاجة المؤمن، وتفريج كربته، عبادة يكسب الإنسان بها رضى الله كأى عبادة من العبادات المعروفة.

وفي ضوء ذلك كله، نجد في كلمة: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ إيحاء بالإتمام من الناحية الروحية التي يعيش الإنسان فيها أجواء الحج، بالمستوى الذي يرتفع فيه إلى الآفاق العالية التي تمثلها هذه الفريضة، ويتحرك معها بأخلاقية إسلامية كاملة؛ فلا يكتفي بالشكل ويتعد عن المضمون، لأنه يمثل — في هذه الحالة — الإتمام الشكلي إلى جانب النقص الواقعي المضموني؛

مما يجعل العمل غير مقرب لله وغير مقبول عنده، لأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أقبل الإنسان فيها بكل كيانه وروحيته .

* * *

الإحصار في الحج

﴿ فَإِنْ أَخَصَرْتُمْ فَأَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ ﴾ .

إذا حصل للحاج أو المعتمر مانع يمنعه من إتمام الحج، فكيف يمكن أن يحل من إحرامه الذي لا يحصل الإحلال منه إلا بالإتمام؟؟ إن الآية تفرض عليه، مع ملاحظة التفسير في السنة من خلال التحديد للمحل في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ ﴾ ، أن يرسل هدياً إلى مكة إن كان معتمراً، وإلى منى إن كان حاجاً، ليذبح هناك. فإذا بلغ محله، أمكنه أن يحلق رأسه ويتحلل من إحرامه. هذا إذا كان المانع هو المرض، أما إذا كان المانع هو العدو، فإن بإمكانه أن يذبح الهدي في مكانه كما يروى أن النبي ﷺ فعل ذلك في الحديبية عندما منعه المشركون عن العمرة.

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ .

هذا استثناء من النهي عن حلق الرأس قبل بلوغ الهدي محله، فإذا كان الإنسان مريضاً يتضرر فيه من إبقاء الشعر على الرأس، أو كان في رأسه بعض الحشرات التي تمثل أذى في رأسه، فيجوز له أن يحلق على أن يقوم بالصيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة. وهو ما عبّر عنه بالنسك كما جاء ذلك في السنة الشريفة.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: مرّ رسول الله ﷺ على كعب بن عجرة والقمل يتناثر من رأسه وهو محرم، فقال له: أتؤذيك هوامك؟

فقال: نعم، فأنزلت هذه الآية: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه، وجعل الصيام ثلاثة أيام، والصدقة على ستة مساكين مدين لكل مسكين، والنسك شاة^(١).

* * *

حج التمتع

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنَ الْمُعَرَّةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

في هذه الآية إشارة إلى حج التمتع، الذي يجمع الحج والعمرة في فريضة واحدة، ولكنه يستمتع بعد الإحلال من العمرة بما كان محرماً عليه إلى حين الإحرام بالحج. وإنما سمي بالتمتع بالنظر إلى أن وحدة الفريضة في العملين تجعل الإنسان كما لو كان قد مارس التمتع في أثناء الحج. ويقابله حج القرآن والإفراد الذي لا تدخل العمرة فيه، وقد أشارت الآية إلى خصوصية حج التمتع بوجوب ذبح الهدي فيه، بعيداً عن حالة الإحصار المشار إليها في الفقرة السابقة، لوجوبه في حالة الأمن كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنَ تَمَنَعٍ بِالْعُمَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ وهذا هو الفارق بين هذا النوع من الحج وبين النوعين الآخرين لعدم وجوب الذبح فيهما كجزء من الفريضة، وإن كان القرآن يشتمل على سياق الهدي بإشعاره أو تقليده كفصل من فصول الإحرام، لا كواجب من واجبات الحج. وقد تعرضت الآية إلى حالة العجز عن الهدي في حج التمتع، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فأوجب صيام عشرة أيام، موزعة بين وقت الحج ووقت الرجوع، و﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

هذا تحديد للمكلف الذي يجب عليه حج التمتع بالنائي عن مكة، وقد كنى عنه بـ ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وقدّر في السنة الشريفة بمن كان بينه وبين المسجد الحرام أكثر من اثني عشر ميلاً. ويقول صاحب الميزان في استيحاء ذلك: «وفيه إيماء إلى حكمة التشريع وهو التخفيف والتسهيل، فإن المسافر من البلاد النائية للحج - وهو عمل لا يخلو من الكد ومقاساة التعب ووعثاء الطريق - لا يخلو عن الحاجة إلى السكن والراحة. والإنسان إنما يسكن ويستريح عند أهله، وليس للنائي أهل عند المسجد الحرام، فبدله الله سبحانه من التمتع بالعمرة إلى الحج والإهلال بالحج من المسجد الحرام، من غير أن يسير ثانياً إلى الميقات»^(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يذكر صاحب الميزان في التعليق على هذه الفقرة من الآية أن «التشديد البالغ في هذا التذليل، مع أن صدر الكلام لم يشمل على أزيد من تشريع حكم في الحج ينبيء عن أن المخاطبين كان المترقب من حالهم إنكار الحكم أو التوقف في قبوله، وكذلك كان الأمر، فإن الحج خاصة من بين الأحكام المشرعة في الدين كان موجوداً بينهم من عصر إبراهيم الخليل، معروفاً عندهم، معمولاً به فيهم، قد أنسته نفوسهم وألفته قلوبهم، وقد أمضاه الإسلام على ما كان تقريباً إلى آخر عهد النبي، فلم يكن تغيير وضعه أمراً هيئاً سهل القبول عندهم، ولذلك قابلوه بالإنكار. وكان ذلك غير واقع في نفوس كثير منهم على ما يظهر من الروايات، ولذلك اضطر النبي ﷺ إلى أن يخطبهم، فبين لهم أن الحكم لله يحكم ما يشاء، وأنه حكم عام لا يستثنى فيه أحد من نبي أو أمة، فهذا هو الموجب للتشديد الذي في آخر الآية بالأمر بالتقوى والتحذير من عقاب الله سبحانه»^(٢).

(١) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ٧٩.

(٢) م. ن.، ج: ٢، ص: ٧٩.

أما تعليقنا على ذلك، فهو أن الأمر بالتقوى، انطلاقاً من العلم بأنه شديد العقاب، أسلوب قرآني درج عليه القرآن في ما يريد الله أن يثبته أمام الإنسان من قضايا الحياة والتشريع، ليقف الإنسان فيه عند حدود الله من موقع النفس التقية التي تراقب الله وتخاف عقابه. أمّا مناسبة ذلك، هنا، فهو الحديث عن تفصيلات تشريع الحج والعمرة من إتمامهما، والحديث عن الحكم في حالة الإحصار وفي حالة الأمن، وعن الحكم في حج التمتع في حالة التمكن من الهدى والعجز عنه؛ فإن ذلك كله مما يوحى بالحاجة إلى الانضباط والالتزام والتقوى في حدود هذه الأمور ومواردها الشرعية، ويكفي ذلك مناسبة.



لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ الأشهر التي يجوز فيها الإحرام للحج ثلاثة: شوال وذو القعدة وذو الحجة - في العشر الأول منه - ﴿فَمَنْ رَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ فإذا فرض الإنسان فيها على نفسه الحج بالإحرام، فيجب عليه أن يلتزم بمحرمات الإحرام التي تقف في مقدمتها هذه الثلاثة التي فسرت في السنة الشريفة، ﴿فَلَا رَفَثٌ﴾ الذي كني به عن الجماع، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ الذي فسر بالكذب، ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾ الذي فسر بقول: لا والله وبلى والله؛ وذلك لأهميتها في المجال التربوي في حياة الإنسان.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ وختمت هذه الآية بالتذكير بأن الأعمال الخيرة التي يقوم بها الإنسان لا تغيب عن علم الله الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، وذلك من أجل أن يشعر بالحاجة إلى الإخلاص في عمله عندما يحس بأنه موضع رقابة الله. ومن أجل أن يعينه ذلك على الاستمرار والزيادة،

لأنه بعين الله الذي يقدر لكل إنسان جهده وعمله، لأن الله لا يضيع عمل عامل من الناس من ذكر أو أنثى، فيدفعه ذلك إلى تحمل الصعوبات والمشاق الكثيرة في سبيل الله طمعاً في ثواب الله ورضاه.

﴿وَتَكَرَّوْا فَاِتَّخِزُوا لِنَفْسِكُمْ حِزْبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَذَلِكُمْ يَكُونُ حِزْبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فهو الذي يبقى للإنسان من بعد موته فيجده عند الله محضراً، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وهو الذي تلتقي فيه الدنيا والآخرة في التقاء العمل الصالح بعواقبه الطيبة، والمسؤولية بنتائجها الخيرة. ثم أكد الموضوع بكلمة تحمل الكثير من المعاني الحميمة التي تربط الخالق بالخلق، لأنها تمثل دعوته الرحيمة في أن يعيشوا الجو الحميم بالحاجة إلى الإحساس بوجود الله وحضوره في وعيهم، الذي يؤدي إلى الالتزام بخط التقوى عندهم. ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. وكان هذا النداء انطلاقة رائعة توحى للإنسان بأن كل هذه القضايا هي من وحي العقل الذي لا يدعو إلا إلى ما فيه الخير كل الخير في الدنيا والآخرة، ليستنفر الإنسان عقله في كل وقت فلا يغيب عنه في أي مجال حتى لا تنهار حياته في لحظات الجنون.



لا جناح في ابتغاء الفضل بعد إتمام الحج

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ورد في بعض الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن هذه الفقرة واردة لبيان الرخصة للمؤمنين في ممارسة الأعمال التجارية بعد فراغهم من الحج، لأنهم كانوا يشعرون بالحرَج في ذلك، وربما كانوا يعانون من الشعور بعقدة الذنب في حال ممارستهم لها. وهذا المعنى ظاهر من الآية من خلال التعبير بعبارة:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ المشعرة بأن هناك إحساساً لديهم بوجود شيء من هذا القبيل، ولأن التعبير عن السعي في طلب الرزق، بالابتغاء من فضل الله، هو من التعابير القرآنية المألوفة كما ورد في قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. وربما يكون في هذا التعبير إشارة إلى أن طلب الرزق لا يتنافى مع الأجواء النفسية الروحية التي يحصل عليها من العبادة، لأنه طلب من فضل الله، كما أن العبادة انطلاق في آفاق الله. وقد أشرنا في ما تقدم إلى الأحاديث الواردة في اعتبار طلب الحلال عبادة تقرب الإنسان إلى الله، بل ورد في بعضها أن العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال.

وفي ضوء ذلك، يمكننا فهم الواقعية الإسلامية في خط التشريع العبادي في امثال الحج الذي يختلف عن الصلاة والصوم، بأنه عبادة متحركة في انطلاق الناس من كل مكان في العالم إلى البيت الحرام الذي يؤدون فيه — أو قريباً منه — مناسك حجهم في أعمال معينة، وأوقات محدودة لا تتنافى مع القيام بنشاط آخر يتصل بالجانب الاقتصادي الذي قد تتاح فيه للناس هناك أكثر من فرصة لإقامة علاقات تجارية مع بعضهم البعض، بحيث توفر عليهم قطع المسافات البعيدة التي قد يضطرون إلى الذهاب إليها في مجال آخر، كما يمكنهم فيه ممارسة التجارة الفعلية مستفيدين من هذا الموسم العالمي الذي يلتقي فيه الناس من سائر أنحاء العالم ليشتروا ما يحتاجون إليه من الأغذية والألبسة والهدايا التي يأخذونها معهم إلى أهلهم... وهكذا نجد أن موسم الحج يساهم في إيجاد سوق «إسلامية» منفتحة على النشاط التجاري الفعلي، والعلاقات الاقتصادية بين رجال الأعمال من مختلف الشعوب الإسلامية التي قد تتحول إلى علاقات سياسية وأمنية وثقافية في تطورها العملي في نهاية المطاف...

وقد جاء في رواية هشام بن الحكم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما

يشير إلى ذلك، فقد سأله هشام عن الصلة التي من أجلها كلف الله العباد الحج والطواف بالبيت، فقال ﷺ «... أمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا، ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمال، ولتعرف آثار رسول الله ﷺ وتعرف أخباره، ويذكر ولا ينسى، ولو كان كل قوم [إنما] يتكلمون على بلادهم وما فيها هلكوا، وخربت البلاد وسقطت الجلب والأرباح، وعميت الأخبار»^(١).

وهذا ما يؤكد خط التوازن الإسلامي في وعي مسألة الدنيا في حاجاتها والآخرة في غاياتها. فليس هناك تناقض بينهما، بل إن السير في خط التشريع الإسلامي يضمن للإنسان الدنيا والآخرة، فتكون الدنيا مزرعة للآخرة، وتكون الآخرة غاية تحقق للدنيا طهارتها وصفاءها وحركيتها في طريق الله.



في عرفات.. والمشعر الحرام

﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ من أعمال الحج أن يقف الناس في عرفات من الزوال إلى الغروب وقفة خاشعة فيها الكثير من العبادة والتأمل والنفاد إلى أعماق الروح في لحظة صفاء ونقاء... إنها وقفة الحياة أمام الله تستلهمه وتستهديه وتفتح قلبها أمامه في آلامها وآمالها من أجل أن يلهمها الصواب في ما تفكر، ويهديها الصراط المستقيم ويجعل لها من أمرها يسراً فيكشف عنها آلامها ويحقق لها أحلامها...

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٦، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ج: ٨، ص: ٩ باب: ١، رواية: ١٨.

وقد نستوحي كل ذلك من ملاحظة أن النسك هنا الوقوف في عرفات، تماماً كما لو أن الإنسان يعيش في رحلة طويلة تجهد، وتتعبه، وتكلفه الكثير من الخسائر، وتواجهه بالكثير مما يقوم به من أعمال ومشاريع... فيشعر بالحاجة إلى وقفة يتخفف فيها من متاعبه، ويراجع فيها حساباته، ويعرف فيها ماذا بقي له من الرحلة وما مضى منها، ليبداً من موقع التجدد الروحي الذي يملأ كيانه في رحلة جديدة واعية لكل أوضاع الحاضر والمستقبل.

ويفيض الحاج من عرفات بعد أن يستكمل هذا الموقف الروحي في التأمل الخاشع، والدعاء المنفتح على الله، والصلاة السابحة في آفاقه، لينتقل إلى فريضة أخرى مماثلة، ولكن في مكان آخر: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ الذي يجب فيه الوقوف من جديد من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس — على مذهب الإمامية — وفي ما بين الطلوعين — على رأي الآخرين — وهي وقفة جديدة في وقت جديد، يعيش الإنسان فيها ذكر الله الذي هدانا إلى طريق الحق بعد أن كنا من قبله من الضالين ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَا وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِلِينَ﴾، فنعرف بذلك نعمة الهدى وتلمس فيه معنى النعمة في ما يوحيه للإنسان من معاني الرضى والروح والطمأنينة، ويبعده عن نوازع الشك والقلق والضياح، ويوجهه إلى الحياة الرحبة الطاهرة الخالية من كل دنس أو رجس أو التواء، والقريبة إلى الحب والخير والسلام. أو يؤدي به — في نهاية المطاف — إلى عفو الله ورضوانه في جنة عرضها السماء والأرض أعدت للمتقين، مما يضمن له خير الدنيا والآخرة، وينطلق ليتعرف — في مقابل ذلك — النتائج السلبية للضلال في داخل النفس وخارجها، في الحياة الفردية والاجتماعية في الدنيا وفي الآخرة... وبذلك يحس بالشكر العميق لنعمة الهدى، ويعيش الشعور بالامتنان لله الذي وهبه هذه النعمة بأكثر مما يحس به إزاء النعم المادية التي وهبها له في هذه الحياة.

ولعل في التذكير بحالة الضلال دعوة إلى أن يدخل الإنسان في عملية

مقارنة بين حياته في داخل أجواء الضلال وبين حياته في أجواء الهدى، ليعرف نعمة الهدى من مواقع حياته الطبيعية لا من مواقع الفكر والنظرية فحسب.

* * *

إلغاء النوازع الطبقية

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ﴾ يقال: إن قریش كانت لا تفيض من حيث يفيض الناس، لأنها تشعر بموقعها المميز الذي يختلف عن مواقع الناس من حيث العلو والرفعة والكبرياء، فكانت لا تقف بعرفات. وقد جاء في ما رواه ابن جرير الطبري عن ابن عباس: «كانت العرب تقف بعرفة، وكانت قریش تقف دون ذلك بالمزدلفة، فأنزل الله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ﴾»^(١).

لقد جاءت هذه الآية لتلغي من نفوسهم كل هذه النوازع الطبقية التي تدفعهم إلى الاستعلاء على الآخرين، لا سيما في مثل هذا الموقف الذي أراده الله من أجل إلغاء كل الفوارق التي تميزهم عن بعضهم البعض، ليشعروا بالصفة الواحدة التي تجمعهم أمام الله، وهي أنهم عباد الله الواحد الأحد؛ فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فلا معنى - بعد ذلك - لأن يميز أحد نفسه عن أخيه في موقع أو في ظرف انطلاقاً من الشعور بالتفوق والكبرياء.

وهناك تفسير آخر للآية: وهو «أن المراد به الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمي والنحر عن الجبائي قال: والآية تدل عليه، لأنه قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾،

(١) الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ج: ٢، ص: ٣٩٩.

فوجب أن يكون إفاضة ثانية، فدلّ ذلك على أن الإفاضة واجبتان، والناس المراد به إبراهيم، كما أنه في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] نعيم بن مسعود الأشجعي^(١).

ولعل الوجه الأول أقرب وأظهر، لأن إرادة شخص واحد من الناس خلاف الظاهر، فلا يصار إليه إلا بدليل. ولا دليل هنا على ذلك، كما لا دليل فيها على أن هناك إفاضة، لأن كلمة الإفاضة من عرفات ذكرت لبيان التشريع. أما الآية الثانية فربما وردت لبيان الطريق الذي يسلكه الحجاج في الإفاضة وهو الطريق العام.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ وودعاهم بعد ذلك إلى أن يستغفروه من كل ما يمكن أن يحدث في أنفسهم من المشاعر السلبية البعيدة عن خط الإيمان وروحيته وودعهم بالمغفرة والرحمة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأن الرحمة والمغفرة من صفاته الذاتية التي امتنّ بها على عباده ليدخلهم في رحمته ورضوانه.



الدعاء بين نموذجين من الناس

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ يقال: إن الناس كانوا إذا قضوا مناسك حجهم، جلسوا يسمرون، ويمتد بهم الأمر إلى أن يثيروا أحاديث آبائهم، فيتذكروا مواقفهم وأوضاعهم وأمجادهم... وبذلك ينفصلون عن الجو الروحي الذي كانوا يعيشونه من

(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٢٨.

خلال الحج، ولكن الله يريد منهم أن لا يجعلوا الحج مجرد موسم أو مناسبة يذكرون فيها اسم الله، ثم تقف القضية عند هذا الحد فلا يبقى لله أي حضور في نفوسهم أو ألسنتهم، بل يكون دوره أن يفتح قلوبهم على الله في امتدادٍ روحيٍّ مستمرٍّ، لا ينتهي إلا ليبدأ من جديد، حتى يصبح ذكر الله - بعد الحج - ملحقاً بالمستوى الذي لا يدانيه ذكر أي إنسان آخر حتى في مستوى الآباء.

ونقف - في هذا المجال - على نموذجين من الناس؛ أحدهما: الذي يصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ النموذج الذي إذا ذكر الله وأراد أن يدعوه في موقفه هذا، لم يذكر إلا حياته الدنيا، وشهواته فيها، ومطامعه، ومطامحه... من دون أن يفكر في الآخرة من قريب أو من بعيد. فهو يطلب من الله أن يؤتیه الدنيا ويقف عندها جامد الإحساس، جائع الأحلام، ظامئ المشاعر... ولا نصيب لهذا في الآخرة لأنها ليست واردة في حسابه على كل حال، ولذلك فإن الله لا يحسب حسابه في ثوابه ورضوانه.

ثانيهما: هو مصداق قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ النموذج الذي يتمسك بالخط الإسلامي المتوازن الذي يجمع بين الدنيا والآخرة، فهو يعتبر الدنيا حقلاً من حقول العمل التي أراد الله للإنسان أن يعيش فيها حياة طيبة، يمارس فيها الطيبات ويقبل فيها على ما أحله الله له من شهوات وملذات؛ ولهذا فهو يطلب من الله أن يؤتیه في الدنيا حسنة، ثم يرى أن الآخرة هي نهاية المطاف، فهي دار المصير الذي يجد فيه كل إنسان دار خلوده في الجنة أو في النار، ولذلك فهو يطلب من الله أن يؤتیه فيها حسنة. ومثل هذا النموذج قريب إلى الله، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ ولذلك فإن له نصيباً مما كسبه من عمله الصالح في الدنيا، فيجد أمامه الجزاء الكبير في دنياه وآخرته. والله سريع الحساب،

يعلم ما يستحقه عباده نتيجة أعمالهم، فيعطي كلاً منهم الجزاء العادل في جانب الخير أو في جانب الشر.

* * *

الجانب التربوي في الدعاء

وفي هذا الجو الذي تثيره الآيتان، نستوحي الجانب التربوي في الدعاء، حيث ينبغي أن يعيش الإنسان فيه كل قضايا الملحة التي يعيشها في فكره ووجدانه وحياته، بحيث يكون الدعاء صورة حية لكل منطلقاته في الحياة، فيلتفت إلى شؤون الآخرة كما يلتفت إلى شؤون الدنيا، ليطلع الله على قلبه فيجد فيه صدق التوجه إلى الإسلام في أمور حياته من خلال وعيه لكل الجوانب التي تحكم شؤون الحياة؛ فيطلبها منه كما يطلب الإنسان الأشياء الضرورية التي لا غنى له عنها. وفي ضوء ذلك يزداد إحساسه بالآخرة كما لو كانت حاجة مهمة من حاجاته الذاتية، بحيث يتفجر الشعور بها في دعاء خاشع متضرع بين يدي الله.

وهذا ما نجده في الأدعية القرآنية، وأدعية النبي محمد ﷺ والأئمة من أهل بيته عليه السلام، ولا سيما أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية وفي غيرها. . . فإنها جامعة لمطالب الدنيا والآخرة في جو واحد، كتدليل على وحدة الانطلاقة فيهما معاً. والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

واذكروا الله في أيام معدودات

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾، الظاهر أن الأيام المعدودات هي أيام التشريق من ذي الحجة، وهي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر منه، وهي التي فرض فيها المبيت في منى، ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، بأن ينفر في اليوم الثاني عشر، ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، كما لا مانع من البقاء إلى اليوم الثالث عشر. وليس في الآية ما يدل على شرط البقاء أو شرط التأخير، أما كلمة ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية: قال: «يرجع مغفوراً له لا ذنب له»^(١)، وفي حديث آخر عن الباقر عليه السلام: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ منهم الصيد، واتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله عليه في إحرامه»^(٢)، وبذلك يكون هذا التخصيص بمن اتقى بلحاظ حالة المغفرة المستفادة من سياق الكلام.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وعادت الآية من جديد للدعوة إلى التقوى بقول مطلق في جميع أعمال الإنسان في حال الحج وغيره، والتأكيد على ذلك بالإعلام بالحقبة الإيمانية، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

فإن الخلق كلهم يحشرون إلى الله، ليواجهوا جزاء أعمالهم من خير أو شر. فإن استشارة هذه الحقيقة في وعي الإنسان يعتبر عاملاً كبيراً في تنمية روح التقوى في نفسه وحياته.

ولعل البقاء في منى هذه الأيام أو الليالي بعد انتهاء أعمال الحج يعتبر انطلاقة روحية تأملية، يعيش فيها الإنسان حضور الله في نفسه بما يثيره من ذكر، وبما يهيج فيه من فكر، وبما يعيشه من تأملات، وذلك في عملية مراجعة لحسابات أعماله في الماضي والحاضر في طريق تنمية أعمال

(١) البحار، م: ٣٥، ج: ٩٦، ص: ٤٥٥، باب: ٥٥، رواية: ٤.

(٢) م.ن.م: ٣٥، ج: ٩٦، ص: ٤٥٥، باب: ٥٥، رواية: ٣.

المستقبل، وليحصل له من خلال ذلك النتائج الروحية والعملية من خلال أفعال الحج عندما يستحضرها في نفسه في عملية تقويم تفصيلية يدرك فيها طبيعة هذه الأفعال في ما أخلص فيه، وما أتمّه منها وما قصر فيه، ليرجع من حجه واثقاً بالنتائج الكبيرة على مستوى الإيمان في الدنيا والآخرة، ونعم أجر العاملين.



الآيات

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ
عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا
وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ
الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَلَدُّ﴾: شديد عنيد في خصومته وجدله، واللد: شدة الخصومة.
يقال: رجل ألد وقوم لُد، والألد: الخصيم الشديد التأبي وجمعه لُد. قال
الراغب: وأصل الألد الشديد اللد، أي: صفحة العنق، وذلك إذا لم يمكن
صرفه عما يريده^(١).

﴿الْخِصَامِ﴾: المخاصمة، يقال: خاصمته وخصمته مخاصمة وخصاماً. قال الزمخشري: وإضافة الألد بمعنى في، كقولهم: ثبت الغدر، أو جعل الخصام ألد على المبالغة، وقيل: الخصام: جمع خصم كصعب وصعاب، بمعنى: وهو أشدّ الخصوم خصومة^(١). وقال الراغب: أصل المخاصمة أن يتعلق كل واحدٍ بخصم الآخر، أي: جانبه^(٢).

﴿الْحَرْثُ﴾: إلقاء البذر في الأرض وتهيؤها للزرع، ويطلق على نفس الزرع قائماً كان أو حصيداً، ويطلق على النساء تشبيهاً: ﴿يَسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي سَتَمُّ وَقَدِمُوا لِنَفْسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وأصل الحرث: الكسب والجمع.

﴿وَالنَّسْلُ﴾: الأولاد، قال الراغب: النسل: الولد لكونه ناسلاً عن أبيه^(٣)، وأصل النسل: الانفصال عن الشيء أو الخروج.

﴿الْعِزَّةُ﴾: القوة التي يمتنع بها عن الذلة، وقيل في معنى ﴿الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ قولان: أحدهما: حملته العزة والحمية الجاهلية على فعل الإثم ودعته إليها، كما يقال: أخذته بكذا أي ألزمته. والثاني: أخذته العزة من أجل الإثم الذي في قلبه.

﴿الْمِهَادُ﴾: الوطاء من كل شيء. وكل شيء وطئته فقد مهدته. والأرض مهاد لأجل توطئته للنوم والقيام.

﴿يَشْرِي﴾: يبيع، أخذ الثمن ودفع المثل، قال الراغب: لفظ البيع

(١) تفسير الكشاف، ج: ١، ص: ٣٥٢.

(٢) مفردات الراغب، ص: ١٥٠.

(٣) م.ن.، ص: ٥١٢.

والشراء يستعمل كل واحد منهما في موضع الآخر^(١).

* * *

مع نموذجين من الناس في مواقف الحياة

في هذه الآيات صورة معبرة عن نموذجين من الناس، لا يخلو منهما زمان ولا مكان أمام مواقف الحق والعدل والإيمان، فهناك النموذج المنافق الذي يحاول أن يستغل طيبة الناس وبساطتهم وصدقهم حيث يوحى إليهم بأن الذي يعاشونه طيب وصادق ونظيف، فيستسلمون لكلماته الحلوة، وأساليبه الناعمة، وموائقه المؤكدة التي يحاول من خلالها أن يوحى للناس بأنه يحمل في قلبه كل النوايا الخالصة والأفكار الخيرة التي تبني للناس حياتهم وتوجهها إلى الطريق الحق والسعادة الكبيرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في دلالته على إخلاصه وأمانته وتخطيطه للعمل الصالح الذي يتصل بحياة الناس في قضاياهم العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ بالآيمان المغلظة والتأكيدات الحاسمة، ليخضع الناس له من باب قداسة الشهادة وعظمة الميثاق.

ويكمل القرآن الصورة من جانبها الآخر عندما ينفذ بنا إلى حياته الداخلية: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ أي: شديد الجدل والعداوة للمسلمين وللحق. ذلك هو واقعه في منطلقاته الفكرية والروحية الذي لن يتعرف الناس عليه إلا من خلال التجربة المرة التي تظهر كل ما يحمله من المعاني السيئة الشريرة التي تختبئ خلف قناع الوجه الذي يمثل الصدق والوداعة، أو الكلمة التي تمثل

الحق والبراءة، ليتوصل من خلال ذلك إلى ما يريده من جاءٍ ومالٍ وشهوة، حتى إذا استقام له الأمر، وانفصل عن جو التمثيل، انطلق بعيداً عن كل ما كان يقوله ويؤكدده ويظهر به، ليتحرك في الأجواء الحاقدة الطاغية الباغية التي يهلك فيها الحرث والنسل.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ ووصل إلى الموقع القيادي الذي يطمح إليه من أجل الحصول على النتائج المعنوية والمادية لحساباته الخاصة، واكتسب ثقة الناس به وتأيدهم له، فأصبح رمزاً دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً يشار إليه بالبنان، ويجري الناس من خلفه تابعين له، ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ بما يثيره في المجتمع من المشاكل والمنازعات والوسائل المدمرة التي تحطم كل ما في الحياة من ثروة، ومن بشر... وينطلق في المجالات التي تفسد واقع الناس الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، ويمتد في طغيانه بعيداً عن رضا الله ومحبته.

وقد اختلف المفسرون في كلمة ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ فقال بعضهم: إنها الإعراض والإدبار في مقابل إقباله على الناس بكلامه المعسول، وقال بعضهم: إنها الولاية، أي: إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، كما يقول صاحب الكشاف^(١). ولعله الأقرب، لأن تلك الصفات توحى بالسلطة الكبيرة التي تمكنه من ذلك، وتبرر له الاستعلاء على الوعظ والنقد والأمر بالتقوى... والله العالم بأسرار آياته.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ فإنه سبحانه يريد للحياة أن تعيش في أجواء الخير والصلاح التي تنمي خيراتها، وتطور مجتمعاتها، وترتفع فيها بالإنسان إلى الدرجات العلى في عقله وروحه وحركته. ولذلك أرسل رسله بالرسالات

المتنوعة التي تخطط للحياة الإنسانية، لتسير في الاتجاه الصحيح الذي ينسجم مع عناصر الحياة المودعة في شخصية الإنسان، وفي حركة السنن الكونية في الحياة. وربما كان هذا ما استوحى منه الإمام الصادق عليه السلام - في ما روي عنه - أن المراد بالحرث هنا الدين، وبالنسل الإنسان؛ باعتبار أن الله زرع الدين في نظام الإنسان في الحياة، تماماً كما هو الزرع في نظام الأرض؛ الأمر الذي جعل من هذا النموذج الذي يتولى المسؤوليات العامة في المجتمع، مشكلة للناس في منع انطلاقة الدين في خط الاستقامة الذي يؤدي إلى الصلاح، وذلك هو هلاك الحرث الاجتماعي في نظام الحياة، على سبيل الاستيحاء لا على سبيل المعنى. والله العالم.

وقد تكون كلمة ﴿وَبُهْلِكَ أَلْحَرْتُ وَالنَّسْلُ﴾ واردة على نحو الكناية، لأن الطغاة المنافقين الذين يتولون أمور الأمة يعملون على إبادة حضارتها الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية، بحيث لا تبقى هناك أية قوة لأي وجود، ولا أية ثروة لأية جماعة؛ فكأنه يهلك الحرث والنسل، لأنه يهلك الواقع السليم كله. وهذه عبارة تتكرر في الأساليب الأدبية في مقام التعبير عن الإنسان الذي يخرب الواقع كله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ووقف أمامه الناصحون والناقدون لينصحوه، ويؤنبوا له خطأ السبيل التي يسير فيها، وليعظوه، ويوجهوه إلى خط التقوى الذي يدفعه إلى مراقبة الله في كل شؤون الحكم والحياة ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، فتمسك به والتزمه اعتزازاً به، فلم يستمع للنصائح، ولم يأخذ بالمواعظ؛ بل امتد في طغيانه واستعلى واستكبر في عملية إيحاء كاذب بأنه فوق مستوى النقد والشبهات، فهو الذي يعطي للآخرين برنامج العمل ويحدد لهم مسيرة الحياة، فلا يجوز لأحد أن يحدد له برنامجه ومسيرة حكمه.

وتختتم الآية الصورة بالمصير الذي ينتظر مثل هذا الإنسان ﴿فَحَسْبُ

جَهَنَّمَ ﴿ يَعَذَّبُ فِيهَا أَشَدَّ الْعَذَابِ ، ﴿ وَلَيْسَ الْمَهَادُ ﴾ الذي مهّده لنفسه بعمله وجريمته .

تلك هي صورة هذا النموذج الذي يتمثل بشخصية المنافق الذي يتحرك في حقول الدين والسياسة والاجتماع في كل زمان ومكان، هذا الذي يبيع نفسه للشيطان في كل ما يمثله من التواء وانحراف وإغراء وإغواء، من أجل أن يؤدي بنا إلى الانهيار والدمار من حيث لا نشعر ولا نريد .

وهناك صورة أخرى لنموذج جديد مشرق في داخل الحياة وخارجها، تتمثل بالإنسان الذي شرى نفسه لله من أجل الحصول على رضاه^(١) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ الأمر الذي يجعله يشعر أنه لا يملك نفسه ولا يرى لها حرية مطلقة بعيداً عن إرادة الله وطاعته . ولذلك فهو يعيش الإحساس العميق بأن عليه أن يبذل كل طاقاته الفكرية والروحية والجسدية في سبيل الله، فلا مجال للترف الفكري في الأجواء التي تتحرك فيها التحديات الفكرية ضد الفكر الحق، ولا موقع للخيال أمام حاجة الواقع إلى التعامل مع الظروف الموضوعية المطروحة في الساحة، ولا وقت للفراغ في المجالات التي يشعر فيها الإنسان بالزمن يضيق عن المطامح الكبرى للقضايا الأساسية الحية في واقع الإنسان والحياة . وهكذا تنطلق حياته لتتحرك من موقع الحق المتحرك في أكثر من اتجاه ضد خطوات الباطل التي تطلق التحدي في أكثر من مجال .

إنه نموذج الرساليين الذين يعيشون رسالتهم في كل مظهر لحركة الحياة من حولهم، ويعيشون حياتهم من أجل رسالتهم في الخط المستقيم؛ فلا ينحرفون أمام كل محاولات الإغراء ولا يستسلمون لكل عوامل الضغط؛ بل

(١) الشراء هنا بمعنى البيع كما في قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ ﴾ [يوسف: ٢٠] أي: باعوه .

يظلون في الموقع الصلب، في ساحات التحدي الصعب ليشهدوا الله على أنهم صدقوا العهد وأكدوا الميثاق بجهادهم وتضحياتهم في سبيله، ولم تأخذهم فيه لومة لائم.

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فهو الذي يتقبل منهم هذه النفوس المجاهدة التي تستقبل الموت بكل رضى واطمئنان، انطلاقاً من خط الواجب الذي تلتقي فيه الرسالة بالشهادة والشهادة بالنصر، ويجزل لها الثواب في مستقر رحمته ورضوانه، وهو الذي يجازيهم الثواب الكثير بالعمل القليل.

وقد يمكن لنا استيعاء الصورة في مجالها المتجسد في صورة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ما يذكره الرازي في تفسيره - في ما نقله عنه صاحب تفسير الكاشف - قال: جاء في سبب نزولها ثلاث روايات، منها أنها «نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة خروجه الى الغار، ويروى أنه لما نام على فراشه، قام جبريل عليه السلام عند رأسه، وميكائيل عند رجله، وجبريل ينادي: بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة»^(١).

وقد جاء في التفاسير أن النبي صلى الله عليه وآله لما أراد الهجرة إلى المدينة، خلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وأداء الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خروجه إلى الغار، وقد أحاط به المشركون بالدار، أن ينام على فراشه، وقال له: أتشح ببردي الحضرمي الأخضر ونم على فراشي، فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله تعالى. ففعل ذلك علي، ويروي الثعلبي في تفسيره - كما ينقلها البحراني - هذه الرواية ثم يقول «فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل: إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه،

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: ٣، ١٩٩٠م: ٣، ج: ٥، ص: ٢٠٤.

فأيكما يؤثر أخاه؟ فكلاكما أثر نفسه على صاحبه: ألا كنتما مثل ولتي علي بن أبي طالب عليه السلام؛ آخيت بينه وبين محمد نبي، فأثره بالحياة على نفسه، ثم رقد على فراشه، يقيه بمهجته. اهبطا إلى الأرض جميعاً واحفظاه من عدوه.

فهبط جبرائيل فجلس عند رأسه وميكائيل عند رجله، وجعل جبرائيل يقول: بخ بخ، من مثلك يا بن أبي طالب؟ والله يباهي بك الملائكة، فأنزل الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية^(١).

ولم تركز الآية على شخصية علي عليه السلام، بل أطلقت التعبير ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ لأن القضية هي أن الله يريد للنموذج - الفكرة أن ينطلق ليكون عاماً في حياة الناس، وذلك من خلال النموذج الأمثل في مقابل النموذج السيء الذي لا يفكر إلا بذاته وشخصه.

إننا نجد في حياة الإمام علي عليه السلام حركة الصورة في الحياة في ما يمثله هذا الإمام العظيم من طاقات رائعة في الفكر والتقوى والشجاعة والإبداع، حيث فجرها بأجمعها في خدمة الإسلام والمسلمين، بعيداً عن كل مصلحة ذاتية، حتى قال: «ما ترك الحق لي صديقاً...». ولم يبدد أيّ واحدة منها في الترف أو الفراغ أو خدمة الذات...



(١) البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت - لبنان، ط: ٤، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ج: ١، ص: ٢٠٧.

ماذا نستوحي من هذين النموذجين؟

أما ما نستوحيه من هذه الآيات فهو عدة أمور:

١ - أن نتعلم كيف نمنح الآخرين الثقة والتأييد والدعم، من خلال المواقف لا من خلال الكلمات والمظاهر، لأن الكلمات قد تخدع، والمظاهر قد تغش، ولكن المواقف التي تتحرك من خلال التجربة المبررة الصعبة لا تنطلق إلا من قاعدة الحق والإخلاص. ويبقى للآيات إبحاؤها العميق الذي يريد أن يعطي الفكرة من خلال عرض الصورتين المتقابلتين، ليشعر الإنسان بأن للحياة أكثر من وجه وأن ظاهر الصورة قد لا يعبر عن واقعها في كثير من الحالات.

٢ - أن نلاحق هذين النموذجين في حركة الواقع، من أجل أن نتابع الأول بالرفض والمواجهة من أجل إزاحته من واجهة الصورة في الحياة، لتخليص الناس من فسادهم وبغيهم وطغيانهم واستكبارهم، أما النموذج الثاني فنحاول متابعته بالتأييد والدعم والرعاية من أجل تقويته وتثبيته وتشجيع الإنسان على أن يحتذيه ويقندي به في كل مواقفه ومنطلقاته، لإفساح المجال أمام القيم التي يحملها والمواقف التي يمثلها أن تتحرك على الساحة بالخير والإصلاح والمحبة والإنسانية الودية الذكية.

٣ - أن نتمثل في وعينا المبادئ السلبية من الإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، لنجعل منها أساساً للتعامل السلبي مع كل البرامج السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، لنجابهها في ما نملكه من مواقع المجابهة كما نتمثل المبادئ الإيجابية التي تلخص في أن يبيع الإنسان نفسه لله ابتغاء مرضاته، لنؤكد الخط الإيجابي في الحياة السائر على هذا النهج في عملية تقوية وتأيد وتنمية، مهما كانت الصعوبات التي نتحدثنا، والمشاكل

التي تحتويننا، فإن ذلك هو الذي يحقق لنا معنى الالتقاء برضى الله في ما يحبه، والابتعاد عن سخطه في ما يكرهه؛ حتى نفهم من معنى الحب وعدم الحب، الجانب العملي الإيجابي والسلبي من خط العمل، لا الجانب الوجداني الداخلي الذي لا يلتقي إلا بالعاطفة الذاتية الواقعة في خط الانفعال.



الآيات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ
يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

* * *

معاني المفردات

﴿كَآفَّةً﴾: جميعاً، واشتقاقه في اللغة مما يكف الشيء في آخره .
ومن ذلك: كفة القميص لحاشيته، لأنها تمنعه من أن ينتشر، وكل شيء جمعته
فقد كفته .

﴿ زَلَّكُمُ ﴾: تنحيتهم عن القصد وعدلتهم عن الطريق القويم . والزلة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد، وقيل للذنب من غير قصد: زلة، تشبيهاً بزلة الرجل .

﴿ يَنْظُرُونَ ﴾: النظر هنا بمعنى الانتظار . وأصل النظر: الطلب لإدراك الشيء . وإذا استعمل بمعنى الانتظار، فلأن المنتظر يطلب إدراك ما يتوقع . وإذا كان بالعين فلأن الناظر يطلب الرؤية .

﴿ ظُلِّلَ ﴾: جمع ظلة، وهي ما يستظل به من الشمس، وسمي السحاب ظلة لأنه يستظل به .

﴿ أَلْفَمَامِ ﴾: السحاب الأبيض الرقيق، سمي بذلك لأنه يغم أي يستر .



الدخول في السلم: المعاني والإيجاءات

في هذه الآيات دعوة للمؤمنين بأن يدخلوا في الجو الإيماني الذي يحفظ لهم في الحياة الوحدة التي لا خلاف فيها، فلا نزاع ولا خصام على أساس من تعاليم الإسلام وتوجيهاته ومفاهيمه وأحكامه . ولكن كيف نستفيد ذلك منها؟! هذا ما نحاول أن نعرضه ونستوحيه بتفصيل .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِيكَ ءَامَتُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ ﴾ فإن الإيمان يفرض على صاحبه الالتزام بالخط الإلهي الذي رسمه الله في دينه، في مناهجه وشرائعه .

وقد انطلقت الكلمات المفسرة في تحديد معنى كلمة ﴿ السِّلْمِ ﴾ بين ثلاثة اتجاهات، فقد فسرها الكثيرون بالإسلام، وفسرها البعض بالصلح أو ترك المنازعة والخلاف، وفسرها آخرون بالطاعة التي تختزن معنى الاستسلام، ويقصد بها استسلام الإنسان لربه بطاعته له وانقياده لأوامره ونواهيه، بحيث

يبتعد عن الاستغراق في ذاته، باستغراقه بالخضوع لربه. وهذا ما يؤدي إلى السلام مع نفسه ومع ربه ومع الناس ومع الطبيعة والحياة كلها.

وبذلك اختلف مفهومهم لكلمة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، لأنّ التفسير الأول لكلمة السلم يخلق مشكلة بيانية؛ فإذا كانوا مؤمنين، فكيف يطلب منهم أن يدخلوا في الإسلام؟! فحاول بعضهم أن يفسر ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، بمن آمن قولاً لا عقيدة وهم المنافقون، وبذلك تكون الدعوة في الآية إلى الالتزام العملي بالإسلام والإيمان به.

وذكر الطبرسي في تفسيره أن المراد به: دوموا في ما دخلتم فيه كقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَاكُتِّبُ﴾^(١) [النساء: ١٣٦].

وحاول البعض أن يفسره بأهل الكتاب، فتكون دعوة إلى دخولهم في الإسلام. ولكننا لا نجد في جو الآية ما يوحي بأي من المعنيين، بل ربما نلاحظ في استعراضنا للآيات التي استعملت فيها كلمة السلم أن الأقرب إلى الجو هو المعنى الثاني. كما نلاحظ على التفسيرين لكلمة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أن الظاهر من الآية الكريمة: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] هو إرادة الإيمان الذي يطابق فيه القول الفعل، فكيف نحمل الكلمة على خلاف ذلك؟ أما حملها على أهل الكتاب، فيتنافى مع المصطلح القرآني الذي جعل كلمة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مقابلة لأهل الكتاب والمشركين، كما توحي به الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيَّةَ﴾ [الحج: ١٧] وفي ضوء ذلك، لا نجد هناك وجهاً يبرر إرادة معنى الإسلام من كلمة ﴿الْإِسْلَامُ﴾، مما يعني عودة المشكلة البيانية من جديد، كما أن حمل كلمة الدخول على الدوام في ما دخلتم فيه خلاف الظاهر من دون قرينة.

وفي هذا الجو، يمكننا أن نؤكد ثانياً إرادة المعنى الثاني، لأن ذلك ما نفهمه من كلمة ﴿السِّلْمُ﴾ التي تعني الوفاق الاجتماعي الذي يبتعد عن جو الصراع والخلاف والقتال، فكأن الآية تدعو إلى الدخول في أجواء السلم التي تلتقي بالوقوف على الخط الواحد الذي تجتمع عليه الأمة بعيداً عما يفرقها ويوزعها أشتاتاً متنازعة مختلفة، تماماً كما هو جو الآية الكريمة: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم نلاحظ التركيز في أكثر من آية من آيات القرآن على التحدث عن الأمم السابقة التي جاءها العلم، ولكنها اختلفت في ما بينها فضلت وأضلت، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] وغيرهما من الآيات التي توحى بالخط القرآني الذي يؤكد على عدم الخلاف بين أبناء الأمة الواحدة في قضايا دينها وحياتها، ويعمل على أن يجعل من بني إسرائيل النموذج الحي الذي دمرته الفرقة الخاضعة لأهواء التيارات الذاتية والفئوية المدمرة؛ وذلك من أجل الحفاظ على سلامة المجتمع الذي يبني له السلم حياته في سائر جوانبها العامة والخاصة، وهذا ما يدفعنا إلى استichاء هذا المعنى من الكلمة في نطاق الجو القرآني العام. فإذا أضفنا إلى ذلك انسجامه مع استعمال كلمة السلم في الآيات القرآنية في هذا المعنى، أمكننا أن نقرب من الاطمئنان للفكرة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. ومن خلال ذلك نستوحي انطلاق الآية في هذا الاتجاه الذي هو الشرط الأساسي لسلامة استمرار الخط الإسلامي في الحياة. فعلى المؤمنين أن يعيشوا في أجواء السلم في علاقاتهم ببعضهم البعض، في المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، فلا يفسحوا المجال للخصومة

والنزاع أن يحكما حياتهم، لا سيما الخلافات المذهبية في داخل الدين الواحد، فإنها تفرق الناس، وتجعل من كل فئة من الفئات قوةً تخاصم الفئة الأخرى؛ فيؤدي ذلك إلى ضعف الدين، لأن كل طاقة دينية تضرب طاقة دينية أخرى، تساهم في النتيجة في إهدار الطاقات الدينية لمصلحة القضايا الشخصية.

ولعل من الطبيعي أن يكون الاتجاه إلى السلم مرتبطاً بالانسجام مع المفاهيم الإسلامية التي تحكم حياة الناس، وذلك من خلال الأساس الفكري الذي يجمعها ويوحد خطاها ويشعرها بأنها تلتقي عنده. وفي هذا النطاق يمكننا أن نستوحي من الدخول في السلم الالتقاء على خط الإسلام الواحد، لا كمفهوم من الكلمة، بل كنتيجة للمفهوم المرتكز على الوفاق؛ فإن السلم الذي يقوم على المجاملة والعاطفة، وينطلق من إخفاء العقد الذاتية، ومن الهروب بعيداً عن المشكلة، لا يمكن أن يثبت أمام التجربة، ويصمد أمام الرياح والعواصف.

وهكذا يفهم الإسلام قصة السلم في الواقع، وذلك في نطاق الوحدة الفكرية والشعورية التي تتحرك نحو الوحدة العملية الواقعية. وربما كان ابتداء الآية بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الذِّكْرُ آمَنًا﴾، إيحاءً بذلك، لأن الإيمان يوحى للمؤمنين بوحدة المنطلق والطريق والهدف؛ الأمر الذي يربط الوحدة بالجزور العميقة للانتماء، ويبيدها عن الارتواء في أحضان الكلمات السطحية الغارقة بالضباب، فيفجر كل الأشياء في الداخل، لتتحول إلى الهواء الطلق والنور الباهر.

والمراد بكلمة ﴿كَافَّةً﴾ جميعاً، بمعنى أن لا يتعد أي واحدٍ منهم عن الدخول في هذا العنوان الكبير. وهناك احتمال بأن المقصود به ادخلوا في السلم كله، أي في جميع شرائع الإسلام، ولا تتركوا بعضه. ويؤيد هذا القول ما روي أن قوماً من اليهود أسلموا وسألوا النبي أن يبقوا عليهم تحريم السبت

وتحريم لحم الإبل، فأمرهم أن يلتزموا جميع أحكام الإسلام — كما جاء في مجمع البيان^(١) —. ولكن هذا خلاف الظاهر، كما ذكرناه من استبعاد إرادة الإسلام من كلمة ﴿الْيَسِيرِ﴾ أولاً، وثانياً لأن كلمة ﴿كَافَّةً﴾ لا تستعمل، غالباً، إلا في موقع الكلمة الدالة على الجمع لفظاً ومعنى، مع أن كلمة ﴿الْيَسِيرِ﴾ ظاهرة في المفرد، وتقدير كلمة الأحكام خلاف الظاهر.



خطوات الشيطان تصادر خطوات السلام

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه يبعد المؤمن عن خط إيمانه بالاستغراق في أجواء اللهو والغفلة، فيتجمد إيمانه في داخل ذاته بعيداً عن حركة الحياة من حوله، ليجعل كل الخطوات متحركة في طريقه السائر نحو الضلال والكفر والانحراف... وذلك بما يثيره في النفس من وساوس الشر، ونوازع الشك، وعوامل الانحراف؛ فيفقد وعي الإيمان، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وتضطرب مقاييسه عندما يختلف لديه ميزان الرؤية للأشياء. ولعل من بين هذه النتائج السلبية لذلك، هو ما نواجهه من حرب المؤمن للمؤمن باسم الإيمان، بتسويل الشيطان له بأنه يحارب الانحراف لدى المؤمن، ولكنه لو دقق النظر، لاكتشف أنه يعاديه على أساس مزاجه الشخصي وهواه الذاتي.

وربما كان من مظاهر ذلك ما نواجهه من إثارة الخلافات المذهبية والطائفية بين المسلمين، بالمستوى الذي يؤدي إلى التخاصم والتنازع في المجالات العامة، بحجة الدفاع عن الحق، في ما يوحيه الشيطان للمعتدي،

بينما تكون الساحة مثاراً لخطط كافرة جهنمية تتحرك من مواقع الاستعمار تارة، وقواعد الكفر أخرى، مما يجعل من إثارة هذا الجو أساساً لتنفيذ كل مخططاته القريبة والبعيدة من دون شعور وانتباه؛ تماماً ككثير من كلمات الحق التي يقصد بها الباطل أو تتحرك في خدمته .

وفي ضوء ذلك، كان التأكيد الدائم من الله في آياته على مراعاة الدقة في التعامل مع الشيطان في كل خطواته، لأنه يسلك أخفى الطرق وأدق الوسائل في النفاذ إلى وعي الإنسان وفكره، بحيث يتركه ضائعاً بين طريق الحق والباطل لتشابه المعالم والملامح بين الطريقتين . وهذا ما نجده في بعض الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ بَرَعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣] . فقد كان التأكيد على القول الأحسن منطلقاً من استغلال الشيطان لكل الثغرات الموجودة في جو الكلمة غير المدروسة ومدلولها وحروفها، مما يمكن أن يثير بعض المشاعر والأحاسيس الذاتية المعقدة التي يمكن أن يتفادها الإنسان بلباقة، باستعمال كلمة أخرى تؤدي الفكرة نفسها بعيداً عن كثير من السلبيات بأسلوب أفضل وجوَّ أحسن .

﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ فهو لا يريد لكم الخير في وساوسه وتسويلاته وتزيينه، بل يريد لكم الشر من خلال استغلال نقاط الضعف الكامنة في شخصياتكم، ليستثير غرائرها في اتجاه الانحراف، وأحلامها في الخطوط البعيدة عن الواقع، سواء كان ذلك من الناحية الفكرية، أم من الناحية العملية، فيصور لكم الباطل بصورة الحق لتبعوه، ويصور الحق بصورة الباطل لتتركوه، لأنه يحسن تجميل الصورة القبيحة ببعض وسائله، كما يتقن تقييح الصورة الجميلة ببعض ألعابيه . وهذا هو العنوان القرآني العام في كل حديث له عن الشيطان، كما في هذه الآية .

وربما كان التعبير بـ ﴿حُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ يختزن في مضمونه الإيحاء — ولو من بعيد — بالتدريجية في طريقة الشيطان في أساليبه الخداعة المغرية، بحيث يتحرك مع الإنسان خطوة خطوة، ليؤدي به إلى الهلاك في نهاية المطاف، إذ إن الإنسان إذا استغرق في الاندفاع في الطريق بالخطوة الأولى، فإنها تجتذب الخطوة الثانية والثالثة إلى نهاية الطريق، مما يفرض على الإنسان أن يعي الخطة الشيطانية منذ البداية عندما يبدأ حركته في الطريق، فإن الوعي في نقطة الانطلاق هو الذي يحمي الإنسان من نقطة النهاية، لأن الوعي في الحركة الأولى يجتذب وعي الحركة في آخر الطريق.

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. فقد نجد في هذا التركيز على العداوة إشارة إلى طبيعة الحاجز النفسي الذي يجب أن يعيشه الإنسان في كيانه ضد كل إيحاءات الشيطان، ليشير من خلاله الريبة والشك وعدم الثقة، من موقع العداوة المتأصلة، ليفكر طويلاً قبل أن يستسلم لأية كلمة أو فكرة أو حركة مهما كانت ظاهرة الصدق والبساطة والإيمان، ليكتشف طبيعة الزيف أو الإخلاص في داخلها تبعاً لوعي الفكر وذكاء الشعور، ليرفض أو يؤيد من موقع المعاناة والتأمل العميقين.

وجاءت هذه الفقرة في هذه الآية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ لتوجه الإنسان إلى دراسة الطريق جيداً في كل خطواته، لا سيما إذا كان الجو جو الدعوة إلى السلام؛ فإن الشيطان يعرف كيف يسخر الخطوات الساذجة لتسير في الاتجاه الذي يريده، من أجل تخريب خطوات السلام وإضاعتها في مهب الرياح الذاتية والحزبية والعصبية وغير ذلك من الأمور التي تفرق الناس وتشتتهم شيعاً وأحزاباً بمختلف الأسماء والألوان والأشكال، كما ألمحنا إليه في بداية الحديث، الأمر الذي يدفعنا إلى أن نحدد الخط الفاصل بين أهداف الشيطان وأهداف الرحمن، لنكتشف طبيعة الخطوات من خلال اكتشاف طبيعة

الأهداف - وقد تحدثنا بعض الحديث عن هذه الفقرة في ما تقدم من أحاديث هذا التفسير في آية سابقة - .

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ فليس الزلل، عند انسجامكم في خطوات الشيطان، ناشئاً من جهل أو عدم وضوح في الرؤية؛ فقد قامت الحجة عليكم من الله في ما أقامه أمامكم من بينات ودلائل، بما منحكم من عقول، وبما أرسله إليكم من رسالات. وبذلك كان الخطاب إليهم بأن عليهم مواجهة الحقيقة الحاسمة، وهي ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يستطيعون الانتقاص من عزته مهما عملوا وانحرفوا، ﴿حَكِيمٌ﴾ لم يترك الأمور لتسير في أجواء العبث والفوضى؛ بل جعل لكل شيء - ثواباً كان أو عقاباً - حداً لا يتجاوزه في ما يفعل أو يدع.



المنحرفون.. ماذا ينتظرون ليستقيموا؟

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾. ماذا ينتظر هؤلاء المنحرفون الذين زلت بهم القدم ليستقيموا؟! فقد جاءتهم البينات التي تشير إلى خط الاستقامة مما يحقق لهم القناعة لو أرادوها، فماذا يريدون؟ هل ينتظرون العذاب، الذي جاء ذكره هنا على سبيل الكناية، لأن العذاب كان ينزل على الأمم السابقة من خلال النار التي تنزل عليهم من السماء، أو من خلال العواصف والصواعق التي تتمثل فيها كل ألوان العذاب؟؟؟

أما التعبير بإتيان الله، فقد يكون المراد منه إتيان أمره وإرادته، أو إتيانه بلحاظ وجوده الحاضر في الكون، باعتبار أنه المظهر لوجوده، لأن كل الوجود

منبثق منه ومنطلق عنه. أما الملائكة، فهم الذين يحملون العذاب عندما يصدرون به عن أمر الله. هل ينظرون إلا أن يأتيهم العذاب؟! فإذا كانت هذه هي رغبتهم وتفكيرهم، فهل يعرفون النتيجة؟ هل يعتقدون أن إتيان الله والملائكة في ظلل من الغمام — كما يتصورون — يترك مجالاً للانتظار وللمراجعة؟ هل يعرفون أن معنى حدوث ذلك هو وصول الأمر إلى درجة الحسم النهائي الذي لا رجعة فيه؟.

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فُرج منه، وهو المحاسبة وإنزال أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وقيل: معناه وجب العذاب، أي: عذاب الاستئصال، وهذا في الدنيا، كما في مجمع البيان^(١).

﴿وَالِلَّهِ اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في الثواب أو في العقاب، كما كانت الأمور كلها إليه في الابتداء، لأنه المهيمن على الأمر كله في الدنيا والآخرة.

وقد نستوحي من هذه الفقرات المثيرة في الآية، أن القرآن يريد أن يثير أجواء الخوف في داخلهم من خلال هذا التساؤل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

جاء في تفسير الكشاف: «فإن قلت: لِمَ يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؟! ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفزع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث. ومن ثمة اشتد على المتفكرين في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾»^(٢) [الزمر: ٤٧].

(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٣٩.

(٢) تفسير الكشاف، ج: ١، ص: ٣٥٣.

﴿ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فإن كل هذه المفاهيم توحى بالهول، بما يثيره التأكيد على عزة الله واستبدال إتيان إرادة الله بإتيانه بالذات، مما يعمق الشعور بعظمة الموقف ودقته. وهذا من الأساليب المتعارفة في القرآن في كل ما يستعمله من أساليب حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه في موضعه، كما في قوله: ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] وقوله: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] فكأن القرية بكل أحجارها وأشخاصها ومعالها تعيش الحقيقة المتمثلة فيها، حتى كأنه في مواقع السؤال تماماً كأني مظهر عاقل من مظاهر الكون، وكأن القيامة تلتقي بالله والملك الذين يقفون صفوفاً بين يديه. فإن هذا الإيحاء بحضور الله بنفسه يوحى بالهول فوق الهول والرهبة فوق الرهبة، بما لا يمكن أن يستوحيه الإنسان من خلال تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية بالأسلوب العادي البسيط. وإذا حدث مثل هذا الإحساس العميق بالرعب في نفسه، كان الانضباط العملي منسجماً مع المستقبل الحي الذي يريده الله للإنسان بعيداً عن كل انحراف والتواء وتمرد.

وقد تشير الآية إلى سنّة من سنن الله التاريخية في المجتمعات والأمم التي تعيش التمزق الداخلي، والتمرد العملي، والانحراف عن خط الله، فإن الله — بمقتضى سنته في عباده — ينزل العذاب عليهم، مما يعني أن هؤلاء القوم الذين يريدون تمزيق الأمة، ويرفضون الدخول في السلم، سوف يصيبهم العذاب كما أصاب الآخرين.

وقد ذكر بعض المفسرين أن الاستفهام هنا إنكاري، فإن الآية تخاطب الرسول ﷺ وتقول معقبة على الآيات السابقة: أليست كل هذه الدلائل والآيات والأحكام الواضحة كافية لصد الإنسان عن الانزلاق وإنقاذه من براثن عدوه المبين «الشيطان»؟.

هل ينتظرون أن يأتي الله إليهم مع الملائكة في وسط غمام ذي ظل لي طرح عليهم دلائل أوضح، أو ليوأجهاوا الغيب في رؤية حسية تمنحهم وضوح

الرؤية، وهذا محال: ولكن المسألة لو كانت كذلك — أي في استحالة مجيء الله — لما كان هناك وجه لذكر الملائكة، فإنه لا استحالة في إتيانهم، لأنهم أجسام تروح وتجيء، كما أنه لا معنى لكلمة: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ إلا أن يكون المراد به كما قال.

وإن افترضنا بالفرض المحال تحقق هذا الأمر، فما الحاجة إليه، بينما قضي كل شيء ولم يترك أي شيء؟! وهذا خلاف الظاهر، لأنه يقتضي فرضاً جديداً، بينما ظهور الآية يدل على وحدة الموضوع والسياق؛ والله العالم.



سل بني إسرائيل

قد يكون الحديث عن المستقبل في واقع هؤلاء الذين يتحدث الله عنهم بالزلل والانحراف، غير كاف في إبعادهم عن ضلالهم، فربما يكون للحديث عن الماضي — كتجربة حياة للآخرين من موقع التجربة نفسها التي يعيشها هؤلاء — بعض الأثر. فقد كان تاريخ بني إسرائيل ماثلاً أمام الناس في كل ما واجههم من قضايا الكفر والإيمان مع أنبيائهم، وفي كل ما فعلوه ضد مسيرة النبوة في تاريخهم القلق الدامي؛ فلعل هذه الآية أرادت أن تطلب من هؤلاء الناس، بأسلوب الطلب من النبي ﷺ أن يجلسوا إلى بقاياهم ويسألوهم، هل كان هناك نقص في البينات التي أنزلها الله عليهم؟! وليس المراد به الاستفهام، بل المقصود هو تقرير الحقيقة من خلاله، فإن الله قد أرسل إليهم رسلاً كثيرين بالحبج الواضحة، فكذبوا واستكبروا وواجهوا عقاب الله.

ثم تعطي الآية الإيحاء بأن البيئة التي توضح للإنسان طريق الحق، هي من نعم الله التي أنعمها على الإنسان، وأراد منه أن ينسجم معها، ويستجيب لها، ولا يبدلها بالضلال في القول والعمل، فإنه إذا بدّل الحق الذي توحى به الحجة بالباطل الذي لا حجة عليه، فعليه أن ينتظر عقاب الله، فلا يستسلم للاسترخاء بالشعور برحمة الله، فإن الله شديد العقاب في موضع النكال والنقمة، كما هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة. وربما تكون الإشارة إلى بني إسرائيل وتاريخهم المتمرد، لونا من ألوان الحديث عن خطوات الشيطان في إضلاله وفي إغوائه.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هؤلاء الذين يمثلون نموذجاً من الأمم التي تعيش التمزق الروحي والاجتماعي والضلال الديني، ﴿كَمْ أَتَيْنَهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ من البيّنات التي توضح لهم الحقيقة وتقودهم إلى الإيمان؟! وتلك هي النعمة التي ينبغي لهم أن يشكروها، ويفتحوا على الله من خلالها، فلا يكفروها. ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي الْإِيمَانِ﴾ في الإيمان ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ في وحي الله وفي حركة الرسل؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في الدنيا من خلال السنّة التاريخية التي تربط النتيجة بالمقدمات. فالكفر بنعمة الإيمان يجتذب النتائج السلبية على واقع الإنسان، لأنه يبتعد به عن الخط المستقيم الذي يؤدي إلى الخير والسعادة والاطمئنان، وذلك من خلال ما أودعه الله في الحياة الإنسانية من سننه التاريخية التي لا بد للناس من أن يأخذوا بها ليتعرفوا منهج الحياة في ما يقبلون عليه من خير أو شر. وهو شديد العقاب في الآخرة جزاءً على كفرهم بالحق لما جاءهم، وانحرافهم عما يفرضه عليهم في سلوكهم في أنفسهم وفي واقع الناس ومع الله.

الفوقية الزائفة والفوقية الحقيقية

في موقف المؤمنين والكافرين في هذه الحياة ظاهرة بارزة، وهي طغيان الكافرين واستسلامهم للحياة الدنيا بما زين لهم من شهواتها ورغباتها وطيباتها، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بالمستوى الذي يشعرون معه أنهم يملكون الأمر كله فيها، وبذلك تمتلئ قلوبهم بالكبر والشعور بالفوقية تجاه غيرهم من الذين يعيشون الحياة من خلال قيمها ومبادئها وارتباطها بالله... ﴿وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ويتحول هذا الشعور إلى سخرية من المؤمنين في ما يفعلون وما يقولون وما يواجهونه من توضيحات لحساب إيمانهم، وفي ما يقدمونه من جهد كبير في سبيل الله لا يريدون به جزاء ولا شكوراً، فيخيل إليهم أن ذلك كله مظهر سذاجة وغفلة، لأنهم لا يفهمون معنى التضحية في سبيل الله، لأنهم لا يعرفون معنى ثواب الله.

وربما يحدث من خلال ذلك حالة ضعف نفسية لدى المؤمنين لما يواجهونه من واقع الفوقية والدونية بين الكافرين وبينهم؛ فيوحي الله إليهم أن قضية الدونية والفوقية ليست شيئاً مهماً في ما تمثله قيم الحياة، لأن ذلك عرض زائل لا بقاء له، فلا يوجب ارتفاع الإنسان فيه رفعة حقيقية، ولا اتضاعه ضعة حقيقية، بل المهم كله هو الرفعة في الدار الآخرة التي يمنحها الله للمؤمنين، لأنها من الله، وما كان منه، فهو الخير كله والمجد كله. وعلى هذا الأساس، ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فإن الله عندما يجعل المؤمنين فوق الكافرين يوم القيامة، فإنه يجعل لهم كل القيمة الكبرى التي يرتفعون بها إلى أعلى الدرجات، فلا يضعف المؤمنون ولا يستسلمون للشعور أمام الاضطهاد،

بل ينبغي لهم أن يفكروا بما أعد الله لهم من ثواب وعقاب، فإن ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، لأن الأمر بيده في ما يعطي أو يمنع، وهو ولي المؤمنين.

جاء في تفسير الميزان حمل كلمة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على الأعم من الكافرين بالكفر الاصطلاحي، وهو الكفر بالله، أو الكفر المطلق، في مقابل الإيمان المطلق بحيث يُعدّ الانحراف عن كل حقيقة من الحقائق الدينية من تفاصيل العقيدة، أو تغيير أية نعمة دينية، كفراً، وذلك من جهة ظهور كلمة «الكفر» بالستر الذي يعم المعنيين؛ ولذلك اعتبر من مصاديق هذه الآية المؤمنين بالله الذين زينت لهم الحياة الدنيا فدعتهم إلى اتباع هوى النفس وشهواتها، وأنستهم كل حق وحقيقة، فلا يريد الإنسان إلا نيلها، من جاه ومقام ومال وزينة، فلا يلبث دون أن يستخدم كل شيء لأجلها وفي سبيلها، ومن ذلك الدين، فيأخذ الدين، وسيلةً يتوسل بها إلى التميزات والتعينات، فينقلب الدين إلى تميز الزعماء والرؤساء وما يلائم سؤددهم ورئاستهم، وتقرب التبعة والمقلدة المرؤوسين، وما يجلب به تماثل رؤسائهم وساداتهم كما نشاهده في أمتنا اليوم، وكما شاهدناه في بني إسرائيل من قبل^(١).

ونلاحظ على ذلك، أن الكلمة قد تكون ظاهرة في الستر بحسب المعنى اللغوي، ولكنها ظاهرة في السياق القرآني، كما هي في الاستعمالات العرفية، بالكفر المصطلح، ولا سيما في الآيات التي يذكر فيها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مقابل ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ فإنها واضحة الدلالة على الكفر الذي يقابل الإيمان من ناحية المبدأ. وإذا كانت بعض آيات القرآن ظاهرة في ما يشمل الكفر ببعض الحقائق الدينية أو الانحراف العملي عنها، فإنها جاءت، - والله العالم - على سبيل المجاز، لتنزيل الكفر بالحقيقة الدينية الخاصة أو الانحراف السلوكي عنها،

١٤٠ من وحي القرآن ج ٤

منزلة الكفر بالمبدأ؛ لأن مَنْ آمن بشيء، فلا بد من أن يؤمن بكل تفاصيله ويلتزم بكل التزاماته... وهذا مما يحتاج إلى قرينة تدل عليه بشكل خاص أو من خلال السياق العام، وهي غير موجودة في هذه الآية، إن لم يكن الظهور على خلافها.



الآية

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ
فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

* * *

معاني المفردات

- ﴿ أُمَّةٌ ﴾ : الأمة : وردت في القرآن في أكثر من معنى :
 - ١ - الجماعة الذين يرتبطون برابطة واحدة .
 - ٢ - الملة ، أي : العقائد وأصول الشريعة .
 - ٣ - الزمن ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ [هود : ٨] أي مدة معدودة .
 - ٤ - الإمام وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠] أي : إماماً جامعاً لصفات الخير .

والمراد بها هنا، على رأي الكثيرين من المفسرين، الملة، وقيل: إنها الجماعة.

﴿أَلْبَيِّنْتُ﴾: الحجج الظاهرة على حقائق العقيدة.

* * *

الرسالات ودورها في الاختلافات

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كان الناس أمة واحدة في ما يحملون من فكر، فلم تكن لهم أفكار متعددة في شؤون الكون والحياة ليختلفوا فيها؛ ولم تكن لديهم اهتمامات في نظام الحياة وقانونها ليتنازعوا فيها، بل كانوا يعيشون مشاكلهم الخاصة في حاجاتهم في الحياة اليومية؛ فيتنازعون في ما يأخذ بعضهم أو يدعه، أو ما تتصرف به جماعة لا توافقها عليه الجماعة الأخرى، الأمر الذي يؤدي إلى وقوع الاختلافات بينهم، ويوجب انتشار الظلم عندهم، وابتعاد الواقع عن خط العدل. فكانت الرسالات الإلهية التي اتخذت أسلوب التبشير والإنذار، السبيل الوحيد لحل هذه المشاكل والاختلافات، من أجل تركيز الحياة في قضاياها اليومية على قاعدة ثابتة من العدل الإلهي، ليشعر الإنسان بقداسة الحلول وواقعيتها، فيستسلم لها في خضوع واقتناع.

ولكن بعض الناس الذين أوتوا الكتاب بالحق لم يستريحوا إلى ذلك، لأنهم كانوا يعيشون على حساب تلك الخلافات، فنقلوها إلى الكتاب نفسه بما أثاروه من تأويلات وتفسيرات وتطبيقات، مما جعل القضية في حياتهم موضع خلاف فكري في أمر الكتاب، فيأخذ جماعة بتأويل يختلف عما يأخذه الآخرون، ويتعصب فريق لتفسير يختلف عما يتعصب له الفريق الآخر. ولم يكن اختلافهم نتيجة اختلاف في الاجتهادات، في ما تنطلق فيه من سُبُل

الوصول إلى الحق التي قد تتنوع تبعاً لتنوع الثقافة أو النظرة إلى الأمور، بل كان اختلافهم نتيجة البغي والحقد والعداوة في ما بينهم كنتيجة طبيعية للعلاقات المتأزمة الخاضعة لأسباب غير شرعية. وهكذا امتد هؤلاء في خلافاتهم حتى حولوا الساحة البشرية إلى قاعدة للتنازع والتجاذب والخصام.

أما المؤمنون، فلم يستسلموا للخلافات ولم يركنوا إليها، بل عملوا بكل ما لديهم من جهد وقوة على اكتشاف الحق من خلال علاماته التي هداهم الله إليها في ما أنزله من الحق والهدى، فساروا في طريقه، واستسلموا له، وتركوا كل فئات البغي والفساد تتخبط في ضلالها، بعد ما حاولوا القضاء عليها فلم يتمكنوا من ذلك، فأقبلوا على ما هم فيه مما أوكله الله لهم من شؤون المسؤولية في طاعته في ما يتعلق بقضاياهم وقضايا الناس، وذلك هو شأن الله قي هدايته للناس لمن يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم، فإنه يهيئ لهم كل وسائل الهداية من داخل أنفسهم ومن خارجها ليختاروا السير معها من موقع قناعتهم القائمة على الوعي والإيمان والإرادة.

وهكذا ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي على ملة واحدة، أو جماعة واحدة مرتبطة بالفطرة التي لا تنطلق في خط التفاصيل الفكرية المنفتحة على المنهج العملي في الخط الواحد، بل كانت تتحرك من خلال العفوية الطبيعية في حركة الفعل ورد الفعل، فلم يكونوا مهتدين أو ضالين في مصطلح الهدى والضلال في الرسائل، لأنهم لم يكونوا قد التقوا بها؛ فلم تكن هناك نبوات تحمل كتباً سماوية لأن آدم عليه السلام لم يكن صاحب رسالة تفصيلية في نبوته، لكنهم كانوا ضالاً بالمعنى السلبي، بمعنى فقدانهم للهداية الرسالية التفصيلية التي تنظم لهم القواعد والمفاهيم والشرائع والمناهج، وتخطط لهم الوسائل والأهداف، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] فإن المراد من الضلالة هو عدم الاهتمام لفقدان الهدى الرسالي في التفاصيل، لا الضلال بالمعنى الإيجابي المضاد، لأن النبي محمداً ﷺ لم يكن ضالاً بهذا المعنى،

وهذا ما عبّر عنه الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام الذي نقله الطبرسي في مجمع البيان فقال: «وروى أصحابنا عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله، لا مهتدين ولا ضالّاء، فبعث الله النبيين. ويتابع صاحب المجمع هذا الحديث فيعلق عليه قائلاً: وعلى هذا، فالمعنى أنهم كانوا متعبدين بما في عقولهم، غير مهتدين إلى نبوة ولا شريعة، ثم بعث الله النبيين بالشرائع لما علم أن مصالحهم فيها»^(١). وهذا ما عبّر عنه الإمام جعفر الصادق، حسب الرواية المروية عنه، بطريقة أخرى قال: — في ما نقله يعقوب بن شعيب الذي سأله عن قول الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ — كان هذا قبل نوح أمة واحدة عند الله فأرسل الرسل قبل نوح، قلت: أعلى هدى كانوا أم على ضلال؟ قال: بل كانوا ضالّاء، كانوا لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين^(٢).

وفي ضوء ذلك، فإن هذه الحالة الفطرية الطبيعية التي يستوحىها الناس في ما يفكرون به أو ما يعملونه بطريقة ضبابية، لا بد من أن تخلق المشاكل للمجتمع؛ لأن الخلافات الناشئة بين أفرادها من خلال تشابك العلاقات وتعقيد الأوضاع في حاجاتهم المشتركة، وأعمالهم المتنوعة التي تمثل حاجة بعضهم إلى البعض الآخر، واستخدام بعضهم بعضاً، وخلافاتهم المختلفة، لا بد من أن تخلق المشاكل الكثيرة لديهم لفقدان الحلول التفصيلية التي تضع الأمور في نصابها الصحيح، وتفتح المشاكل على الحلول الواقعية؛ الأمر الذي جعل إرسال الأنبياء ضرورة حية لتحقيق التوازن الاجتماعي على قاعدة ربط الدنيا بالآخرة، واعتبار الجزاء في يوم القيامة — في ثوابه وعقابه — حافزاً للناس للانضباط على الخط المستقيم، ليستقيم الهدى على قاعدة ثابتة في منهج الرسالة وفي التطلع إلى اليوم الآخر.

(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٤٣.

(٢) انظر: تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ١٤٥.

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرًا ﴾ المؤمنين الطائعين بالجنة، ﴿ وَمُنْذِرًا ﴾ الكافرين والعاصين بالنار. ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ الذي يعطي للأشياء حدودها، وللقضايا مناهجها، وللمشاكل حلولها، وللمنازعات والخلافات خطوطها التي يتميز فيها الحق عن الباطل، فيكون الكتاب هو المنهج الواضح الذي ينهج بالناس إلى الصواب في أمورهم، والحكم العدل الذي يسير بالمجتمع إلى ساحة العدل في ميزان القضاء، ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الحق قبل إنزال الكتاب، لأنهم كانوا لا يرتكزون في أحكامهم على قاعدة، مما جعلهم لا يقفون على أساس واضح للوصول إلى النتائج الحاسمة التي تحدد لهم الحق والباطل. وهنا يأتي الكتاب بالحق النازل من الله الذي لا يقترب إليه الباطل في عملية اختراق وامتزاج.

وهكذا أراد الله للحق الرسالي الكتابي أن يكون هو المرجح للناس كافة، لأنه الذي قرره الله، وما يقرره الله رب العالمين لا يجوز لأي إنسان أن يناقشه أو يعارضه أو يتمرد عليه. ولكن المشكلة التي واجهت هذا الحق، أن نقاط الضعف الإنساني قد اندفعت إليه لتثير حوله الضباب النفسي الذي يغطي الحقيقة، ويمنع الوضوح، ويبعد بالفهم عن منهجه الصحيح؛ فبدأ الاختلاف في الحق الذي جاء به الكتاب ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ أي: ما اختلف في الحق الذي أنزل الكتاب به إلا الذين آتاهم الله الكتاب وأنزله عليهم ليهدوا به. ولم يكن ذلك عن شبهة أو اجتهاد مختلف، بل كان ذلك — بعد الوضوح الكامل — ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ ﴾ وهي الأدلة والبراهين الواضحة التي لا مجال فيها لإنكار منكر أو الاعتذار معتذر، ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ مما يمثله البغي من خلفيات نفسية سلبية كالحسد والعداوة الذاتية، وحب الرئاسة وغيرها مما يجعل الإنسان يحرف الكلم عن مواضعه، فيؤول ما لا يقبل التأويل، ويثير الشبهة في ما لا مجال فيه للاشتباه، ويجتهد في ما لا موقع فيه للاجتهاد على طريقة الاجتهاد في مقابل النص. وهذا هو شأن المنافقين الذين لم يتعمق

الإيمان في قلوبهم إخلاصاً.

أما المؤمنون المخلصون، فهم موضع عناية الله ورعايته وهدايته، لأنهم اهتدوا بهداه وأخلصوا له الإيمان: ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، فلم تكن المسألة عندهم موضع شبهة، بل كانت تملك الوضوح كله من خلال طبيعة الوضوح في الآية، وفي خط الرسول، وفي حركة الرسالة على صعيد النظرية والتطبيق. وهكذا اكتشفوا الحق في ذلك كله، فلم يقع بينهم أي اختلاف فيه. وتلك هي سنة الله في عباده، فإنه يمنح الذين يعيشون الهدى في وجدانهم، والإخلاص في إيمانهم، والقدرة على الاهتداء التفصيلي في أطافه التي يتفضل بها عليهم وفي الإشرافة التي يفتح بها عقولهم. وهذا ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الصراط الذي يمثل الحق في العقيدة والشريعة والمنهج وفي حركة الحياة.

ويمكن أن نستوحي من هذه الآية عدة نقاط :



التشريع يشمل كل مجالات الحياة

١ - إن الرسائل الإلهية لم تنزل لتعرّف الناس شؤون العبادة والأخلاق العامة، بل نزلت لتكون حكماً بين الناس في ما اختلفوا فيه من أمور الحياة الخاصة والعامة، سواء كان ذلك في نطاق العلاقات الشخصية أو في نطاق العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو غيرها، مما يدحض الفكرة القائلة بأن الدين علاقة شخصية بين العبد وربّه، فلا تتحرك في حياة الناس العامة، بل تنحصر في نطاق الذات وفي أجواء المعبد. فإن طبيعة الدور الذي

تحدث عنه الآية يفرض أن يشمل التشريع كل جوانب الحياة التي تكون مثاراً للاختلاف، وأن يكون لكل مشكلة حلّها العادل الذي تستقيم له الحياة وتخضع له.

* * *

البغي كإِ أساس الاختلاف

٢ — إن الاختلاف الحاصل بين الناس، لا سيما في نطاق الاختلافات الدينية، لم ينطلق — غالباً — من اختلافٍ في الاجتهاد، بل من البغي الذي يعيش في نفوس الناس، ممّا يدفعهم إلى استغلال الغموض في بعض المفاهيم أو المواقف الدينية لخدمة مصالحهم الخاصة، مما يجعل من هذه الخلافات حالة مَرَضِيَّة، لا حالة صحيّة.

* * *

الذين يحبون الحقيقة يفتحون على الحوار

٣ — إن الآية الكريمة تقرر أن الذين يواجهون الحقيقة من موقع إخلاصهم لها، يعملون بكل قوة من أجل الوصول إليها، فيفتحون على أجواء الحوار، ويستمعون لوجهة النظر المعارضة، ويدفعون الفكر في اتجاه التعمق في دراسة الفكرة لمعرفة كل سلبياتها أو إيجابياتها، ويتحملون كل الجهد اللازم من أجل ذلك حتى يصلوا إليها ليرتبطوا بها، وهذا ما عبرت عنه الآية بقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾. فإن طبيعة الإيمان تفرض على الإنسان أن لا يستسلم إلى حالات الاسترخاء الفكرية التي تتقبل الأفكار الموروثة من دون أن تكلف نفسها عناء التعب في إعادة النظر

فيها من موقع الفكر والمعاناة، لأنه يعتبر الإيمان بالحق مسؤولية الإنسان المؤمن بالبحث عن قواعده وآفقه، كما أنه يجد في الفكر الذي يحمله منطلق المسؤولية في كل قناعاته وأفكاره. أما معنى «إذن الله» في الهداية، فلعله السنن الإلهية في أسباب الهداية وعواملها، ممّا إذا أخذ به الإنسان اهتدى إلى الحق، ككل سبب يحصل بحصول مسببه، ولا ينافي ذلك الاختيار، لأن إرادة الإنسان ووعيه وإقباله على الأخذ بهذه العوامل، هو أحد مظاهر هذه السنن الإلهية في عالم الهداية.

وفي ضوء ذلك، يمكننا أن نستوحي الفكرة التالية، وهي أن استمرار الخلافات يرجع إلى ابتعاد الناس عن الأخذ بأسباب الهداية، والتزامهم موقف التزمّت والتعصب في ما يعتقدون، وعدم إقبالهم على أجواء الحوار لمصلحة الحق، الأمر الذي يمثل حاجزاً نفسياً ضد الالتقاء بالحق، لأنّ للحقّ دلائل وعلامات لا بد للإنسان من أن يدعّن لها إذا التقى بها أو بحث عنها في الطريق. ولا يمكن للإنسان أن يدعي عدم التمكن من الوصول إليه من موقع فقدان الوسائل، بل لا بد له من أن يبحث عن ذلك في تجميده لطاقاته عن الحركة، وفي إغفال وعيه عن البحث والدخول في مجالات الحوار، فقد تكفل الله بهداية الذين يتحركون في خط الهداية من خلال وسائلها الطبيعية.



مع صاحب الميزان في تفسير الاختلاف

قال صاحب الميزان في تفسير الآية: «الآية تبين السبب في أصل تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنسانيّ به، وسبب وقوع الاختلاف فيه ببيان أن الإنسان — وهو نوع مفلّور على الاجتماع والتعاون — كان في أول اجتماعه أمة واحدة، ثم ظهر فيه — بحسب الفطرة — الاختلاف في اقتناء المزايا الحيوية،

فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة، والمشاجرات في لوازم الحياة. فألبست القوانين الموضوعية لباس الدين، وشُفِّعت بالتبشير والإنذار بالثواب والعقاب، وأصلحت بالعبادات المندوبة إليها ببعث النبيين وإرسال المرسلين.

ثم اختلفوا في معارف الدين أو أمور المبدأ والمعاد، فاختل بذلك أمر الوحدة الدينية، وظهرت الشعوب والأحزاب. وتبع ذلك الاختلاف في غيره، ولم يكن هذا الاختلاف الثاني إلا بغياً من الذين أوتوا الكتاب، وظلماً وعتواً منهم بعدما تبين لهم أصوله ومعارفه، وتمت عليهم الحجة.

فالاختلاف اختلافان: اختلاف في أمر الدين مستند إلى بغى الباغين دون فطرتهم وغريزتهم، واختلاف في أمر الدنيا وهو فطري وسببٌ لتشريع الدين. ثم هدى الله — سبحانه — المؤمنين إلى الحق المختلف فيه بإذنه^(١).

ويفسر السيد الطباطبائي الاختلاف الأول على أنه كان في شؤون الدنيا على أساس اقتناء المزايا الحيوية في ذاته، من خلال حركة القوة والضعف التي تقود إلى الاختلاف والانحراف عما يقتضيه الاجتماع الصالح من العدل الاجتماعي، فيستفيد القوي من الضعيف أكثر مما يفيد، وينتفع الغالب من المغلوب من غير أن ينفعه، ويقابله الضعيف المغلوب ما دام ضعيفاً مغلوباً بالحيلة والمكيدة والخديعة، فإذا قوي وغلب قابل ظالمه بأشد الانتقام، فكان بروز الاختلاف مؤدياً إلى الهرج والمرج وداعياً إلى هلاك الإنسانية، وفناء النظرة وبطلان السعادة.

وخلاصة ذلك، أن المراد من الاختلاف الأول هو الاختلاف الواقعي، بينما يمثل الاختلاف الثاني الاختلاف الفكري أو ما يشبه ذلك، وأن الأول تفرضه طبيعة حركة الفطرة في انفتاح الإنسان على ذاتياته، بينما ينطلق الثاني

(١) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ١١٣.

من البغي الذي يختلف فيه الناس حول الكتاب .

ونلاحظ على ذلك، أن اختلاف الناس في الواقع في موازين القوة والضعف لم يكن منطلقاً من الغريزة العمياء، بل من القيم المتفق عليها في ما بينهم، والمفاهيم المزروعة في داخلهم، الناشئة من الضبابية الفكرية في إحياءات الفطرة، ومن التنوع في التجربة الإنسانية في هذا الموقع أو ذاك. فهناك فريق من الناس يتحرك في حياته من ناحية القيمة الأخلاقية القائمة على احترام الإنسان وحقه في الحياة وفي الحصول على النتائج الإيجابية من خلال جهده، وهناك فريق آخر يرى ضرورة حصول الناس على النتائج الإيجابية أو السلبية بشكل متساوٍ وإن كان جهدهم مختلفاً، وهناك الناس الذين لا يؤمنون بالله أو يشركون بعبادته غيره، وهناك الناس الذين يلتزمون الخط الإيماني التوحيدي.

وهذا ما لاحظناه في قصة قابيل وهابيل التي سبقت عهد النبوات الكتابية، التي يمكن أن تكون نبوة نوح هي البداية لها، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]. فقد نلاحظ أن هابيل كان يحمل الفكرة الإيمانية المنفتحة على احترام حياة الآخرين وإن أساءوا إليه في وداعة الروح وسماحة الوجدان، بينما نجد أن قابيل يمثل الإنسان العدواني الذي لا ينظر إلى الأشياء نظرة متوازنة، بل ينظر إليها من ناحية ذاته، لأن القيمة عنده هي قيمة الذات، فهو لا يريد لأخيه أن يتميز عنه ولو كان الأمر بعيداً عن اختياره لارتباطه بالله في تمييزه عن أخيه.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ

تَبَوَّأَ يَأْتِمِي وَلِئَمَّكَ فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَتَانِ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

فإننا نستوحي من هذه الآيات أن قابيل وهابيل كانا يعيشان معاً المفاهيم الأخلاقية التي تدفعهما إلى احترام الإنسان في كل واحد منهما من قبل الآخر، ولكن قابيل عاش الصدمة القاسية في عدم قبول قربانه الذي لم يكن لأخيه يد فيه، ولكن الحسد القاتل دفعه إلى البغي على أخيه فقتله بغياً وحسداً، تماماً كما هي المسألة في الذين اختلفوا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ ﴾ فليس هناك فرق بين الأولين والآخرين في هذه المسألة، لا سيما إذا عرفنا أن آدم الذي كان في موقع النبوة - على الرأي المشهور - لا بد من أن يكون قد بلغ أولاده العناوين الكبرى للقيم الروحية الأخلاقية التي تمثل الخط الإلهي الذي يقود إلى رضوانه ويؤدي إلى دخول جنته، لا سيما بعد التجربة الصعبة التي خاضها مع إبليس في إخراجهم من الجنة وإنزاله إلى الأرض، وإعلان الله له ولزوجه ولإبليس في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩].

فإننا نفهم، من هاتين الآيتين أن الله تحدث لآدم وحواء عن النتائج الإيجابية أو السلبية التي يحصل عليها المؤمنون والكافرون في دخول الجنة للمهتدين ودخول النار للضالين الكافرين، الأمر الذي يوحي بأن آدم قد عاش المسؤولية المنفتحة على البرنامج العملي الذي لا بد من أن يأخذ به في سلوكه المستقبلي في الدنيا مع ذريته، ومن الطبيعي أن يكون قد تلقى من ربه كلمات وكلمات تحدّد له الخط المستقيم حتى لا يعيش التجربة الضائعة من جديد في

الأرض على الطريقة التي عاشها في الجنة.

وإذا كان الأمر جارياً في هذا المجرى، فلا بد من أن تكون ذريته قد انفتحت على قيم الخير وقيم الشر، وخط الإيمان في طريق الاستقامة، وطريق الكفر في خط الانحراف؛ فسقط بعضهم كقبايل واستقام بعضهم كهابيل وشيث. ولا بد من أن يكون ذلك قد انعكس على الواقع الاجتماعي المتطور في وجود نظام متحرك محدود في حجم طبيعته المحدودة، ولكن الفرق بين آدم ومن بعده، أنه كان رسولاً من دون كتاب، لأن تجربة الواقع من حوله لم تكن بحاجة إلى المزيد من التفاصيل، بينما كان لبعض الأنبياء كتاب لحاجة البشرية في عهده إلى النظام الكبير.

وفي ضوء ذلك، نعرف أن الاختلاف الأول كان على الحق في خلافهم حوله، بينما كان الاختلاف الثاني في فهم الكتاب وتنويع الخطوط من خلاله، في الوقت الذي كانت فيه مفردات الحياة في البداية والنهاية خاضعة للخطوط التي ينطلق بها الحق في الرسالة الأولى والرسالات التالية؛ والله العالم.

* * *

مع العلامة الطباطبائي في الاستدلال بالآية على عصمة الأنبياء

جاء في تفسير الميزان في بحث عصمة الأنبياء: «أما العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة، فبدل عليه قوله تعالى في الآية: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فإنه ظاهر في أن الله سبحانه إنما بعثهم بالتبشير

والإنذار وإنزال الكتاب - وهذا هو الوحي - ليعينوا للناس الحق في الاعتقاد والحق في العمل. وبعبارة أخرى، لهداية الناس إلى حق الاعتقاد وحق العمل، وهذا هو غرضه سبحانه في بعثهم، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، فبين أنه لا يضل في فعله ولا يخطيء في شأنه. فإذا أراد شيئاً فإنما يريده من طريقه الموصل إليه من غير خطأ، وإذا سلك بفعل إلى غاية، فلا يضل في سلوكه، وكيف لا، وييده الخلق والأمر، وله الملك والحكم، وقد بعث الأنبياء بالوحي إليهم وتفهمهم معارف الدين، وبالرسالة لتبليغها للناس. وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقال أيضاً: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]»^(١).

ونلاحظ على ذلك، أن ما ذكره لا يلزم ما ذكره من العصمة عن الخطأ في التبليغ، فإن هداية الناس إلى حق الاعتقاد وحق العمل، كما أن الحديث عن «أن الله إذا أراد شيئاً فإنما يريده من طريقه الموصل إليه من غير خطأ وإذا سلك بفعل إلى غاية، فلا يضل في سلوكه» لا يقتضي إلا أن يصل الوحي إلى الناس لهدايتهم كاملاً غير منقوص، وهذا ما يؤكد وصوله عن طريقه من غير خطأ، ولا ملازمة بين ذلك وبين العصمة، فإن من الممكن - من الناحية التجريدية - أن يخطيء النبي في تبليغ آية أو ينساها، في وقت معين، ليصحح ذلك ويصوبه بعد ذلك، لتأخذ الآية صيغتها الكاملة الصحيحة. وإذا قيل: إن احتمال الخطأ والنسيان إذا كان وارداً في الحالة الأولى، فهو موجود في الحالة الثانية، مما يؤدي إلى فقدان الأساس الذي يحصل من خلاله الإيمان بواقع الآية في الوحي المنزل، فلا يصير الإنسان إلى يقين بذلك؟! فإن الجواب هو: من الممكن تقديم القرائن القطعية في الحالة الثانية، التي تؤدي إلى اليقين، تماماً كما قيل في مسألة سهو النبي، في رأي الشيخ الصدوق على أساس بعض الروايات التي أوضح النبي فيها القضية من دون لبس بالطريقة التي اقتنع فيها

الناس بأن المسألة كانت سهواً — كأى سهوٍ آخر مما يحدث للناس — لو صحت الرواية.

إن قضية الغرض الإلهي في وصول الوحي إلى الناس، لا يستلزم إلا الوصول في نهاية المطاف من غير خطأ، ولكن لا مانع من حدوث بعض الحالات التي يقع فيها الخطأ، لا يستمر، بل لينقلب إلى صواب تؤكده القرائن القطعية التي توحى بالحقيقة في وجدان الإنسان. ويتابع العلامة الطباطبائي حديثه في العصمة ليشمل — في استيحاء هذه الآية مع آية ثانية — العصمة عن المعصية في العمل فيقول: «يمكن تتميم دلالتهما على العصمة من المعصية أيضاً بأن الفعل دال كالقول عند العقلاء. فالفاعل لفعل يدل بفعله على أنه يراه حسناً جائزاً كما لو قال: إن الفعل الفلاني حسن جائز، فلو تحققت معصية من النبي وهو يأمر بخلافها، لكان ذلك تناقضاً منه، فإن فعله يناقض حينئذ قوله، فيكون حينئذ مبلغاً لكلا المتناقضين. وليس تبليغ المتناقضين بتبليغ للحق، فإن المخبر بالمتناقضين لم يخبر بالحق لكون كل منهما مبطلاً للآخر؛ فعصمة النبي في تبليغ رسالته لا تتم إلا مع عصمته عن المعصية وصونه عن المخالفة كما لا يخفى»^(١).

ونلاحظ على ذلك أن ما ذكره من دلالة الفعل على نهج دلالة القول صحيح — من ناحية المبدأ — وذلك في الحالة العادية الطبيعية للتعبير الإنساني بواسطة النقل؛ ولكن قد ينطلق الفعل من الإنسان على أساس الواقع العملي الذي قد يتحرك فيه من خلال أوضاعه الشخصية الخاضعة لبعض النزوات الطارئة بفعل الضغوط الداخلية أو الخارجية، الحسية والمعنوية، فيتراجع عنها لمصلحة المبدأ الذي كان قد بينه للناس من موقع الوحي أو نحوه، تماماً كما هي الحالة الجارية في سلوك المصلحين والرساليين — حتى الأتقياء منهم — في

انحراف خطواتهم العملية عن الخط الرسالي أو الإصلاحى أو التقوائى بشكل طارئ لا يتحول إلى إصرار، على هدى ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْذَّيْبُ أَنْتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠١]. أو على ما حدثنا الله به عن آدم عليه السلام في معصيته، ولو كان ذلك على طريقة عصيان الأمر الإرشادي، ثم توبته بعد ذلك؛ فإن مثل هذا لا يوحى بالتناقض، لأن الفعل لم يتحرك في أجواء الدلالة التعبيرية عن الفكرة التي عبر عنها القول، لأن مقامه ليس هذا المقام. وفي هذه الحال ليست هناك طريقة عقلانية في موضوع الدلالة.

إننا نتصور أن هذا الأسلوب الاستدلالي في تقرير العصمة في القول والفعل لا يملك القوة في الاستدلال من خلال المناقشات المذكورة وغيرها، فلا بد من اللجوء إلى أدلة أخرى قد يكتشف الإنسان فيها أن النبوة حدث غير عادي في معنى الرسالة، لأنها حركة إلهية في هداية البشرية إلى الله وتغيير الحياة على صورة أخلاق الله؛ مما يفرض إنساناً يعيش الرسالة في عمقه الروحي، وتأمله الفكري، وأخلاقيته العظيمة في صدقه مع ربه ونفسه ومع الناس، وأمانته في ماله ودينه ومسؤوليته وإنسانيته، بحيث تكون الرسالة التي يحملها منسجمة مع الروح التي يتجسد فيها، لتكون الرسالة جسداً يتحرك، ويكون الجسد رسالة تنفتح على الله وعلى الإنسان والحياة في اتجاه التغيير.

إن هذا الدور التغييري، الذي يستهدف تغيير الإنسان بالكلمة والقودة، بحاجة إلى الإنسان — الصدمة الذي يصدم الواقع الفاسد بكل قوة، الأمر الذي يفتح فيه اللطف الإلهي على إعطاء المزيد من القوة الروحية والأخلاقية والفكرية والعصمة العملية لهذا الإنسان، سواء أكان ذلك بالطريقة التي يبقى فيها عنصر الاختيار له لسلوك الاتجاه المضاد أم كان بطريقة أخرى، لا يبقى فيها له ذلك العنصر، لأن القضية هي حاجة البشرية إليه، أما قضية الثواب وعلاقتها بالاختيار، فهي مسألة لا تعقيد فيها، لأنها — في جميع الأحوال —

تفضلُ من الله، حتى رأينا البعض يتحدث عن الاستحقاق بالتفضل .

إننا نعتقد أن العصمة ترتبط في طبيعتها بالدور الذي تتمثل فيه النبوة في حركة الإنسان والحياة، ولذلك لا بد من دراسة الموضوع بطريقة أكثر عمقاً مما تداوله علماء الكلام الذي رأينا بعض ملامحه في تفسير الميزان .



الآية

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿الْبَأْسَاءُ﴾: الشدة والمكروه. قال الراغب: البؤس والبأس والبأساء: الشدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكابة^(١). وقال الطبرسي: البأساء نقيض النعماء، والضراء نقيض السراء^(٢).

﴿وَالضَّرَاءُ﴾: يقابل السراء والنعماء، والضّرّ يقابل النفع، وهو سوء الحال إما في النفس أو البدن أو حالة ظاهرة في قلة حال أو جاه. قال العلامة الطباطبائي، في الفرق بين البأساء والضراء: البأساء هو الشدة المتوجهة إلى

(١) مفردات الراغب، ص: ٣٢.

(٢) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٤٦.

الإنسان في خارج نفسه كالمال والجاه والأهل والأمن الذي يحتاج إليه في حياته، والضراء هي الشدة التي تصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل والمرض^(١).

وقال بعضهم: إن البأساء هي البؤس الثابت من داخله، من الشدائد في العيش والابتلاءات النفسانية، والضراء: الحادثة من الخارج.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾: حُرِّكُوا وَأُزْعِجُوا إِزْعَاجاً شَدِيداً شَبِيهاً بِالزَّلْزَلَةِ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْأَهْوَالِ. وأصل الزلزلة: من زَلَّ، كررت اللفظة للدلالة على التكرار.



الجنة لا تنال بالاسترخاء أو بالتمنيات

هذه الآية من آيات الدعوة الموجهة إلى العاملين في سبيل الله، الذين قد تضغط عليهم تحديات الكفر والانحراف، فيتراجعون، أو ينهزمون، أو يضعفون أمامها، أو يسقطون تحت عوامل اليأس. وربما كان جو الآية يوحي بأن شيئاً من هذا القبيل قد حدث لبعض المسلمين الأولين في صدر الدعوة، أو في ما بعد ذلك في الأجواء التي كان يخوض فيها الإسلام معركته المسلحة مع الشرك، فربما يكون قد صدر من بعض المسلمين ضعف أو تدمير، وربما كانوا يفكرون بإمكانية الحصول على الجنة من خلال الأعمال الخفيفة التي تدخل في نطاق العبادات أو ما أشبهها، مما لا يكلف الإنسان تضحية كبيرة في النفس والمال... فكانت هذه الآية توجيهاً حاسماً يضع القضية في نطاقها الطبيعي من حركة العقيدة في الحياة، فإن الجنة لا تنال بالتمنيات، ولا تعطى بحالات الاسترخاء الإيماني الذي يعيش أحلام الجنة من دون أن يعمل لها،

وإن الانتصارات في ساحة التحدي لا بد من أن تنطلق من السنن الطبيعية لحركة الصراع الإنساني في قضايا النصر والهزيمة، ومن الشروط الموضوعية للنتائج الإيجابية في هذه الأمور، ليتعرفوا أن مجرد الانتماء إلى الإسلام الذي هو دين الله لا يكفي في تحقيق النصر لهم ما لم يأخذوا بأسباب النصر التي يفتح الله من خلالها أوطافه، فلا يمكن أن يكونوا استثناءً من سنن الله الثابتة في الكون.

ولكن الجنة تنال بالمواقف الصعبة التي يواجه فيها المؤمن القوي الطاغية. وقد جاءت هذه الآية لتعبر للمسلمين عن هذه الفكرة، من خلال المثل التاريخي للرسالات السابقة التي عاش فيها المؤمنون الأولون مع أنبيائهم التحديات الصعبة، التي جعلتهم يواجهون حالة الزلزال النفسي والروحي، وربما الزلزال الفكري، من خلال صعوبة ما واجهوه من مشاكل وتحديات؛ فقد ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ مسّت أنفسهم وأموالهم ومصالحتهم العامة والخاصة، وحاولت مجتمعات الكفر لديهم أن تضعفهم وتقهرهم، فاستخدمت كل الأساليب التعسفية في مجال القهر الجسدي والروحي والفكري حتى تهز قناعاتهم، وتحطم موافقهم، وترجعهم إلى الحالة التي كانوا عليها قبل الإيمان..

وكان الزلزال، فقد بدأ الرسول والذين آمنوا معه يتساءلون: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟﴾ فقد وعدنا الله بالنصر على قوى الكفر. ولم يكن هذا التساؤل منطلقاً من حالة شك في وعد الله، بل الظاهر أنه منطلق من حالة استعجال له وترقب لتنفيذه، وتساؤل عن مواعده بعد أن أصبح الموقف شبه يائس من الوجهة الواقعية. فالكفر في موقع القوة المتنامية المتصاعدة، والإيمان في موقع الضعف المستمر المتزايد، والأوضاع المحيطة بالواقع لا تبعث على التفاؤل الكبير، فلم يبق لهم إلا الغيب المودع عند الله. ومن خلال ذلك، نفهم أن الزلزال يتحرك من طبيعة الظروف التي تتحفز لتثير في النفس الشعور السلبي

الخائف الفرع، لا من ضعف الإيمان. ولذلك لم يعاتبهم الله على ذلك، ولم ينقص من قدرهم. بل ربما نستوحي من الآية أنها تؤكد على القيمة الإيمانية لموقفهم الجهادي الصعب الذي جعلهم في موقع الزلزال الداخلي، ولذا وعدهم الله بالنصر القريب كدلالة على سلامة عملهم وتقييم جهادهم.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ هل ظننتم أيها المسلمون، الذين تتحركون في دروب الدعوة، وتعيشون أمام ساحات التحدي – والاستفهام استنكاري أو تعجبي – ﴿ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ التي تتمنونها كهدف لكل نشاطاتكم وحركتكم في الحياة، لتكون النهاية السعيدة للمصير الذي ينتظره الجميع؟! ولكن هل تنال الجنة بالتمنيات، والأحلام الطائرة في الهواء، الغارقة في الضباب أو بالاسترخاء الذاتي الذي يبتعد فيه الإنسان عن أي جهد فكري أو جسدي، مما يتحرك فيه الناس لتحقيق الأهداف الكبرى في الحياة، أو بالأعمال العبادية التقليدية التي لا تحمل أية حرارة روحية، وأي ابتهاج نفسي، وأي انفتاح على الله في الأفق الممتد في اللانهاية من أجل القرب منه في رحاب القدس والرضوان، ولا تكلف أي جهد أو أية خسارة من مزاج الإنسان وطريقته في الحياة؟!

إن الآية تختزن الرفض لذلك، والاستنكار أو التعجب من هذا اللون من التفكير، أو الفهم لمسألة الجنة في علاقتها بحركة الإنسان في الدنيا، لأن الجنة – كما جاء في الحديث – محفوفة بالمكاره والصبر^(١)، مما يجعلها نتيجة للحركة المتنوعة الخطوات، المتعددة الأبعاد، القاسية في آلامها، الشديدة في أحزانها، الضاغطة في زلزالها، الهائلة في مخاوفها، بحيث يعيش الإنسان في توتر دائم من خلال التحديات الصعبة في ساحة الصراع بما يعانيه من خطورة الجهاد النفسي والعسكري ونحوه، بحيث يكون إنسان الجهاد والتحدي والصراع الذي يفتح الحياة على آفاق النصر، فلا مجال لكم أيها

(١) البحار، م: ٢٤، ج: ٦٨، ص: ٢٨٢، باب: ٦٢، ورواية: ٤.

المسلمون أن تتحدثوا عن دخول الجنة قبل أن تعرفوا الثمن الكبير لها .

﴿وَلَمَّا يَأْتِيَكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من أتباع الرسالات الذين واجهوا الكافرين بكل قوة، وحاربوا المستكبرين بكل ثبات، فكانت النتيجة الصعبة أنهم ﴿مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾، وواجهتهم المشاكل الصعبة، والآلام الحادة، والأوضاع القاسية في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وأحوالهم العامة والخاصة، ومواقفهم الصغيرة والكبيرة... ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ ففقدوا الثبات في مواقفهم وأوضاعهم، بحيث عاشوا الزلزال النفسي الذي ينطلق من حالة نفسية صعبة تثير القلق في الداخل لا شعورياً، وتصنع الزلزال الشعوري من دون اختيار .

وبدأ اليأس يدب في النفوس، والخوف يزحف إلى القلوب حتى في مستوى القاعدة والقمة: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أمام هذا الزلزال النفسي الذي لم يتحول إلى زلزال فكري لأن الرسالة في وعي الرسول، والإيمان في وجدان المؤمنين، لا يزالان منفتحين على الله؛ ولكن طول الأمد وقسوة البلاء أطلقا الصرخة التي تستعجل النتائج وتترقب النصر: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾؟ في سؤال ابتهالي يتطلع فيه الرسول والمؤمنون إلى الله في عالم الغيب الذي لا يدركون تفاصيله، ويأتي الجواب في إحساسهم أو في وحي الله: ﴿إِنَّا نَصْرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ ولكن هناك شروطاً موضوعية، وسنناً تاريخية، وقوانين اجتماعية مما أودعه الله في نظام حركة المجتمعات الإنسانية... لا بد من توفرها في فعلية النصر الذي بدأت ملامحه تقترب من الواقع كله .

وهكذا ينبغي لكم — أيها المسلمون — أن تواجهوا الموقف على مستوى الصبر في الواقع الصعب والأمل بنصر الله في المستقبل القريب .

وقفة أمام مفهوم النصر القريب

وقد نحتاج إلى أن نقف بعض الوقفات أمام مفهوم النصر القريب الذي نتحدث عنه الآية، هل هو النصر الكامل الذي يستقطب كل جوانب الموقف، أو هو النصر الذي تسمح به الظروف الموضوعية المتوفرة في الساحة، ولو كان ذلك في مستوى المرحلة؟! قد لا نستطيع استيعاء المعنى الدقيق لذلك من الآية نفسها، لأننا لا نعرف طبيعة النصر الذي كان ينشده الرسول والمؤمنون، هل هو نصر الغلبة ليتمثل في هزيمة الكافرين أمام المؤمنين في موقع الصراع بين قوة الكفر وقوة الإيمان؛ أو هو النصر بإنزال العذاب على الكافرين ليتمثل في زوالهم عن الساحة بواسطة العذاب المنتزل عليهم من الله؟! وربما كان المعنى الثاني هو الأقرب، لأن ذلك هو شأن الأمم التي كانت تكفر بالله، وتتحدى رسله، وتسخر برسالاته، وتتنكر لها، فيرسل الله عليها العذاب في نهاية الأمر، كما فعله في قوم صالح وهود ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم، وبذلك يكون النصر قائماً على أساس الانتقام من القوم الكافرين. وهناك عدة شواهد على إطلاق كلمة النصر على حالة العذاب الذي ينزله الله على الكافرين انتصاراً لمن كذب من الأنبياء. وفي ضوء ذلك، يكون المراد من قرب النصر، القرب الزماني الذي طال انتظاره عليهم.

وربما يكون النصر المراد نصر الغلبة، لما قد توحيه من وجود قوة متحفزة للصراع، في ما توحيه كلمة: ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، وفي هذه الحال يمكن أن يكون القرب في النصر خاضعاً للجانب المرحلي في نطاق النصر الجزئي، الذي قد يتمثل في زيادة قوة المؤمنين من خلال الفئات التي تدخل في الإيمان، أو في هزيمة بعض المواقع القوية للكافرين أمام المؤمنين، أو في غير ذلك من الموارد. وليس من الضروري أن يكون النصر حاسماً كلياً،

لأن الظاهر أن الموقف كان جامداً في مواقعه الأولى في جانب المؤمنين، حتى انتهى إلى حالة الاستغاثة اليائسة أو القربة من اليأس، بحيث كانت القضية هي أن يتحرك الموقف إلى ساحل الأمل. أما حدود ذلك، فهي الظروف الموضوعية المحيطة بالقضية في حركة الواقع في ما يتوفر من أدوات النصر من المكان والزمان والأشخاص والأوضاع العامة القادمة من الواقع الإنساني العام...

وهذا ما ينبغي لنا أن نستوحيه في ما ننتظره من النصر في مواقنا المتحركة للعمل الإسلامي، فقد نشعر في بعض المراحل بالجمود المسيطر على الساحة من خلال الضغوط التي تتوالى على الساحة، ومن خلال الضعف الذي تخضع له الطاقات الفاعلة، مما قد يوحي باليأس أو بما يشبه اليأس... ويتطلع العاملون إلى المستقبل يستشرفون فيه بعض بوادر الأمل، ويبتهلون إلى الله يطلبون منه أن يحقق لهم النصر، ثم تلوح في الأفق بارقة أمل تجرح حاجر الظلام، وذلك بانطلاق بعض الخطوات المتقدمة إلى الأمام، وبانتقال بعض الفئات من جانب الكفر إلى جانب الإيمان، أو بالحصول على مواقع جديدة في نطاق الزمان والمكان والظروف الخاصة والعامة... ويجد بعض العاملين أن الموقف لا يزال بعيداً عن النصر – وإن حصل على بعض جوانبه – ويجد البعض الآخر أن الموقف موقف نصر، ولكنه النصر المتحرك الذي يأخذ من كل مرحلة قوة جديدة للمرحلة الأخرى. ويرى هذا البعض أن قضية النصر في الدعوة تختلف عن قضية النصر في الموارد الأخرى، لأن قضية الدعوة تتناول داخل الإنسان في فكره وشعوره، كما تتناول الجانب الخارجي من حياته؛ ولذا فإنها قضية متحركة في أكثر من اتجاه تبعاً للحركة المتنوعة التي تتمثل في كيان الإنسان، مما يقتضينا السير في هذا المجال خطوة خطوة، على النهج الذي سار عليه الأنبياء في دعوتهم وجهادهم...

وفي ضوء ذلك، تتحول المواقف المتقدمة إلى انتصارات، ويتمثل

قرب النصر في قرب انفتاح الطريق على خطوات النصر ولو كان الطريق طويلاً. أما قضية النصر في الموارد الأخرى، فإنها قد تمثل الحسم في ما تتمثل فيه المواقع الذاتية في أرض نستولي عليها، أو في موقف نتحكم فيه، أو في شخص نهزمه، أو في غير ذلك من الأمور التي تتجمد في حدود الزمان والمكان.

ولعل هذا التفكير هو الأقرب في ما تحتاجه حركة العمل الإسلامي الآن، فإن التخطيط الدقيق يفرض علينا انتظار الهدف البعيد من خلال الوسائل العملية الحاضرة الموجودة في أيدينا الآن والتي نحاول تحريكها من أجل صنع أدوات جديدة للمستقبل في شعور عميق بالانتصارات المتلاحقة في كل مرحلة من مراحل الطريق، وفي وعي كبير للحاجة إلى التوقف بعض الوقت في بعض المراحل من أجل استجماع قوة مشتتة، أو تقوية طاقة ضعيفة، أو انتظار طاقة قادمة، من دون أي شعور سلبي بالهزيمة النفسية، حتى في حالة الوقوع تحت ضغط الهزيمة في مرحلة معينة.

إن الإيحاء الدائم بأن أية خطوة متقدمة تمثل نصراً جديداً في حجم تلك الخطوة، يملأ العاملين بالمشاعر الإيجابية القوية المتعاملة مع المستقبل دائماً. وذلك هو سبيل الدعوة المتطلعة دائماً إلى الله في شعور عميق بالإيمان، بأن ﴿الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وذلك ما نستوحيه من النداء الإلهي: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ بعيداً عما قد يستفيد البعض من القرب الزماني للنصر على مستوى الهدف الكبير، ومنسجماً مع طبيعة العمل من القرب الزماني للنصر على مستوى المرحلة المتحركة في اتجاه هذا الهدف على أسس واقعية موضوعية حاسمة.

وقد يكون من الضروري أن نتوقف طويلاً أمام هذه الآية، لنعرف أنها تريد أن تهزّ حركتنا في اتجاه الصبر الإيماني الإيجابي والصمود القوي أمام صعوبة التحدي، لتعرفنا بأن علينا أن نصبر كما صبروا، ونتحرك كما تحركوا،

ونتطلع إلى الله في وعي بأنه سيمنحنا النصر إن عاجلاً أو آجلاً من خلال مواقعنا القادمة إلى خط النصر وأنه ولي النصر، أولاً وأخيراً، فنحصل على الجنة كما حصلوا عليها في أجواء لطفه ورضوانه.

وعلى هدي ذلك، يمكننا أن نشر الآية في حياتنا، عندما نتطلع إلى المسلمين الأولين في صدر الدعوة الإسلامية عندما ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ في أكثر من موقف، لا سيما في ما حدثنا عنه القرآن في سورة الأحزاب: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١١-١٢] ولكنهم انتصروا على كل نقاط الضعف ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] في نهاية المطاف.

قد يكون من الضروري أن نثيرها في حياتنا وإن لم تكن نازلة فيهم، لأنها توحى بذلك من خلال الفكرة التي تعتبر المناسبة القرآنية في النزول نموذجاً للفكرة وليست جامدة في نطاق الزمان والمكان والأشخاص. ولهذا فإنها تجري مجرى الليل والنهار في حركة دائمة واستيعاب شامل.

إن علينا أن نشعر دائماً بالحقيقة الإسلامية التالية: وهي أن الإيمان والإسلام يمثلان خطأ واحداً يحكم الحياة في بداياتها ونهاياتها على أساس خصوصيات المراحل الواقعة على منازل الطريق، وأن المؤمنين الآن يمثلون الامتداد للمؤمنين في الماضي، بما يواجهونه من تحديات وعقبات ومتاعب، وما يتحملونه من البأساء والضراء، وما يتجهون إليه من أهداف، فهم يتألمون في المواقع التي تألم فيها الأولون، ويجاهدون في المجالات التي جاهدوا فيها، ويتحملون قسوة الضغوط بالمستوى الذي تحمّله أولئك، ليظل التاريخ في حركة دائمة يدفع فيها الماضي القضية إلى الحاضر، ويقودها الحاضر بكل أمانة نحو المستقبل، في جهاد وإيمان، وصبر، ونداء دائم يقاوم كل نوازع الزلزال النفسي في داخل المسيرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا
فَاَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ ليحييء الجواب الحاسم من
قَبْلِ اللَّهِ، فيزرع الأمل في النفوس، ويحيي القوة في المواقف: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ
قَرِيبٌ﴾.



الآية

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝٢١٥

* * *

معاني المفردات

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ : السؤال: طلب الجواب بصيغة مخصوصة من الكلام.

﴿يُنْفِقُونَ﴾ : النفقة: إخراج الشيء من الملك ببيع أو هبة أو صلة ونحو ذلك، وقد غلب في العرف على إخراج ما كان من المال من عين أو ورق.

﴿فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ : الأب والأم، والجد والجدة وإن علوا.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ : أرحام المعطي.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ : اليتيم: كل من لا أب له مع صغره.

﴿وَابْنِ السَّيْلِ﴾ : المنقطع به في السفر .

* * *

مناسبة النزول

جاء في الدر المنثور للسيوطي عن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن، منهن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَمَنِ﴾ [البقرة: ٢٢٠] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، و﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ما كانوا يسألون إلا عما كان ينفعهم^(١).

ونلاحظ في هذه الرواية، أولاً: أن ابن عباس يؤكد على تحديد الأسئلة بالثلاثة عشر سؤالاً، فلم يسألوا عن شيء آخر غيرها، وهو أمر يثير الغرابة باعتبار أن طبيعة القضايا التي طرحتها الدعوة الإسلامية ونوعية التحديات التي أطلقتها في الواقع، والمشاكل التي أثارها، لا بد من أن تثير علامات استفهام كثيرة تتصل بالعقيدة والتشريع والحرب والسلام ونحو ذلك من الأمور الخاصة والعامة، هذا بالإضافة إلى أن الآخرين من المشركين واليهود كانوا يثيرون أكثر من مسألة حول أكثر القضايا، مما ينعكس على تصور المسلمين للإسلام في مفاهيمه، كما أن الذين يدخلون في الإسلام لا بد من أن يحملوا في ذهنيتهم أكثر من علامة استفهام في الدين الجديد الذي دخلوا فيه.

وثانياً: إن رواية ابن عباس توحى بالذهنية الواقعية الجدية في الأسئلة

التي يثيرونها أمام القضايا التي يجهلون تفاصيلها، أو تقع مثاراً للجدل بين الناس، فلا يسألون عن الأمور التجريدية التي لا علاقة لها بالعقيدة أو بالعمل، لأنها لا تنفعهم في حياتهم الدنيوية والأخروية، بل يسألون عما ينفعهم في ما يعتقدون أو ما يعملون؛ حتى يكون للأفكار الجديدة في الأجوبة دور فاعل في إغناء التجربة الثقافية التي تبني لهم شخصيتهم الإسلامية الإنسانية، وتركزها على قاعدة ثابتة من حقائق الدين والحياة.

وجاء في الدر المنثور عن ابن المنذر عن ابن حبان، قال: «إن عمراً بن الجموح سأل النبي ﷺ: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ الآية. فهذا مواضع نفقة أموالكم»^(١).

ونلاحظ أن الرواية ضعيفة — كما جاء في تفسير الميزان — وأنها لا تنطبق على الآية، حيث لم يوضع فيها إلا السؤال عما يتصدق به دون من يتصدق عليه^(٢).

وقد جاء في الدر المنثور أيضاً، الرواية عن ابن جرير؛ وابن المنذر عن ابن جريج قال: «سأل المؤمنون رسول الله أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ الآية فذلك النفقة في التطوع، والزكاة سوى ذلك كله»^(٣).

ونظيرها، كما جاء في الميزان، ما رواه عن السدي، قال: يوم نزلت هذه الآية لم يكن زكاة، وهي النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها، فنسختها الزكاة»^(٤).

(١) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٥٨٥.

(٢) انظر: تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ١٦٦.

(٣) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٥٨٥.

(٤) م. ن. ج: ١، ص: ٥٨٥.

ولكن هذا الاتجاه في الروايتين يوحى بوجود منافاة بين آية الصدقة وهذه الآية وآية الزكاة حتى تكون آية الزكاة ناسخة لها، أو شيئاً آخر يختلف عنها، بينما نجد أن المسألة تمثل تنوعاً يكتفي فيه الإنفاق بالصدقة والزكاة معاً في مسألة العطاء الإنساني كقيمة أخلاقية في وحي الله.

وفي ضوء ذلك كله، نجد في هذه النماذج المتعددة في تحديد المناسبة التي نزلت هذه الآية فيها، تأكيداً على أن أسباب النزول كانت تمثل لوناً من ألوان الاجتهاد الذاتي، الذي يستوحيه هذا الراوي أو ذاك ليحوّله إلى رواية عن الواقع القرآني في زمن الدعوة، مما يجعلنا لا نجد في الكثير من روايات أسباب النزول منطلقاً للفهم القرآني في الاستيحاء والتفسير.



السؤال باب للمعرفة والعمل

كان المسلمون يسألون النبي عن بعض القضايا التي تشغل تفكيرهم في تفاصيل بعض الواجبات أو المحرمات، وكانت — في غالبها — كما ينقل عن ابن عباس — خفيفة لا تعقيد فيها، عملية لا ترف فيها ولا تكلف، انطلاقاً من شعورهم بأن دور السؤال هو أن يحل للإنسان مشكلة يواجهها في حياته العقيدية أو العملية. فإذا لم تكن هناك مشكلة مطروحة في ساحة اهتماماته الطبيعية، فلا معنى لأن يبادر بالسؤال الذي يتحول إلى تكلف لا فائدة فيه، وعبث لا معنى له، وإضاعة لوقت السائل والمسؤول في ما لا جدوى منه . . .

وهكذا نفهم الدور المطلوب للسؤال في الإسلام، أن يكون نافذة فكرية تطل على ما ينبغي للإنسان معرفته من شؤون الكون والحياة في ما يتعلق بأمر الدنيا والآخرة. وهذا ما نستوحيه من الحديث القرآني عن الأسئلة التي لا يريد

الله للإنسان أن يخوض فيها لأنها لا تتصل بالمعرفة المرتبطة بالمسؤولية، فلا تضيف للإنسان جديداً في حياته كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۖ﴾ إِلَى رَبِّكَ مِنْهُنَّ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخَشَهَا ۖ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٥].

فقد أغلق القرآن باب السؤال عن توقيت يوم القيامة، لأنه لا يعود بفائدة عقيدية أو عملية، لأن من واجب الإنسان الاستعداد لها بعيداً عن أي توقيت معين من خلال مسؤوليته أمام الله، كما أن مهمة النبي هي الحديث عما يحدث فيها لا عن وقتها الذي قد لا يكون محيطاً بعلمه، كما توحى به بعض الآيات التي تقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ونلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وفي بعض الأحاديث التي تقول: «سل تفقهاً ولا تسئل تعنتاً»^(١). وفي الجانب المقابل، نجد أمامنا قول الله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وهكذا نستوحي الدور الإسلامي للسؤال الذي يجب أن يكون نافذة للمعرفة المتصلة بالعقيدة والعمل والحياة.

وكان النبي يستجيب لكل ما يوجه إليه من أسئلة، فلم يكن ليضيق في الرد عن أي سؤال مما يريد المسلمون معرفته، لأنه يشعر أن مهمته الأساسية هي أن يعلم الناس الكتاب والحكمة في ما يجهلونه من شؤونهما المتصلة بحياتهم. ولكنه كان دقيقاً في الإجابة من موقع رسالته، فيختار الجواب الذي يتناسب مع حاجتهم، وإن كان بعيداً عن النص الحرفي للسؤال، لأن دوره هو دور الموجه للسائل؛ فيوحي له — من خلال الجواب — بما ينبغي له أن يسأل

عنه، لا بما يحب أن يعرفه . وهذا ما نستشعره من الجواب النبوي الذي علمه الله لنبيه ﷺ ، فإنه أجاب عمن يلزمهم الإنفاق عليهم من الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، بدلاً من الجواب عما سألوا عنه مما يلزمهم الإنفاق منه من أنواع الطعام، فقد نلاحظ أنه مر بها مروراً خاطفاً، ولم يتوقف عند التفاصيل، فقد يكون الأساس في ذلك هو الإيحاء إليهم بأن نوع الطعام الذي يُقدم ليس مشكلة تبحث عن حل، باعتبار أنه لا يقدم ولا يؤخر شيئاً في هذا المجال ما دام خيراً ونافعاً، بل القضية هي نوعية الناس الذين يتصدق عليهم، من حيث علاقاتهم القريبة به التي تجعل من صلته لهم صلة رحم، ومن حيث حاجتهم التي تجعل من صلتهم إنفاقاً في حل المشكلة الاجتماعية؛ فإذا خلا الأمر عن هذين النحوين، أصبح شيئاً لا معنى له أو لا منفعة له . ولذا كان التركيز الكبير على ذلك باعتبار أنه هو الخير، لأن كون الإنفاق خيراً لا يتصل بطبيعة المال الذي ينفقه، بل يتصل بطبيعة الحالة أو المشكلة التي عالجها، والإنسان الذي أعانه . .

ثم انطلقت الآية في أسلوب تشجيعي للخير القائم على الإنفاق في موارده التي يحبها الله، لتقرر الحقيقة الإلهية في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، الأمر الذي يوحى إلينا بالاندفاع في هذا الاتجاه، لأنه لا يضيع عند الله الذي يعلم ما نعمل بكل دوافعه ونتائجه الخيرة.



من هو الأولي بالإنفاق؟

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد في حركة المعرفة التفصيلية في وجدان المسلمين الذين اتبعوك وتابعوا معك الوحي الإلهي في العقيدة والشرعة والحياة، وواجهوا — من خلال ذلك — أكثر من علامة استفهام حول هذا

الموضوع، أو هذه القضية، أو ذاك الواقع، ليحصلوا على الطمأنينة الفكرية الوجدانية أمام الأسئلة الكثيرة عندهم، ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ من أنواع الأموال التي يملكونها في حياتهم من ألوان الطعام والشراب والألبسة والنقود وغيرها؟ هل هناك شيء معين يلتزمونه في إنفاقاتهم؟ وهل هناك فريضة محددة في نوعية خاصة منها؟ لأنهم يريدون أن تكون التزاماتهم العملية — حتى في العطاء — خاضعة لتعليماتك الرسالية التي تمتد إلى كل شؤون الإنسان في الواقع. ﴿قُلْ﴾ لهم — يا محمد — جواباً عن هذا السؤال الذي لا يختزن في داخله أية أهمية في المفهوم الإنساني لقضية العطاء، إنه من الطبيعي أن ينفق الناس مما لديهم من الأموال التي تمثل حاجات الناس المتنوعة، ليكون الإنفاق على كل شخص بما يحتاجه في حياته الخاصة بالطريقة المألوفة في هذا السلوك الإنساني الذي يتصل بالآخرين، إلا أن الأهمية لتحديد الناس الذين نعطيهم من خلال تحديد الأولويات في الإنفاق، لأننا لا نملك الإنفاق على كل الناس، فهناك الناس الذين لا يجدون أية فرصة للحياة الكريمة وتأمين ما يحتاجونه من الطعام والشراب واللباس والمسكن وغيرها، لأن أبواب الحياة أغلقت عليهم، ولأن الطرق التي يتحركون عليها إلى حاجاتهم سُدت في وجوههم؛ وهكذا عاشوا في حصار الظروف القاسية الخائفة التي منعتهم من أن يتنفسوا الهواء الطلق الذي يكفل لهم استمرار الحياة فالسؤال ينبغي أن يكون عمن هو الأولى بالإنفاق بين الناس، ولذلك كانت الحكمة الإلهية توحى إليك بالجواب عن السؤال الذي ينبغي لهم أن يسألوه، لا عما سألوه.

﴿مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من المال الذي تملكه وتعطيه، ليتحول إلى خير للناس لأنه يلبي لهم حاجاتهم، ويحقق لهم مشتهياتهم، ويبلغ بهم أهدافهم من أي نوع من هذه الأنواع التي تمثل حاجة الناس باعتبار أن الخير هو عنوان العطاء في دلالته الروحية المنفتحة على إنسانيته القيمة في خط التكافل الاجتماعي لرعاية الحالات الصعبة أو المتصلة بالعاطفة الإنسانية.

وهذا ما تؤكدُه الفقرة التالية في الآية حيث الدعوة إليه كعنوان لا بد للناس من أن يحركوه في قضية الإنفاق، ﴿فَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما سر حياة الإنسان في وجوده الحي، مما يفرض عليه الاهتمام بهما ورعايتهما في شيخوختهما ومرضهما وتعبهما، والإحسان إليهما في كل أوضاعهما في الحياة كبادرة عرفان الجميل لما قاما به، على هدى ما جاء في قوله تعالى، في إثارة ذكريات الطفولة الأولى في وجدان الإنسان في شبابه عندما يتذكر ذلك كله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلْعَنَ عِنْدَكَ الْكَافِرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] .

﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ من أرحامكم الذين يتصل نسبكم بنسبهم، وتجري في عروقكم دماؤهم، أو تجري دماؤكم في عروقهم؛ هؤلاء الذين يمثلون المجتمع الأول الذي ترتبطون به من الداخل في حركة الوجود، مما يجعل منه الخلية الاجتماعية الأولى التي تمنحكم الكثير من عناصر شخصيتكم وعلامتها الداخلية والخارجية، وهذا ما أكد الله فيه شريعته في اعتبار صلة الرحم قيمة أخلاقية إيجابية، وقطعة الرحم قيمة سلبية، لأن ذلك يوثق الرابطة الاجتماعية الإنسانية الأقرب في الواقع الإنساني بما يؤهل المجتمع لتوثيق الروابط الأخرى .

﴿وَالْيَتَامَى﴾ الذين فقدوا الآباء في طفولتهم، فلا يجدون الإنسان الذي يرعاهم ويحضنهم ويمنحهم الحب والحنان، ويضمهم إلى صدره، ويفتح لهم روحه، فيشبع جوعهم ويروي ظمأهم ويكسو عريهم، بما يجعل من الإنفاق عليهم تحصيناً للمجتمع من ضياع الفئة الضعيفة فيه في متاهات الحياة، لتستند إلى قوة المجتمع في مسؤوليته المجتمعية بعد أن فقدت قوة الأب أو الأم، فيمنحها الثقة بالذات وبالحياء .

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الذين ضاقت بهم سبل الحياة، فلم يحصلوا على العيش

الكريم من خلال الظروف القاسية التي مرّت بهم، والضغوط الصعبة التي أطبقت عليهم، والأوضاع المعقدة المتحركة في داخل حياتهم، الأمر الذي يجعل من الإنفاق عليهم إيجاد حالة من التوازن الاجتماعي وتحقيق نوع من التكافل الإنساني بما يحقّق للمجتمع الظروف الطبيعية في سلامته واستقامته وقوته، بدلاً من الاهتزاز الواقعي الناشئ من اختلال الأوضاع الاقتصادية للناس بين إنسان يموت من التخمّة وآخر يموت من الجوع.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾ الذي انقطع به الطريق، فلم يكن معه مال يستخدمه لقضاء حاجات السفر، ولم تكن له فرصة في الحصول عليه بأية طريقة؛ الأمر الذي يفرض على الواقع الإسلامي أن يجد له حلاً في إدخاله في دائرة الكفالة الاجتماعية في الحياة العامة.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مما يمثله فعل الخير من انفتاح الإنسان في حياته على تفجير طاقاته في اتجاه حل مشكلة إنسان هنا وقضاء حاجته هناك، ورفع مستواه المادي والمعنوي، وتهيئة الظروف الملائمة لإيجاد واقع الخير والعدل للإنسان... ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما يقوم به عباده في السر والعلانية.



الآية

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

* * *

معاني المفردات

﴿كُرْهُ﴾: الكره بالضم: المشقة التي تنال الإنسان من ذاته، والكره بالفتح: المشقة التي تحمل عليه من الخارج. وقيل: الكره: الكراهة، والكره: المشقة. وقد يكره الإنسان ما لا يشق عليه، وقد يشق عليه ما لا يكرهه. وقيل: الكره والكره آفتان مثل: الضعف والضعف.

وقد جاءت في القرآن الكريم كلمة الكره في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَنْحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ [فصلت: ١١] والمراد بالكلمة، كما هو ظاهر، الإجمار.

﴿خَيْرٌ﴾: نقيض الشر، وهو النفع الحسن.

﴿شَرٌّ﴾: الشر: الضرر القبيح.

* * *

لماذا لم يشرع القتال في بدء الدعوة؟

لم يكن القتال مفروضاً على المسلمين، أو مأذوناً فيه لهم في صدر الدعوة الإسلامية في مكة، فكانت وصايا النبي ﷺ للمؤمنين الذين يضطهدون ويعذبون، تتلخص بالصبر، والهجرة، والتحمل، والتضحية... بل قد تصل إلى الإذن لهم بأن يقولوا ما يراد منهم أن يقولوه من كلمات الكفر تحت ضغط التعذيب والإكراه، كما حدث لعمار الذي نزلت فيه هذه الآية: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] بعد أن قال كلمة الكفر أمام حالة العذاب الصعبة.

ويمكن التوقف عند احتمالات أربعة حالت دون تشريع القتال في هذه المرحلة:

الأول: ربما كان ذلك خاضعاً للمرحلة الأولى التي أراد الله لدينه أن ينطلق منها في حياة الناس، فقد يبدو من الضروري أن يعيش المؤمنون الأولون المعاناة الداخلية والخارجية في ما يتعرضون له من ضغوط نفسية وحياتية من قبل المشركين. وقد يساهم ذلك في خلق جوٍّ من التساؤل والاهتمام والتطلع والتعاطف لدى الناس الآخرين من خلال المؤثرات المتنوعة

التي تحكم حالة السلم في الدعوة.

الثاني: قد يكون الدخول في صراع عنيف مع قريش أمراً غير عملي من خلال حسابات توازن القوى؛ باعتبار أن الدعوة الجديدة انطلقت من المركز الخاضع لسيطرة قريش، مما يجعل من العسير أو المستحيل الدخول في صراع القوة معها.

الثالث: حاجة الدعوة إلى الأجواء التي تسمح بالكلمة الهادئة التي لا تضع في صخب القتال والسلاح لتترك تأثيرها الإيجابي في داخل النفوس، ولو من خلال المواقف السلبية ضدها. فإن أية دعوة تحتاج إلى فترة من الهدوء الذي يحملها إلى الأسماع والأفكار، بعيداً عن أية عناصر أخرى ضاغطة، لأن عظمة الدعوة الإسلامية أنها جاءت لتخاطب العقول فتفرض عليها قناعاتها بالحجة والحوار بدلاً من القوة والضغط. وذلك ما يفرض أن تعمل على تهيئة الوسائل العملية التي تكفل ذلك كله.

ولعلّ هذه النقطة هي التي فرضت هذا الأسلوب السلمي الصابر المهاجر في أجواء مكة، باعتبارها المكان الأمثل الذي يمكن فيه للدعوة أن تصل إلى كل قلب وإلى كل أذن، لأنها عاصمة الجزيرة العربية الثقافية والدينية، مما يجعلها مركزاً للتجمع في المواسم الثقافية والدينية كموسم عكاظ والحج، أو في المواسم التجارية عقيب رحلة الشتاء والصيف، الأمر الذي لا بد فيه للدعوة من أن تحافظ على وجودها في مكة أطول مدة ممكنة لاستغلال ذلك في تحقيق الهدف الكبير، بحيث نستطيع الوصول إلى بعض الأجواء العربية التي لا يمكن أن تصل إليها لولا ذلك.

الرابع: لعلّ هدف النبي ﷺ في منع المؤمنين في مكة من الدخول في صراع مسلح مع قريش، هو إعطاء المؤمنين الذين يدخلون في الدين - وهم ضعفاء - الفرصة للحصول على القوة بطريقة تدريجية خالية من الفروض

الصعبة الضاغطة على إرادتهم وحيلتهم، لثلا يشعروا بالحرَج في البداية بالتكليف في القتال، وبذلك يستطيعون أن يتعمَّقوا أكثر في إيمانهم، ويسيروا في مدارج النمو في العقيدة والعمل بأسلوب واقعي متحرك يوحى لهم بالامتداد والحركة في جوٍّ من الفكر الهادئ والخطوات الهادئة الواقعية.

وهكذا استطاع الإسلام أن يركز قواعده بخلق جيل من الدعاة الذين عاشوا المعاناة بأعمق معانيها وأرحب مجالاتها وأشد ظروفها، فانطلقوا مع النبي محمد ﷺ إلى المدينة، ليركزوا قواعد المجتمع الإسلامي الجديد. وبدأت المرحلة الجديدة للإسلام في عملية التقدم إلى الأمام من خلال صنع القوة الذاتية التي تواجه التحدي بمثله، وتخرق الحواجز الموضوعية أمامها في الطريق من أجل أن تمنعها من التقدم. وكان القتال شريعة هذه المرحلة.

وبدأت الصعوبات النفسية تقف أمام هذه الشريعة في نفوس بعض المسلمين الذين استراحوا — أو هكذا توحى الآية — للدعوة المسالمة التي تتلقى الضربات دون أن ترد عليها، فإن الجهد الذي كانوا يلاقونه من خلال الاضطهاد لم يكن ليعرضهم للخطر الكبير الذي يتعرضون له من خلال القتال، بل كل ما هناك أنه يثير فيهم حالات نفسية صعبة ضاغطة كانوا يتحملونها بصبر وإيمان، مع الاحتفاظ بخط السلامة الوديع في الحياة. وقد يبدو أنهم تأففوا من هذه الفريضة الصعبة، أو اعترضوا، أو حاولوا التخلص منها، كما توحى كلمة كما ﴿وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ﴾، لأنه كان يعني السير إلى الموت باختيار، كما يعني الاستمرار فيه مدى استمرار التحديات الكافرة المشتركة.

وكانت طريقة الإسلام أن يدفع المسلمين إلى الممارسة العملية من خلال القناعة الفكرية والاستجابة الروحية، بالإضافة إلى الاستسلام الإيماني الذي تفرضه العقيدة الإسلامية المرتكزة على التسليم لله في كل الأمور، فكانت هذه الآية من أجل تقرير الحقيقة الواقعية في ما يحبه الإنسان مما لا يكون فيه كبير مصلحة له، أو في ما يكرهه الإنسان مما لا يكون فيه أية مضرة له، الأمر

الذي يوحي للإنسان بأن الحالات النفسية الانفعالية لا يمكن أن تكون مقياساً للحركة السلبية أو الإيجابية في الحياة، لأن الانفعال منطلق من السطح لا من العمق، باعتباره يمثل حالة رد فعل لصدمة طارئة، أو نزوة سريعة، أو عاطفة ساذجة فلا بد من التعمق في دراسة القضايا والمواقف والأشياء، من أجل النفاذ إلى واقعها لمعرفة طبيعة المصالح والمفاسد الواقعية الكامنة فيه، لينتهي إلى النتيجة الحاسمة التي تبعده عن الاستسلام لانفعالاته السريعة.

وقد يستطيع الإنسان اكتشاف ذلك من دراسة تاريخ حياته الشخصي في ما واجهه من حوادث الانفعال، وما اكتشفه من خطأ الاعتماد عليها في ظهور السلبيات في ما إذا كان الانفعال يتجه إلى الإيجابية، أو ظهور الإيجابيات في ما إذا كان يتجه إلى السلبية. فليست الكراهة مؤشراً لضد الحق في ما يكرهه، وليست المحبة مؤشراً للحق في ما يحبه. إنه شيء يكتشفه الإنسان من خلال تجاربه الشخصية. فإذا تحرك في خط الإيمان فإنه يكتشف، من خلال النافذة التي تطل به على الحقيقة الإيمانية، أن الله يعلم حقائق الأشياء، ويعلم ما يضر الإنسان وما ينفعه منها، ويعرف كيف يشترع للإنسان ما ينسجم مع مصلحته على أساس الحكمة والرحمة. أما الإنسان فهو لا يعلم إلا القليل القليل منها، ولذلك نراه يتمرد، ويشك، وينفعل. ومن خلال ذلك، انطلق القرآن في معالجة الموقف من ناحية فكرية تركز على التجربة، ومن ناحية إيمانية تركز على العقيدة. فطريقة القرآن، في حلوله لمشاكل الإنسان الداخلية، تتمثل في قيادته إلى القناعة من خلال الواقع والإيمان.

ويبقى أن الآية توحى بأن هناك سؤالاً مكبوتاً يتحرك في الداخل بعد تشريع القتال، أو سؤالاً مطروحاً بطريقة مليئة بالمرونة والاستيحاء، فكانت الآية جواباً عن ذلك كله.

كتب عليكم القتال وهو كره لكم

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ۖ أَيْ : فرض الله عليكم القتال في فريضة الجهاد في سبيل الله ، بعد أن منعكم منه مدةً من الزمن في مرحلة قاسية كانت مصلحة الدعوة فيها الأخذ بأسباب الصبر ، والدفع بالكلمة الطيبة ، والبعد عن ردّ التحدي بمثله حتى يمتد الإسلام في ساحته ، ويستعد لتركيز قواعده في موقع قوة جديد ، بحيث لا يملك الآخرون إسقاطه بقوتهم ، لأنه يملك آنذاك قوة الرد في ساحة المجابهة ، ﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ من خلال الطبيعة الإنسانية التي لا تنسجم مع كل الأعمال الشاقة أو الخطرة التي قد تؤدي إلى الألم أو الجرح أو الموت . فإن الإنسان مفطور على حب الراحة والحياة ، فيكره — بطبيعته — كل ما يسلبه ذلك .

وفي ضوء ذلك ، فإن هذه الكراهة الذاتية لا تتنافى مع رغبة المؤمنين بالجهاد طلباً لمرضاة الله ، وطمعاً في الحصول على ثوابه ، لأن الإنسان يرغب في الأعمال الشاقة ، أو الأسفار الخطرة ، أو نحو ذلك ، من أجل تحصيل المزيد من المال أو الجاه أو السلطة ، أو القرب من الله تغليلاً للمصلحة الراجحة أو الملزمة على المفسدة المرجوحة أو غير الملزمة . ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا ۖ ﴾ من خلال بعض المشاكل التي يثيرها في حياتكم كالمخاطرة بالروح في الجهاد ، والمشقة في السفر في التجارة ، والسهر في الليل لطلب العلم ، ﴿ وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لما يترتب عليه من النتائج الكبيرة المتصلة بالدرجات الرفيعة التي تبلغونها في الأخذ بما تكرهونه . فإن الجهاد يضع المؤمنين بين خيارين كلاهما خير : إما النصر ، الذي يؤدي إلى الكثير من امتداد الإسلام في حركة الإنسان في الحياة وسيطرته على الواقع مما يجعل المسلمين في الموقع الكبير في الناس ، وإما الشهادة التي ترفع درجة المؤمنين عند الله ، فيحصلون — من

خلال ذلك — على رضوانه وعلى جنته .

﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ لأن النتائج السلبية التي تحصل لكم، من خلال ذلك، قد تكون أشد خطورةً، وإيلاًماً، مما تأملونه، أو تحبونه منه، من النتائج الإيجابية. فإن القعود عن الجهاد — انطلاقاً من حب الحياة — يؤدي إلى سيطرة الكفر على الإسلام، وخضوع المسلمين للكافرين، مما يوجب الذل والهوان والسقوط المعنوي والسياسي والأمني والاقتصادي، والحرمان — من جانب آخر — من ثواب الله ونعيمه في جنته .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما يصلحكم ويفسدكم، مما قد تكون بداياته سيئة ونهاياته حسنة، أو بالعكس، لأنه يعلم عمق الأمور وجوهرها. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إلا السطح البارز منها فتقبلون على البداية الحلوة في غفلة عن النهاية المرة، وتتحركون نحو الأمور من خلال ظواهرها، ولا تبحثون عن بواطنها، فتقعون في الشر وأنتم تريدون الخير، أو تخسرون الخير حيث يخيل إليكم أنه الشر. ولذلك فعليكم أن تنطلقوا إلى ما يأمركم به لأن فيه الخير كله في الدنيا والآخرة، وأن تبتعدوا عما ينهاكم عنه لأن فيه خسران الدنيا والآخرة.

قال الطبرسي في مجمع البيان: «أجمع المفسرون — إلا عطاء — أن هذه الآية دالة على وجوب الجهاد وفرضه، غير أنه فرضٌ على الكفاية حتى أن لو قعد جميع الناس أثموا به، وإن قام به من في قيامه كفاية وغناء سقط عن الباقيين. وقال عطاء: إن ذلك كان واجباً على الصحابة، ولم يجب على غيرهم، وقوله شاذ عن الإجماع»^(١).

* * *

الإيحاءات والحدوس

أولاً: لا بد للعاملين في سبيل الله من استيحاء هذه الآية في غير هذا الجانب من قضايا التشريع أو العمل في سبيل الله، مما قد يثير احتجاج البعض، واستنكار البعض الآخر، أو يدفعهم إلى التمرد وعدم الانضباط، وذلك بأن تنطلق التربية الإيمانية على أساس الإحساس بضرورة التحرك من واقع التجربة وحركة العقيدة، ليستوحيهما الإنسان في كل أموره العملية قبل أن يندفع في اتخاذ المواقف السلبية والإيجابية. وبذلك تتأكد الشخصية الإسلامية في مواقعها الصلبة الواعية، فلا تهتز أمام حالات الانفعال، ولا تسقط تحت تأثير ردود الفعل الطارئة السريعة، ولا تندفع في طريق لا تعرف نهاياته وأبعاده؛ بل تقف أمام الأشياء وقفة تأمل وتفكير — من دون فرق بين حالات التحدي أو حالات الاسترخاء — لتدرس كل شيء من مواقعه الذاتية بكل تجرد وموضوعية، فلا يمكن للأعداء أن يقودوها إلى معركة لم تحدد مسارها ومنطلقاتها وأوقاتها، ولا يمكن للأصدقاء أن يدفعوها في طريق لا تعرف كيف تتعامل معه في خطواته البطيئة والسريعة، بل تقف وسطاً بين الخطوط لتختار الخط الذي يناسبها من خلال دراسة موضوعية واعية مبنية على العلم والإيمان.

ثانياً: إن الإسلام يواجه الواقع في تشريعاته، فهو يعترف بالواقع الصعب والتجربة المرّة، ولكنه يوحى للإنسان بالأسرار العميقة، والأرباح الكبيرة، والنهايات السعيدة التي تكمن في القضية التي يعالجها التشريع، بحيث تحقق للإنسان رغباته المادية أو المعنوية التي يتجاوز — من خلال الانفتاح عليها — كل الصعوبات والمرارات، فيرحب بها بدلاً من أن يتعقد منها.

ثالثاً: أن تتحرك حسابات الخير والشر لدى الإنسان على أساس النظرة

الواسعة العميقة لما عند الله، مما يدركه العقل بالتأمل أو يكشفه الوحي، لتكون الموازين لدى الإنسان المؤمن منطلقاً من موازين السماء، فلا تستغرق في خصوصيات موازين الأرض.

رابعاً: الاطمئنان إلى حكمة التشريع الإلهي من خلال الحقيقة الإيمانية، وهي أن الله هو الذي يعلم خفايا الأمور وبواطنها ونهاياتها، فلا بد من الثقة بالتشريع بأنه يختزن الخير كله للإنسان بعيداً عن المشاعر والانفعالات الذاتية التي يثيرها في النفس سلباً أو إيجاباً؛ فلا يرفض الحكم الشرعي لعدم انسجامه مع رغبته، لأن عنصر الرغبة لا يتصل بالعمق من المصالح والمفاسد، بل يتصل بالجانب السطحي من حياة الإنسان.



الآيتان

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ
وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ
أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَصَدُّ﴾: الصد: يقال: صدّ عن الشيء: إذا أعرض وعدل عنه، وصد
غيره: إذا عدل به عنه ومنعه.

﴿حَبِطَتْ﴾: الحبط - في الأصل - : فساد يلحق الماشية في بطونها

لأكل الحباط. وهو ضرب من الكلاء. يقال: حبطت الإبل تحبط حبطاً، إذا أصابها ذلك. ثم سمي الهلاك حبطاً. والمراد بها، في الآية، بطلان العمل وفساده في الدنيا والآخرة، فلا قيمة له ولا ثواب عليه.



مناسبة النزول

جاء في أسباب النزول أن رسول الله ﷺ أرسل جماعة من المسلمين في بداية عهد الهجرة، قبل موقعة بدر، ليعرضوا لبعض قوافل قريش كوسيلة من وسائل الضغط عليهم، في عملية عرضٍ للقوة الجديدة لإضعاف قريش اقتصادياً وعسكرياً، في مجتمع يتعامل أفراده ويتحركون من خلال موازين القوى المطروحة في الساحة، فيتخالفون ويخضعون للأقوى، ويتخاذلون أمام دعوة الأضعف؛ فكانت هذه السرية الأولى بقيادة عبد الله بن جحش، وأمر القوم بالسير معه من دون أن يعرفهم مهمة القافلة، بل قال لهم: اتتمروا بأمره عندما تصلون إلى مكان معين. فلما اصطدموا بالقافلة، طلب منهم القتال، فاستعد بعضهم له تنفيذاً للأمر، وامتنع البعض الآخر تقديساً للشهر الحرام الذي كان قد دخل آنذاك؛ ووقع القتال بينهم وبين القافلة، فقتل نفر من هؤلاء ونفر من أولئك.

ولما رجعوا إلى المدينة، خطأهم النبي ﷺ في الدخول في القتال في الأشهر الحرم، لأنه كان خطأً حقيقياً، لأنهم لم يكونوا واعين لطبيعة الأمر التي تفرض عليهم أن لا يتجاوزوا جوانب التحريم الأخرى، فلم يكن من المفروض عليهم أن يتأخروا إلى الشهر الحرام.

وكانت هذه الحادثة فرصة ذهبية لقريش للتشهير بالمسلمين في الأوساط

العربية من جهة انتهاكهم لقدس من أقداس الأوضاع المحترمة لديهم، كما أنها أوجدت بلبلة في أوساط المسلمين لأن الإسلام لم يعترض على تحريم القتال في الأشهر الحرام الذي كان سائداً في المجتمع العربي، بل أقرّه انطلاقاً من اعتباره شريعة دينية مستمدة من الشرائع السابقة ككثير من العادات العربية الدينية التي كانت من بقايا رسالة إبراهيم عليه السلام، الذي كانوا يعظمونه ويحترمونه، لا سيما قريش التي كانت ترى نفسها من ذريته.

وكان لا بد للمسلمين من أن يفهموا طبيعة الحدود التي تجاوزها هذا الفريق منهم، ويعرفوا ما إذا كان هذا التصرف بداية لإلغاء هذا التشريع، أو أنه يمثل تغليباً لجهة غالبية على جهة أقلّ منها مصلحة. وكان لا بد للإسلام من أن يجيب عن هذه التساؤلات ليوضح الحقيقة للمسلمين من أجل تركيز إيمانهم، وليقف ضد حملة التشهير بالإسلام التي قادتها قريش ضده، فكان هذا السؤال الذي أفسح القرآن المجال له في آياته^(١).



القتال في الشهر الحرام

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. فقد انطلق السؤال عن الشهر الحرام من جهة شريعة القتال فيه، هل هو محرم كما كان أو أنه حلال في تشريع جديد؟! وكان الجواب: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾. إنه أمرٌ كبير في ما يمثله من انتهاك حرمة من حرّمات الله، التي أراد أن تحفظ وتسان لما يترتب عليها من المصالح العامة للأمة من خلال الحاجة إلى فترة سلام تستريح فيها من الخلافات، وتعيش من خلالها تجربة الأمن والطمأنينة. ويضيف القرآن إلى

(١) لمزيد من التفاصيل حول مناسبة النزول، انظر: مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٥١، والدر المنثور، ج: ١، ص: ٦٠٠ - ٦٠٥، وأسباب النزول، ص: ٣٦ - ٣٨.

ذلك : ﴿ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وربما كان ذلك إشارة إلى بعض أشهر الحج التي كان يريد للناس أن يمارسوا شعائر الحج فيها، من أجل الرجوع إليه في هذه العبادة التي تفتح قلوبهم على معنى الخير وإرادته؛ وإلى شهر رجب الذي أراد الله للناس أن يعتمروا فيه فيرجع إليه المذنب، ويلجأ إليه الخائف في طريق التوبة والإيمان. فكأن الله يحب للناس أن يحافظوا على حرية الوصول إلى المسجد الحرام من أجل تحقيق المعاني الروحية والاجتماعية التي تحصل لهم من خلال الحج والعمرة؛ وبذلك يكون القتال صدأً عن سبيل الله وكفرًا به وبالمسجد الحرام في ما يقتضيه من الانحراف عن خط الله. وقد يعبر الله عن الانحراف العملي بالكفر حيث إن الإيمان الذي لا يتمثل في العمل يُعتبر بمنزلة الكفر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧] وبهذا المعنى جاءت الأحاديث التي تسمي تارك الصلاة كافرًا.



الفتنة أكبر من القتل

ثم تدخل الآية في عملية مقارنة بين ما حدث من القتال في الشهر الحرام، وبين ما قامت به قريش من إخراج أهل المسجد الحرام منه وفتنتهم عن دين الله بكل ما يملكون من وسائل الضغط والتهديد: ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فإن ما قام به المسلمون على سبيل الخطأ كان اعتداءً على حرمة زمن ما، بينما كانت قريش تعتدي على حرمة المؤمنين وتخرجهم من مكة التي هي بلدهم بمختلف وسائل الضغط الجسدي والمعنوي الموجهة إليهم،

وتحارب الله في دينه فتفتن المؤمنين عنه، وتمنعهم من السير في طريق الله. ثم تحدث الآية عن خطورة ما تقوم به قريش، وتعتبر أنه أكبر من القتل الذي قام به المسلمون في الشهر الحرام: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، لأن ذلك يمثل الاعتداء على حرية الدين الذي يريد الله أن تُحفظ وتُحترم، وعلى حرية الإنسان في السير في خط الله دون ضغط؛ وبذلك يكون اعتداءً على الحياة في ما يمثله الدين من حماية لها ورفع لمستواها، فلا يقاس به القتال في الشهر الحرام الذي لم ينطلق من جانب ذاتي، بل انطلق من محاولة لحماية المسيرة التي بدأها الإسلام في مكة، ووقفت قريش حاجزاً بينها وبين الامتداد؛ فكان القتال رداً للعدوان بشكل غير مباشر وليس عدواناً ابتدائياً.

ثم تتوجه الآية إلى المسلمين لتعرفهم طبيعة الصراع الذي يدور بينهم وبين قريش، فليس هو صراعاً تفرضه الخلافات الطارئة التي تحدث بين الناس في المجتمع العربي، على طريقة الخلافات العشائرية الخاضعة لمصالح خاصة، ليكون لها فترة معينة وتسوية خاصة؛ بل هو صراع على العقيدة التوحيدية التي تمثل خطأ ممتداً في الحياة، يختلف اختلافاً كبيراً عن عقيدة الشرك التي تمثل خطأ مбайناً لا مجال للالتقاء به في أية مرحلة من مراحل الطريق؛ ولذا كان الموقف حاسماً لا يخضع لأنصاف الحلول.

وهذا ما فهمته قريش من واقع هذا الصراع، وهذا ما يجب أن يفهمه المسلمون في ما يستقبلون من قضايا الصراع؛ فإن قريشاً، وكل قوى الشرك والكفر، لن تهدأ ولن تستريح إلا بعد أن يتم القضاء على الإسلام بالقضاء على المسلمين أو على العقيدة في داخلهم؛ وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾. وبذلك كان القتال مفروضاً على المسلمين، وكانت الساحة مفتوحة على مستوى الزمان والمكان؛ فلا خيار لهم في التوقف، بل لا بد لهم من أن يتحركوا على كل المحاور والاتجاهات والأوقات، وإن أدى ذلك إلى اختراق حرمة الشهر

أو المكان، لأن حرية الدين في التحرك وفي حماية نفسه لا تحتل المساومة والاسترخاء والوقوف عند أي حاجز من الحواجز المطروحة في الطريق في غير هذا المجال.

* * *

الارتداد يحبط الأعمال

ثم تتوجه الآية إلى المسلمين الذين قد يستسلمون للضعف أمام الضغط الهائل الذي تمثله قوى الشرك، فيرتدون عن دينهم؛ فتعرفهم خطورة الارتداد في حساب المصير، تبعاً لأهمية الإيمان بالله في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فتقرر الآية - في هذا الجو - أن الإنسان الذي يموت كافراً في خط الارتداد يسقط من حساب الله في كل المجالات، لأن قيمة أي عمل من أعمال الإنسان تتحدد بالانطلاق به من خلال الإيمان بالله؛ فلا قيمة لأي عمل لا ينطلق من تلك القاعدة. ولذا فإن الارتداد يحبط أعمال الإنسان في الدنيا والآخرة، ويؤدي به إلى الخلود في النار. وعلى ضوء ذلك، كان الإسلام يلغي كل الأعمال السيئة المتقدمة عليه، كما ورد «أن الإسلام يجب ما قبله»^(١)، وكان الكفر يلغي كل الأعمال الصالحة المتقدمة عليه، لأن الإسلام يتعامل مع الأعمال من موقع القاعدة التي ينطلق منها العمل لا من موقع العمل نفسه، لأن القاعدة الفكرية هي التي تعطي العمل معناه الإيجابي أو السلبي في خط الاستقامة والانحراف. وفي هذا الإطار، يحدد القرآن الموقف للاتجاه المعاكس لخط الكفر والارتداد، وهو خط

(١) راجع: البحار، م: ٨، ج: ٢١، ص: ٨٠، باب: ٢٦، رواية: ٨.

المؤمنين الذين عاشوا الإيمان بالله في موقف الهجرة والجهاد في سبيل الله، وتحركوا من القاعدة الصلبة التي تحرك خطواتهم في الحياة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَكُلْتِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ فهم يرجون رحمة الله التي لا تنال الكافرين البعيدين عن أجواء الإيمان. فإذا أخطأ هؤلاء المؤمنون في بعض ممارساتهم وكلماتهم، فإنهم يرجون — في عمق إيمانهم — أن يرحمهم الله، ويغفر لهم ذنوبهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، انطلاقاً من إيمانهم بالحقيقة الإلهية ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.



تفسير الميزان وجبب الأعمال

هناك عدة أحاديث تثيرها كلمة: ﴿ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ في مقام الجدل:

١ - تناول صاحب الميزان المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فقال: «الذي ذكره تعالى من أثر الحبط: بطلان الأعمال في الدنيا والآخرة معاً. فللحبط تعلّق بالأعمال من حيث أثرها في الحياة الآخرة، فإن الإيمان يطيب الحياة الدنيا كما يطيب الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] ، وخسران سعي الكافر، وخاصة من ارتد إلى الكفر بعد الإيمان، وحبط عمله في الدنيا ظاهر لا غبار عليه؛ فإن قلبه غير متعلق بأمر ثابت، وهو الله سبحانه، يتنهج به عند النعمة، ويتسلّى به عند المصيبة، ويرجع إليه عند الحاجة. قال تعالى: ﴿ أَوْ

مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴿[الأنعام: ١٢٢]، تبين الآية أن للمؤمن في الدنيا حياة ونوراً في أفعاله وليس للكافر، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٥]. حيث يبين أن معيشة الكافر وحياته في الدنيا ضنك ضيقة متعبة، وبالمقابل معيشة المؤمن وحياته سعيدة رحبة وسيدة.

وقد جمع الجميع ودلّ على سبب هذه السعادة والشقاوة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] فظهر مما قربناه أن المراد بالأعمال مطلق الأفعال التي يريد الإنسان بها سعادة الحياة، لا خصوص الأعمال العبادية والأفعال القريبة، التي عملها المرتد وأتى بها حال الإيمان؛ مضافاً إلى أن الحبط وارد في مورد الذين لا عمل عبادي ولا فعل قربي لهم، كالكفار والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنْصَرُوا وَيَلْبِثُوا قَلِيلًا أَفَدَّامُكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩٧-٩٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَتَأْتِيَهُمْ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

فمحصل الآية — كسائر آيات الحبط — هو أن الكفر والارتداد يوجب بطلان العمل عن أن يؤثر في سعادة الحياة، كما أن الإيمان يوجب حياة في الأعمال تؤثر بها أثرها في السعادة، فإن آمن الإنسان بعد الكفر، حييت أعماله في تأثير السعادة بعد كونها محبطةً باطلة، وإن ارتد بعد الإيمان ماتت أعماله جميعاً وحبطت، فلا تأثير لها في سعادة دنيوية ولا أخروية، لكن يرجى له ذلك إن هو لم يمت على الردة وإن مات على الردة ختم له الحبط وكتب

الشقاء»^(١).

ونلاحظ على هذا التحليل الدقيق، أن ما ذكره في تفسير الإحباط في الدنيا والآخرة ببطان تأثير الأعمال، مع الكفر أو الارتداد في سعادة الإنسان في الدارين صحيح، ولكن تفسيره السعادة في الدنيا بالحياة الروحية التي يعيش الإنسان المؤمن فيها النور في أفعاله، دون الكافر الذي يفقدها لفقدان صلته بالله الذي يدخل البهجة إلى قلبه، والسلوة عند حزنه، والاكتفاء عند حاجته ليس دقيقاً. فإن ذلك قد يحقق للإنسان الشعور بالسعادة والطمأنينة من حيث تأثير الإيمان في ذلك، كما هو مدلول الآيات التي استشهد بها، ولكن الظاهر من الأعمال، في هذه الآية، الأعمال التي يستحق بها الإنسان العناية من الله بما يمنحه من الثواب عليها، أو يدفع بها عنه شراً، أو يجلب له خيراً، فإن الله يعطي عباده المؤمنين النتائج الإيجابية في أعمالهم الخيرة وإن لم يتقربوا بها إليه، بل كانت جاريةً على حسب الخط الإيماني الذي تتحرك فيه حياته من خلال انتمائه إلى رسالات الله.

ولذلك، فإن المقصود من حبط الأعمال بالكفر وبالارتداد هو بطلان تأثيره في العطاء الإلهي في الدنيا والآخرة، هذا العطاء الذي يجريه الله لعباده جزاءً للأعمال الصالحة بشرط الإيمان، لأن الإيمان هو الأساس في استحقاق الثواب على العمل. وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ، وَإِنَّا لَهُمْ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فإن الظاهر من الآيتين، أن العمل الصالح في دائرة الإيمان، هو الذي يمنح الإنسان حق الأجر الذي يمنحه الله له في الدنيا والآخرة، وهو الذي يمنع من كفران سعيه

(١) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ١٧١ - ١٧٢.

الذي يلتقي مع معنى الحبط والبطلان .

وفي ضوء ذلك، يكون الحبط كناية عن أن هذه الأعمال — مع الكفر — صارت بمنزلة العدم، لأن الإيمان هو الذي يعطي العمل قيمته ونتائجه الإيجابية . فليست السعادة التي يتطلبها الإنسان شيئاً يعيشه في حياته الداخلية من موقع الثقة التي يفرضها الإيمان، بل هو شيء يحصل عليه من خلال عطاء الله له، لأن الله يعطي الثواب في الدنيا كما في الآخرة، وسينزل العذاب في الدنيا كما ينزله في الآخرة . وهذا هو جو الآية؛ والله العالم .

* * *

هل الأعمال يبطل بعضها بعضاً؟

٢ — هناك خلاف فكري بين المؤمنين: هل أن الأعمال يبطل بعضها بعضاً بحيث تبطل الحسنة السيئة، أو السيئة الحسنة، أو يبقى كل واحد منهما على حاله في قضية الجزاء؟

فهناك قائل ببطلان الإحباط .

أولاً: لأنه ظلم مستحيل على الله سبحانه . وهذا ما ذكره نصير الدين الطوسي في تجريد الاعتقاد، قال: إن الإحباط نوع من الظلم، فلو أن شخصاً قلّت حسناته وكثرت ذنوبه، فسيكون الإحباط بالنسبة إليه أن يصبح شخصاً لم يعمل حسنة قط، وهذا ظلم بحقه .

وثانياً: الآيات الدالة على أن الإنسان يجزى بعمله مطلقاً، سواء لحقه شيء مضاد له أو لم يلحقه كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ — ٨] . وقوله تعالى: ﴿وَالْآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠١] وظاهر هذه الآية أن الأعمال تبقى على حالها في نتائجها الإيجابية والسلبية حتى تأتيهم التوبة من الله سبحانه .

وثالثاً: إنه لا موجب للإحباط بعد انطلاق كل منهما من موقعه الداخلي في النفس الإنسانية، مما يفرض أن يأخذ كل واحد منهما دوره في واقع الإنسان من خلال عدم ارتباط أحدهما بالآخر، أو غلبته عليه. فلا وجه لإلغاء أحدهما الآخر. وهذا هو المنهج العقلاني الذي جرى عليه العقلاء بفطرتهم التي خلقها الله فيهم في الجزاء على الحسنة بشكل مستقل كما لو لم تكن هناك سيئة، والجزاء على السيئة بشكل مستقل، كما لو لم تكن هناك حسنة؛ وذلك من خلال السيئات والحسنات التي لا تحمل مدلولاً مميزاً، بحيث يلغي الأساس للآخر كله، أما في العمل الذي يقطع العلاقة بين الإنسان وربّه كالكفر والارتداد، فإنه يقطع المسألة من جذورها التي لا تبقي للحسنة أية قابلية للبقاء في حساب الأعمال.

وهناك قائل بأن الأعمال تبقى على حالها في آثارها العامة والخاصة، ولكن الحسنة قد تكفر السيئة، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ جَحَنُوا كَبَّارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١] وقوله تعالى في تبديل السيئة بالحسنة: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْأَثَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسَيَّاتِ ذَلِكَ ذَكَرْتِ لِلذَّكْرَيْنِ﴾ [هود: ١١٤]. وهذا أمر قريب إلى المنهج الإسلامي الذي يلتقي بالعتفو والمغفرة والتوبة التي قد تكون كلامية، وقد تكون عملية بتبديل الخط العملي من السلب إلى الإيجاب.

وذهب صاحب البحار العلامة المجلسي في بحار الأنوار إلى ثبوت سقوط الثواب بكفر يستمر إلى نهاية العمر، وسقوط العقاب بإيمانٍ يستمر حتى الموت. والأخبار كثيرة بشأن هبوط كثير من الطاعات عن طريق كثير من

المعاصي، وغفران كثير من المعاصي عن طريق كثير من الطاعات. وذلك كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٢ - ٣٣]. فإن المقابلة بين الآيتين تقضي بأن يكون الأمر بالإطاعة في معنى النهي عن المشاقة. كما جاء في تفسير الميزان^(١).

وقد جاء عن النبي محمد ﷺ: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(٢).

ولكن يمكن مناقشة بعض هذه الشواهد. أما الآية التي تتحدث عن رفع الصوت فوق صوت النبي، فليست واردة في مقام بيان فعلية إحباط هذا السلوك لأعمالهم السابقة، بل هي واردة - والله العالم - في التحذير من فعل الإساءة إلى النبي بعدم احترامه في درجة نبوته، من خلال الاستهانة به وبأمره ونهيه؛ فيقودهم ذلك إلى الابتعاد عن خط الإيمان بطريقة تلقائية لاشعورية في ما يجبر بعض الأوضاع السلبية بعضاً آخر، وتؤدي بالتالي إلى لون معين من الانحراف في اتجاه آخر. ولعل قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، إشارة إلى ذلك من خلال الوصول إلى الكفر وما يشبه الكفر من دون شعور.

أما آية المشاقة، فإن الظاهر من المشاقة مع الرسول، هو ما يحصل من

(١) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ١٧٦.

(٢) البحار، م: ٢٥، ج: ٧٠، ص: ٣٥٧، باب: ١٣١، رواية: ٢٦.

الكافرين في مواجهتهم للنبي من خلال معطيات الكفر والصد عن سبيل الله — ولذلك ذكر هذه المشاقفة في سياق صفات الكافرين — وذلك بإعلان الحرب عليه، والابتعاد عن دينه، والمخالفة له في العقيدة والشريعة والاستهزاء. وأما الفقرة التي تليها فإنها تتحدث عن ضرورة الانسجام مع خط الإيمان بإطاعة الله ورسوله، وعدم الإنحراف عن هذا المنهج الإيماني الذي قد يؤدي إلى بطلان الأعمال من خلال انهيار القاعدة الأساسية للأعمال؛ والله العالم.

أما الحديث عن الحسد في أكله للحسنات، فقد يكون ناشئاً من الروحية التي تتمثل في الحاسد الذي قد ينطلق إلى القيام بكثير من الأعمال الباغية التي قد تظغى على حياة الإنسان، بحيث لا تكون هناك أية قيمة لما قام به من الأعمال الصالحة أمام ما يقع فيه من الأعمال السيئة، حتى كأنها لا شيء، وذلك بأسلوب الكناية أو المبالغة. وهكذا لا نجد في مثل هذه الشواهد دليلاً على ما ذكره من إبطال بعض السيئات للحسنات، وربما كان السبب في بعض هذه التفاسير التعامل مع النص بحرفيته، لا بإيحاءاته وأساليبه البلاغية القائمة على الكناية تارةً وعلى المبالغة أخرى، والله العالم.



بين الردة والموت كافراً

٣ — لا شك أن المسلمين متفقون على أن الردة تحبط العمل وتفسده، ولكن هل يحدث ذلك بمجرد الردة، فلا قيمة للعمل حتى لو آمن بعد ذلك، أو أنه مشروط بالموت كافراً؟ ذهب الشافعي إلى أن إحباط الردة للعمل مشروط بالموت كافراً، وذلك من خلال الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فلا إحباط للعمل إذا تبدل الكفر قبل الموت بحيث مات مؤمناً.

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى الرأي الأول، فتكون الردة محبطة للعمل ولو رجع صاحبها إلى الإسلام، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أُجُورَهُنَّ أُجُورُهُنَّ مُحْصَيْنَ غَيْرَ مُسَفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] فقد علق فيها الحبوط بمجرد الشرك. وإذا كان الخطاب الأول للنبي، فإن المقصود به أمته لاستحالة ذلك عليه. وناقشوا الاستدلال بالآية بأنها واردة في بيان حكمين: الحبوط والدخول في النار، فلا تكون دليلاً على شرطية ذلك للحبوط في ذاته، وقد رد الشافعي على الاستدلال بآية الشرك بأنها واردة في باب التغليظ على النبي كما غلظ على نسائه في قوله تعالى: ﴿يَلْسَأَنَّ النَّبِيَّ مِنَ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وتظهر ثمرة الخلاف في من حج ثم ارتد ثم أسلم. فقال مالك وأبو حنيفة: عليه الحج لأن رده أحيطت حجه. وقال الشافعي: لا حج، لأن حجه قد سبق. والردة ليست محبطة إلا إذا مات على كفره.

ونحن نلاحظ أن الآيات التي تحدثت عن الشرك كانت تتحدث عن المبدأ كعنوان للإحباط، بقطع النظر عن التفاصيل، أو ربما يستفاد منها أن يكون مشركاً في مقابل المؤمن بما يوحى بالاستمرار، أما آية: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ فهي متعرضة للحبط، أما الخلود في النار فهو حكم آخر وليست المسألة على أساس القيد والمقيد؛ والله العالم.

وقد نستفيد احتفاظ الإنسان بعمله الصالح حتى لو أعقبته السيئة من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرْتُ أَوْ أَنْتِ بَعْضُكُمْ مِنْ

بَعْضُ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
 الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥] فإن في إبطال العمل بفعل عمل سلبي آخر إضاعة
 للعمل من خلال إبطال نتائجه الدنيوية والأخروية.

* * *

نظرة الإسلام إلى المرتد في قبول توبته

٤ - ما هي نظرة الإسلام إلى المرتد في قبول توبته من حيث المبدأ،
 من خلال هذه الآية وغيرها؟.

إن هذه الآية توحى بأن العذاب الموعود به والحبط المذكور فيها
 يرتكزان على الارتداد المستمر إلى الموت، أي الارتداد الذي لا توبة بعده،
 وهذا هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
 فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ﴾ فإن تعليق النتائج السلبية على الموت كافراً يوحى بأنه لو تاب قبل
 موته، فمات وهو مؤمن، فلا حبط لعمله ولا خلود في النار. وهذا المضمون
 يلتقي، من ناحية إيجابية، مع قبول التوبة في الدنيا، بمعنى دخوله من جديد
 في دائرة رحمة الله ورضوانه كجزء من المجتمع الإسلامي.

وجاء في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ
 إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ * أُولَٰئِكَ
 جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
 الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل
 عمران: ٨٦ - ٩٠].

فإن هذه الآيات تشير إلى المؤمنين الذين كفروا بعد إيمانهم، وازدادوا كفراً بحيث امتد كفرهم إلى نهاية حياتهم، وتحدث عن عذابهم الذي ينتظرهم في الآخرة، وعن عدم قبول توبتهم لعدم جدبتهم فيها، أو في إيمانهم بالآخرة، بمعنى عدم حصولهم على نتائج التوبة ظاهراً، وتستثني آية ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] فتحدث عن غفران الله لهم ورحمته، وهذا دليل على قبول توبتهم. وإذا كانت الروايات تختلف بين رواية تحملها على أهل الكتاب، ورواية تحملها على المرتدين من المسلمين؛ فإن الظاهر منها هو الإطلاق الذي يشمل حالة الارتداد بعد الكفر.

وربما كان مبدأ قبول توبة المرتد، من ناحية إيحائية، واضحاً في الآية التالية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١] حيث مضمونها يلتقي بمضمون آية البقرة في اعتبار العذاب الأخروي، الذي ينطلق من واقع الإنسان في الدنيا، مشروطاً بالموت كافراً؛ الأمر الذي يوحي بأن هناك فرصة للتوبة. وإذا كانت هناك فرصة للتوبة، فهناك فرصة للاستجابة من قِبَل الحاكم الشرعي، لأنه لا معنى لتشريع المبدأ من دون أن يأخذ طريقه في حياة الناس.

وقد جاء في سورة النساء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا ثُمَّ يَكُنِ اللَّهُ لِعَفْوِهِمْ وَلَا لِهَيْدِهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] وفي هذا إيحاء بأن المشكلة في مصير هؤلاء هو إصرارهم على الكفر في الدنيا حتى الموت؛ فإذا رجعوا عن الكفر وآمنوا من جديد، فلا مشكلة لهم عند الله في الدنيا والآخرة. ولا فرق في ذلك بين المرتد الفطري الذي ولد على فطرة الإسلام من أبوين مسلمين، والمرتد الملّي الذي كان كافراً ثم أسلم ثم كفر، فإن الآيات — بأجمعها — توحى بقبول التوبة منهم من قِبَل المجتمع الإسلامي

الذي يدعوهم إلى الرجوع إلى الإسلام من جديد .

وقد لا نستطيع أن نتعقل رفض الله إسلام المرتد، بعد رجوعه عن الارتداد، لا سيما إذا كان ارتداده لشبهة أو لنزوة أو لخضوعه لضغط عام أو خاص، فإن الله يريد للناس أن يرجعوا إليه، ويؤمنوا به، ويلتزموا خطه في جميع الحالات، ولا معنى للحديث عن قبول التوبة في الآخرة وعدم قبولها في الدنيا، لأن التوبة في الدنيا هي الأساس في نتائج الآخرة، حسب المستفاد من المنهج العام في القرآن في هذه الأمور .

وقد جاءت في السنة أحاديث كثيرة تدل على عدم قبول توبة المرتد إذا كان فطرياً وقبولها إذا كان ملياً، وهناك نظرية فقهية تقول بعدم سقوط الحدّ عن المرتد الفطري، حتى مع قبول توبته، لأن ذلك مرتبط بفعالية ثبوت الحد عليه؛ فيمكن إبقاء مسألة بينونة زوجته وتقسيم تركته وقتله على حالها حتى بعد التوبة، فلو بقي على قيد الحياة ولم ينفذ فيه الحد، كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم من الحقوق والواجبات . وهناك قول بقبول توبته، بعد استتابته، سواء كان فطرياً أم ملياً، ويبقى إجراء الأحكام عليه في حال الإصرار على الارتداد، وهذا بحث فقهي لا بد من أن يرجع فيه إلى الفقه، فنحن هنا بصدد البحث التفسيري الذي يحاول استنطاق القرآن في المفهوم الإسلامي في هذه المسألة أو غيرها .

* * *

الدلالات والإيحاءات

ونريد هنا — في نهاية المطاف — أن نستوحي بعض ما يمكن استيحاؤه من هاتين الآيتين، لتتحرك الفكرة في حياتنا كما تحركت في حياة المسلمين الأولين، وذلك في ضمن نقاط :

زمن السلام

١ — إن الإسلام قد أقر فكرة «زمن السلام» كحقيقة دينية مقدسة، لتكون واحدةً زمنيةً يستريح فيها الناس من المشاكل والخلافات والحروب، ويعيدون النظر في ما عاشوه ومارسوه في ضوء النتائج المرعبة التي تؤدي إلى إزهاق النفوس، وتلف الأموال، وتحطيم العلاقات الإنسانية على أساس الحقد والبغضاء. وبذلك، تفتح هذه العلاقات في اتجاه سليم يركز قواعد المحبة والسلام ما أمكن ذلك، وهكذا يمكن لهم أن يحصلوا في فرص السلام على ما لم يحصلوا عليه في فرص الحرب. ولا بد للمسلمين من أن يأخذوا بهذا التشريع في علاقات الحرب والسلام في المجالات التي يملكون فيها أمر تقرير أحدهما في المعركة، ما لم يكن هناك ظروف ضاغطة تفرض فيها طبيعة الموقف أن يستمر القتال من أجل الوصول إلى نتائج حاسمة في نطاق القضية الإسلامية الكبرى.

* * *

التزاحم بين الحكامين

٢ — إن القاعدة العقلية التي أقرها الفكر الإسلامي الفقيه، انطلاقاً من آيات الله وسنة رسوله، تفرض اختيار الجانب الأهم في حسابات المصالح والمفاسد إذا تعارض حكمان شرعيان يأمرنا أحدهما بشيء وينهانا الآخر عنه ولم يكن هناك مجال لامتثالهما معاً، لأن الحكم الشرعي ينطلق من المصلحة الأساسية للإنسان، من خلال ما ثبت لدينا من أن الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد في متعلقاتها. فإذا رأينا المصلحة الأهم في جانب، فمعنى ذلك أن الحكم الذي لا يصل الموقف فيه إلى هذا المستوى من الأهمية، يفقد معناه في

حدود ذلك، وتكون النتيجة تقييد فاعلية الحكم الشرعي وحركته في غير هذا المجال.

وهذا ما واجهناه في الآيات السابقة التي تتحدث عن القتال في المسجد الحرام في ما إذا قاتل المشركون المسلمين فيه، وفي هذه الآية التي تتحدث عن القتال في الشهر الحرام في صور مبرراته الإسلامية. فلو دار الأمر بين أن تهتك حرمة الشهر أو المكان وبين أن تهتك حرمة الإسلام ويسقط صريعاً أو مهزوماً أمام ضربات الكفر، فإن من الممكن أن نتجاوز حرمة الشهر والمكان لمصلحة حرمة الإسلام العليا؛ بل قد يجب ذلك في بعض المجالات، إذ وإن كانت حرمتها جزءاً من التشريع الإسلامي، لكن لا يمكن أن تتقدم على سلامة الإسلام نفسه. وهذا ما يعبر عنه علماء الأصول، بحالة «التراحم بين الحكمين»؛ وقد نجد هذه القاعدة متمثلة في أكثر من مسألة فقهية في نطاق المحرمات الشرعية، التي جاءت الرخصة فيها في بعض موارد، وقد تعددت نماذجها حتى أصبحت بمثابة «القاعدة الثانوية الاستثنائية»؛ حتى قال الأصوليون: «ما من عام إلا وقد حُصَّ»، مما يوحي بأن التخصيصات الواردة في العموميات القرآنية والنبوية تحولت إلى ظاهرة شرعية من خلال تراحم المصالح العامة، والتي يعبر عنها بالخاص في دائرة الخصوصيات الحاكمة على العنوان العام.

وهذا ما نراه في الغيبة التي جاء الاستثناء فيها في قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨] فجعل حالة الظلم الاستثناء من حرمة الغيبة التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] فأطلق للمظلوم الحرية في أن يتحدث عن ظالمه بالسوء من أجل الضغط عليه لرفع ظلمه، باعتبار أن مصلحة رفع الظلم عن المظلوم أكبر من مفسدة

الغبية في إظهار عيب الظالم؛ كما جاء الاستثناء في مقام النصيحة للمؤمنين، لأن إغلاق باب النصيحة في التحدث عن عيوب الإنسان الذي قد يقع الناس في مشاكل كثيرة نتيجة كتمان عيوبه، أكثر من مشاكل الحديث السلبي عنه؛ وفي مقام تجاهر الإنسان بالفسق الذي تمثل الغيبة وسيلة من وسائل الضغط عليه، وإبعاد الناس عن التأثير به من أجل إصلاحه أو إنقاذ الناس من أضراره؛ وفي مقام تتّرس الكفار في الحرب بأسرى المسلمين، ليمنعوهم من الهجوم عليهم، خوفاً من تأدية ذلك إلى قتل إخوانهم، وبذلك يفقد المسلمون فرصة النصر، فأجاز الإسلام قتل الأسرى المسلمين إذا توقف النصر أو الدفاع على ذلك؛ وهكذا نجد ذلك في كثير من الموارد الشرعية.

وهذا باب يفتح على أكثر من قضية من قضايا الناس العامة والخاصة، التي قد تؤكد الفكرة القائلة بأن الغاية الكبرى تبرر الوسيلة المحرمة، بمعنى أنها تجمدها وتنظفها من خلال ارتباطها بسلامة الخط العام، فلا يتجمد الإنسان المسلم في أخلاقياته إذا تحولت إلى خطر على حياته أو على مصير الإسلام والمسلمين، كما لو أريد له أن يتحدث، وهو في سجن الكافرين والمستكبرين، عن أسرار المسلمين السياسية والأمنية والاقتصادية التي يمثل إظهارها خطراً على السلامة العامة؛ فيجب عليه في هذه الحالة، أن يكذب من أجل حماية القضية الكبرى؛ ويحرم عليه الصدق الذي يؤدي إلى السقوط الكبير، لأن الكذب يمثل القيمة السلبية الأخلاقية، كما يمثل الصدق القيمة الإيجابية الأخلاقية في الخط العام.

لا يجوز للإنسان أن يكذب باختياره، بل يجب عليه أن يأخذ بالصدق في أحاديثه في الحالة الطبيعية العامة، لكن الحالات الطارئة الضاغطة تفقد الكذب سلبيته ليكون قيمة إيجابية كما تفقد الصدق إيجابيته ليكون قيمة سلبية، لأن المسألة في السلب والإيجاب لا تنطلق من الطبيعة الذاتية للصدق والكذب، بحيث يكون علة تامة للسلب هنا أو للإيجاب هناك، بل تنطلق من

الحالة الاقتضائية المنفتحة على النتائج بشكل عام، ولكنها قد تصطدم ببعض الموانع التي تمنعها عن التأثير في المقتضى بدرجة فعلية. وهذا ما يجعلنا نؤكد أن الأخلاق في الإسلام لا تمثل قيمة إيجابية، بل تمثل قيمة سلبية قابلة للتغير في حركتها في الواقع الإنساني تبعاً للعناوين الثانوية الطارئة التي تختلف الأحكام الشرعية باختلافها.

ولا بد في هذه الحالة من التدقيق كثيراً في المواقف والقضايا قبل الدخول في عملية الموازنة بين الأحكام، لأن المسألة تحتاج إلى وعي عميق واسع في فهم أسس الحكم الشرعي وفي فهم الواقع الذي يتحرك فيه، ولا يمكن إخضاعها للأفكار السريعة الانفعالية في مواجهة الواقع في ضغوطه العملية على حركة الإنسان في الحياة.



صراع المسلمين مع قوى الكفر مستمر

٣ - إن الآية توحى للمسلمين بأن عليهم أن ينطلقوا في الحياة على أساس وعي الحقيقة التالية، وهي أن قوى الكفر والشرك تخطط لإخراج المؤمنين عن دينهم بكل الوسائل والقدرات التي يملكونها، بحيث انهم يبادرون إلى الدخول في قتال مستمر لتحقيق هذه الغاية، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْسِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ فلا بد لهم من أن يستعدوا لمواجهة هذه الخطط بالوسائل الوقائية والدفاعية، ليحفظوا إيمانهم الذي يمثل القاعدة الصلبة لنجاتهم في الدنيا والآخرة، لأن القضية التي يعالجها القرآن ليست قضية تاريخية تخضع للظروف المحدودة الموجودة في التاريخ، بل هي قضية مستمرة ما دام هناك كفر وإسلام، وحق وباطل؛ وما دامت التحديات تفرض نفسها على الساحة، مما يجعل من هدف إضعاف الكفار للدين بإضعاف

القاعدة الدينية، وبإخراج الناس من دينهم وإضلالهم وإبعادهم عن الخط المستقيم، هدفاً يومياً لكل القوى المعارضة للدين، من خلال الوسائل المتنوعة المادية والمعنوية، مما يجعل من عملية الاستعداد للمواجهة عملاً يومياً للمؤمنين لا مجال فيه للشعور بالأمن، ولا للاستسلام والاسترخاء، ولا للوقوف فيه على موقع هدنة.

وهذا ما واجهه المسلمون، ولا يزالون يواجهونه، من مخططات الكفر الذي يستهدف عزتهم وكرامتهم ومواردهم الطبيعية وثقافتهم ووعيهم الشامل للامتداد الديني في خط الحياة، بمختلف الوسائل الثقافية والتربوية والسياسية والاجتماعية والعسكرية. وقد ساهم ذلك في كثير من الفجوات الواسعة في حاضر المسلمين ومستقبلهم، وأدى إلى إحداث بعض الأوضاع الشديدة الباعثة على الاهتزاز والانحراف.

وقد يختلف الحال، في ما لدينا من وسائل العمل، عما كان الأمر عليه في صدر الدعوة الإسلامية، ولكن المبدأ لا يزال واحداً من حيث الدوافع والأعمال. وذلك هو سبيل الوعي الإسلامي الذي ينطلق من فهم المسؤولية وفهم الواقع الذي يحيط به، في ما يريده الله لعباده المؤمنين في الحياة.

* * *

الإيمان قيمة كبرى

٤ — إن قضية الإيمان والكفر هي قضية الحياة الواسعة بكل امتدادها وعمقها، فلا يمكن للإنسان أن يتسامح بها، أو يعيش أجواء اللامبالاة معها، أو يعتمد على عمل صالح بعيد عن خط الإيمان؛ كما يفعله البعض ممن ينطلقون في تقييم الأعمال من موقعها الذاتي لا من موقعها الإيماني، فيتحركون على أساس اعتبار الإيمان شيئاً غير ذي قيمة كبيرة؛ وقد يدفعهم

ذلك إلى تفضيل الكافرين على المؤمنين لبعض الأعمال الصالحة عند أولئك، ولبعض الأعمال السيئة عند هؤلاء، مع أن القضية لا تسير في هذا الاتجاه إسلامياً - كما توحيه الآية -.

لا بد من دراسة إحياءات الأسلوب الذي واجه به المشركون من قريش قتال المسلمين لبعض المشركين في الشهر الحرام، بالدعاية المضادة التي حاولوا فيها تشويه صورة المسلمين بأنهم لا يرعون للمقدسات حرمةً، فيسفكون الدم الحرام، ويتهكون حرمة الشهر الحرام بالعدوان على الناس بأخذ الأموال وأسر الرجال ونحو ذلك.

فقد نلاحظ أن أعداء الله من الكافرين والمستكبرين يعملون على الاستفادة من بعض الأخطاء التي يقع فيها المسلمون من خلال الغفلة، أو الظرف الضاغط عليهم الذي يفرض عليهم الوقوع في الخطأ، أو الاجتهاد الحركي في النظرة إلى الواقع في مواجهة القوى الطاغية التي تصدر حرباتهم، وتضعف مواقعهم، وتهدد وجودهم ومصالحهم ومواقعهم، وتعمل على أن تحشرهم في الزاوية الحرجة، فيلجأون إلى تجاوز الأساليب المألوفة في الصراع إلى أساليب أخرى لا تمثل قيمة أخلاقية في المطلق، ولكنها تمثل قيمة أخلاقية في الحالة الطارئة - في الخط العام - باعتبار أن التخفف من خطر الضغط الكافر أو الاستكباري لا يمكن الوصول إليه إلا بهذه الطريقة.

وهنا يقف الإعلام الكافر أو المستكبر ليشير حرباً إعلامية شعواء على الإسلام والمسلمين، على أساس إلصاق تهمة الإرهاب الوحشية والإساءة إلى حقوق الإنسان، وليخفي كل الظروف التي فرضت عليهم ذلك، مما يمثل تبريراً في الواقع الإنساني في العام، لأن القضية - عندهم - أن يشوهوا الصورة العامة للإسلام والمسلمين، بعيداً عما هي الحقيقة في طبيعة الملامح الحقيقية لحركة الصورة في الواقع.

إنهم يقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الدفاع عن الحرمات والمقدسات، وذلك في دائرة حرمتهم ومقدساتهم، ولا يسمحون لأحد بالحديث عن انتهاكهم لحرمات المستضعفين — من المسلمين وغيرهم — بل يحاولون تبريرها بعنوان الدفاع عن الحضارة والإنسان، لأنهم يرون أنهم وحدهم أصحاب الحق الحضاري في الوجود، أما الآخرون فهم الهوامش التي لا ضرورة لها في أكثر الحالات إلا بالمقدار الذي يحفظ حياتهم.

إن علينا أن نستوحي من الآية الكريمة الثقة بالموقف، والابتعاد عن كل الحرب النفسية التي يشتونها علينا باسم القيم الإنسانية الكبرى؛ بل أن نواجه ذلك بكل قوة، انطلاقاً من وعي الأسس التي يركز عليها العاملون في سبيل الله في خط المواجهة والوقوف عندها، في دراسة دقيقة للسلبات والإيجابيات، والاقتصار بها على ظروفها الخاصة، لنؤكد للجميع أن الإسلام لا يريد للعدوان أن يأخذ حريته في الاعتداء على الناس من دون أن يقفوا بقوة الرد عليه، ويطوروا أساليبهم في هذا الاتجاه، فلا يقتصروا على وسيلة واحدة، بل يمكن لهم أن يستوحوا الشرع في تنويع الوسائل، حتى التي لا تملك شرعية في ذاتها، ولكنها تملكها بلحاظ حالات الطوارئ الضاغطة. فإن الإسلام يؤكد القيمة ما دامت في مصلحة الإنسان. فإذا تحولت إلى خطر عليه، أسقطها وجعل القيمة في الاتجاه الآخر.

ولا بد للعاملين في الدعوة إلى الله في دائرة الإعلام السياسي والثقافي من توعية المسلمين، لا سيما البسطاء والساذجين منهم، حتى لا يقعوا في قبضة الإعلام الاستكباري باستثارة القيم الروحية والأخلاقية الإنسانية في وجدان المسلمين، ليقفوا ضد إخوانهم المجاهدين عندما يقومون ببعض الأعمال التي ينطلقون بها في خط الشرعية على أساس فهمهم للواقع، فيتهمونهم بانحرافهم عن الإسلام، كما يحدث ذلك في مرحلتنا الحاضرة، التي يعيش فيها المسلمون الحركيون في صراع دائم مع القوى الاستكبارية في

الداخل والخارج، ويعيشون الضغوط الهائلة التي تضغط على حرياتهم وحركتهم لمنعهم من أن يؤكدوا القوة الإسلامية التي تجعل الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة، من دون أن يفهم المسلمون خلفيات هذه الأعمال، لأن الإعلام المستكبر هو الذي يتولى مهمة توزيع الاتهامات وإصدار الأحكام.

إن من واجب القائمين على شؤون الدعوة الإسلامية أن يقوموا بتثقيف المسلمين بالحدود الفاصلة بين الحالات الطبيعية، في العناوين الأولية في الأحكام الشرعية، والحالات الاستثنائية الصعبة في عناوينها الثانوية التي قد تحلل ما كان محرماً، وقد تحرم ما كان حلالاً، فإن التوعية الإسلامية الثقافية قد تفوت على المستكبرين والكافرين كل الفرص التي يستغلونها للإضرار بالإسلام والمسلمين، بينما يتحرك الجهل، والسذاجة، والخواء الثقافي، ليمنحهم أكبر فرصة للوصول إلى أهدافهم الشيطانية الاستكبارية.



الآيتان

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ
وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتَكُمْ إِنْ اللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

* * *

معاني المفردات

﴿الْخَمْرُ﴾: أصله الستر، ومنه: الخمار للمقنعة. ودخل في خمار
الناس، أي: في كثير الذي يستتر فيه. ويقال: خامره الداء: إذا خالطه،
وخمرت الإناء: إذا غطيته. وفي الشرع: كل مائع مسكر، سواء أخذ من
العنب أو الزبيب أو التمر، وكل مشروب كحولي. وربما كان إطلاق الخمر
على المسكر بلحاظ تغطيته على العقل وسلبه القدرة على التمييز بين الضرر
والنفع.

﴿وَالْمَيْسَرِ﴾: القمار. اشتق من اليسر، وهو وجوب الشيء لصاحبه، من قولك: يسر لي هذا الشيء. ييسر يسراً وميسراً إذا وجب ذلك، والياسر: الواجب بقдах وجب لك أو غيره. يقال: يسرته، إذا قمرته. واشتقاقه من اليسر، لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد أو تعب؛ أو من اليسار، لأنه سلب يساره.

وكانت صفة الميسر، في الجاهلية، أنهم كانت لهم عشرة أقдах، وهي الأرقام والأفلام: الفذ، والتوأم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسيل، والمعلی، والمنیح، والسفيح، والوغد؛ لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونه ويجزئونه عشرة أجزاء، وقيل: ثمانية وعشرون جزءاً إلا لثلاثة، وهي المنیح والسفيح والوغد. للفذ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسيل ستة، وللمعلی سبعة؛ يجعلونها في الربابة - وهي خريطة - ويضعونها على يدي عدل، ثم يجعلجلها ويدخل يده، فيخرج باسم رجل قداً منها. فمن خرج له قده من ذوات الأنصباء، أخذ النصيب الموسوم به ذلك القده؛ ومن خرج له قده مما لا نصيب له، لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البرم.

وقد تطورت آلات القمار وتنوعت وسائله، وقد عُدَّ منها الشطرنج والنرد اللذان كان الناس يلعبون بهما بطريقة القمار، بحيث كان للرايح فيهما عوض معين. وهكذا نجد أن مفهوم الميسر يلتقي مع كل لون من ألوان اللعب بالآلات القديمة والجديدة، على أساس أن يكون للرايح عوض يدفعه الخاسر. وجاء عن ابن سيرين: كل شيء فيه خطر فهو من الميسر.

﴿إِثْمٌ﴾: الإثم يقارب الذنب وما يشبهه معنى، وهو حال في الشيء أو في العقل يُبطىء الإنسان عن نيل الخيرات. فهو الذنب الذي يستتبع الشقاء والحرمان في أمور أخرى، ويفسد سعادة الحياة في جهاتها الأخرى.

قال الراغب: الإثم والأثم اسم للأفعال المبطنة عن الثواب. . وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في تناولهما إبطاء عن الخيرات^(١). وأصل الإثم البطء والتأخر.

﴿الْعَفْوُ﴾: مأخوذ من الزيادة. ومنه قيل: حتى عفوا، أي: ازدادوا على ما كانوا عليه من العدد. والمراد به: ما يسهل إنفاقه فلا يبلغ الجهد - وهو التوسط في الإنفاق - وقيل: هو مأخوذ من الترك من قوله: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَّهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: ترك. ومنه: عفوت لكم عن صدقة الخيل، أي: تركتها، فيكون العفو لمتروك لغنى عنه.

﴿تَخَالُطُهُمْ﴾: المخالطة: مجامعة يتعذر معها التمييز، كمخالطة الخل للماء وما أشبهه. والخليطان: الشريكان لاختلاط أموالهما. والخليط: القوم أمرهم واحد. والمراد بها في الآية: المعاشرة على نحو التداخل في الواقع الاجتماعي.

﴿لَاَعْنَتَكُمْ﴾: الإعنت: الحمل على مشقة لا تطاق ثقلاً، وعنت العظم عنتاً: أصابه وهن أو كسر بعد جبر. وأصل الباب: المشقة والشدة.



مناسبة النزول

جاء في المجمع: إن الآية «نزلت في جماعة من الصحابة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر، فإنها مذهب للعقل، مسلبة للمال، فنزلت الآية»^(١).

قد نستوحي من هذه الرواية أن التحريم لم يكن وارداً في التشريع — آنذاك — وأنهم كانوا يعيشون في وجدانهم الشرعي أجواء التحريم من خلال طبيعة النتائج السلبية التي يعرفونها في الخمر والميسر مما يختزنانه من فساد للعقل والمال، وذلك من جهة ما عرفوه من دروس رسول الله ﷺ في ما كانوا يسمعون منه من آيات الله وأحاديثه، أن الله يريد بالناس الخير في تشريعاته الإلزامية على أساس المصالح والمفاسد الكامنة في الأفعال، فهم يتحسسون حرمة الأشياء المضرة في وجدانهم الديني، فيتطلعون إلى النبي محمد ﷺ سائلين عن الحرام في هذا أو ذاك.

وهناك رواية في الكافي توضح بأن تحريم الخمر بشكل صريح حاسم سابق على هذه الآية؛ فقد جاء عن علي بن يقطين، قال: سأل المهدي أبا الحسن - موسى الكاظم عليه السلام - عن الخمر: هل هي محرمة في كتاب الله عز وجل - فإن الناس إنما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها؟ فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرمة في كتاب الله عز وجل يا أمير المؤمنين. فقال له: في أي موضع هي محرمة في كتاب الله جل اسمه يا أبا الحسن؟ فقال: قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]... إلى أن قال: وأما الإثم، فإنها

الخمرة بعينها؛ وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾ فأما الإثم في كتاب الله فهي الخمرة والميسر وإثمهما أكبر كما قال الله تعالى. الحديث^(١).

وقد ذكر صاحب تفسير الميزان: أن آية الأعراف سابقة في النزول على آتي البقرة وآتي المائدة، فإنهما تدلان على النهي الخاص بعد ورود النهي المطلق، على أنه ينافي التدرج المفهوم من هذه الآيات، فإن التدرج سلوك من الأسهل إلى الأشق لا بالعكس^(٢).

ولكننا لا نجد في رواية الكافي دلالة على سبق آية الأعراف على آية البقرة، بل قد تدل على تأخرها عنها وذلك لأن الإمام، في الرواية، استشهد بآية البقرة على انطباق عنوان الإثم بشكل واضح على الخمر، مما يجعل كلمة الإثم في آية الأعراف متعلقاً للتحريم، بدلالة على أن المراد به الخمر، فكأن آية البقرة مهدت لبيان تحريم، من حيث كون الخمر مصداقاً للإثم. والتعبير عن الخمر بالإثم لا يخلو من غموض في فهم المعنى المعين من اللفظ.

وربما يقال: إن الخمر يسمى إثماً في اللغة، كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي

كذاك الإثم يصنع في العقول

والجواب: أولاً: إن الإمام استدل على إرادة الخمر من الإثم — في آية الأعراف — بآية البقرة التي وصف فيها الخمر والميسر بالإثم، ولم يستشهد بكلام أهل اللغة في تسمية الخمر بهذا الاسم؛ مما يوحي بأن ذلك ليس معروفاً في زمن الإمام الكاظم عليه السلام.

(١) الكافي، ج: ٦، ص: ٤٠٦، رواية: ١.

(٢) انظر: تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ١٩٩.

وثانياً: من الممكن أن يكون هذا الشاعر قد استوحى القرآن في هذا التعبير، أو استوحى الكلمة الدالة على أن مضمون الإثم هو حالة في الشيء أو في العقل يبطئ الإنسان عن نيل الخيرات، فأطلقها عليه من باب إطلاق المفهوم على المصداق، لاشتمال الخمر على ما يوجب فساد العقل، لا من باب إطلاق الكلمة على معناها.

وثالثاً: إن ملاحظة صاحب الميزان في إثبات سبق آية الأعراف غير دقيقة، لأن النهي المطلق في آية البقرة وآيتي المائدة كان وارداً بالأسلوب الذي يركز على الأساس السلبي للخمر في العناوين المذكورة التي توحى بالحرية وتأمراً بالاجتناب، بحيث يعيش فيها القارئ الجو الفكري في الخط التشريعي، بينما لا توحى آية الأعراف إلا بالتشريع فقط في الحديث عن تحريمه إلى جانب المحرمات الأخرى، فلا مانع من أن تكون تلك الآية مقدمة لآية الأعراف، باعتبار أنها جاءت حاسمة في بيان الحرمة بلفظها من دون لبسٍ أو إشكال بعد إعداد الجو النفسي المتنوع للمسلمين في هذه المسألة.

ويؤيد ما ذكرناه الرواية الأخرى الواردة في الكافي، بطريق مرسل؛ فقد روى عن بعض أصحابنا مرسلًا قال: **إِنْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾؛** فلما نزلت هذه الآية أحسَّ القوم بتحريمها وتحريم الميسر، وعلموا أن الإثم مما ينبغي اجتنابه ولا يحمل الله عز وجل عليهم من كل طريق، لأنه قال: **﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾** ثم أنزل الله عز وجل آية أخرى: **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [المائدة: ٩٠] فكانت هذه الآية أشد من الأولى، وأغلظ في التحريم؛ ثم تلت آية أخرى فكانت أغلظ من الأولى والثانية وأشد، فقال الله عز وجل: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ**

مُنْهُونَ ﴿ [المائدة: ٩١] فأمر عز وجل باجتنابها، وفسر عللها التي لها ومن أجلها حرّمها. ثم بين الله - عز وجل - تحريمها، وكشفه في الآية الرابعة مع ما دلّ عليه في هذه الآية المذكورة المتقدمة بقوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال الله عز وجل في الآية الأولى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ ﴾ ثم قال في الآية الرابعة: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ ﴾ فخير الله عز وجل أن الإثم في الخمر وغيرها، وأنه حرام؛ وذلك أن الله عز وجل إذا أراد أن يفترض فريضة أنزلها شيئاً بعد شيء، حتى يوطن الناس أنفسهم عليها، ويسكنوا إلى أمر الله - عز وجل - ونهيه فيها؛ وكان ذلك من فعل الله عز وجل على وجه التدبير فيهم أصوب وأقرب لهم إلى الأخذ بها، وأقل لنفارهم منها^(١).

وإذا كانت هذه الرواية مرسلة، فإن مضمونها يتناسب مع مضمون الآيات، مما يبعث على الثقة بصدورها، فتكون حجة على أساس المبنى الذي قررناه في علم أصول الفقه، وهو أن السيرة العقلائية - التي هي الأساس في حجية الأخبار - جارية على اعتبار الخبر الموثوق به لا خبر الثقة بالخصوص، بل إن اعتباره من أجل كونه سبباً للوثوق.

* * *

القرآن والتصدي لقضايا الواقع

في هاتين الآيتين معالجة لعدة قضايا دار الحوار حولها بين المسلمين وبين النبي ﷺ في بعض الأمور التشريعية مما كان يُبتلى به الناس؛ فقد سألو

(١) الكافي، ج: ٦، ص: ٤٠٦، رواية: ٢.

عن الخمر والميسر، وهما من العادات المتأصلة الجذور في حياة الناس آنذاك، مما يجعل من تحريمهما، أو الاتجاه نحوه، مشكلةً اجتماعيةً صعبةً. وكانوا يعتقدون، أو يخيّل إليهم، أن التحريم لا يخضع لمصلحة الناس الحياتية، لأن شرب الخمر يخفف كثيراً من أثقال النفس وهمومها، ويبعد بها عن أحزانها وواقعها السيئ. وربما يجدون في أنفسهم بعض الحاجة إلى الهروب من الواقع المرير إلى واقع لا أثر فيه للمرارة أو للمشاكل، تماماً كما هو النوم في حياة الإنسان، حيث تستريح فيه الأعصاب، ويهدأ معه الفكر، وتتجدد فيه القوى.



طريقة القرآن في إثارة القضايا

وحاول القرآن الكريم — في جوابه عن ذلك — أن لا يتنكر لهذه التصورات، ولا يتعسف في توجيه الحكم الشرعي إليهم، فبدأ بإثارة الجوانب السلبية بإزاء الجوانب الإيجابية ليفكروا فيها بهدوء، ليتحقق لهم التوازن في تصورهم للأشياء وحكمهم عليها، لأن ذلك هو السبيل القويم في سلامة المعرفة من الانحراف تحت ضغط العادة أو المنفعة أو الشهوة؛ وذلك هو قوله تعالى: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٤] فإنه يضع أمامهم التأثيرات السلبية في الحياة الاجتماعية العامة والخاصة، وفي الحياة الروحية التي يعيش فيها الناس مع الله في لحظة العبادة والتأمل، لأن الخمر يذهب بالعقل، فيتصرف الإنسان — معها — بفعل الغريزة التي تجمع الأحقاد وتفجرها في طريقة لاشعورية؛

بينما يساهم القمار في شعور الخاسر بالحقْد تجاه الرابح، لأنه قد أخذ منه ماله دون مقابل. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، يشارك الخمر والقمار من خلال الإدمان عليهما، في إبعاد الإنسان عن الذكر وعن الصلاة، وعلى هذا وجه القرآن الكريم سؤالاً، يقصد منه الاستنكار وطلب الكف عن هاتين العادتين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ [المائدة: ٩١] كإيحاء خفي بأن العاقل هو الذي يبادر بنفسه، من دون حاجة إلى تعليمات خارجية، لترك ما يفسد عليه أمر حياته وقضية مصيره.



القرآن والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات

ثم أراد القرآن الكريم أن يوازن بين الإيجابيات والسلبيات، فيحضرهما في وعي الناس في البداية، ثم يرشدهم إلى الحقيقة الموضوعية، وهي زيادة نسبة الجوانب السلبية في ممارستهما على الجوانب الإيجابية؛ ويترك للعقل الواعي عملية استخلاص النتيجة التي ستكون إلى جهة التحريم، لأن العقل لا يقبل للإنسان أن يرتكب الفعل الذي يضره بنسبة كبيرة، لتحصيل منفعة ليست بذلك المستوى من الأهمية. أما كيف ذلك؟ فإننا قد نجد إلى جانب منفعة الخمر والقمار مفاصد لا تمثل المنفعة القليلة - معها - شيئاً، فهناك المشاكل الصحية والمشاكل الاجتماعية التي قد تحدث كنتيجة طبيعية لغياب العقل في بعض الحالات مع بقاء الإنسان جزءاً من الحياة الاجتماعية في تصرفاته وحركاته، مما يسبب كثيراً من الجرائم والانحرافات العامة والخاصة؛ إذ ليس في المجتمع محاجر عقلية تحجر على المدمن حريته في حال سكره، فلا تدعه

يمارس قيادة السيارة أو غيرها، أو يحمل السلاح، أو يعيش في بيته مع أطفاله، ليتجنب المجتمع من نزوات السكر وانحرافات، كما تفعله مع الذين يفقدون عقلهم نهائياً، في مدة قليلة أو كثيرة. هذا في الخمر.

وأما القمار، فقد نجد فيه - إلى جانب ما ذكرته الآية السابقة - انحرافاً اجتماعياً خطيراً، عندما يتحول الإنسان إلى كسب قوته من طريق القمار تاركاً العمل وراء ظهره، مما يفقد المجتمع معه طاقة كبيرة أو صغيرة نافعة، ويؤدي - بالتالي - إلى تدمير حياة المقامر وحياة أسرته، لأنها لا تركز على أساس متين لاعتمادها على «الشطارة الذهنية» للمقامر أو على غباء ملاعبه.

وهكذا تنتهي عملية التوازن بين الربح والخسارة إلى انخفاض نسبة الربح بشكل كبير جداً، بإزاء ارتفاع نسبة الخسارة بشكلٍ مماثلٍ أو أكبر، ليضع القرآن الناس أمام الحقيقة الكبيرة التي غفلوا عنها، تماماً كما يفعل الذين يتذوقون حلاوة السم، فينشغلون بلذة الحلاوة عما في السم من خطرٍ مميتٍ على الحياة. ثم يوحى - من خلال ذلك - إليهم، بأن التشريع، في ما يخطط من تحريم وتحليل، لا ينطلق من نقطة العبث والالتذاذ بتقييد حرية الآخرين، بل تبدأ انطلاقته وتنتهي في حدود مصلحة الإنسان الخاصة والعامة. فلا تحريم إلا عندما تكون المفسدة أقوى من المصلحة، ولا تحليل إلا عندما تكون القضية على العكس، سواءً في ذلك ما اعتاده الناس وما لم يعتادوه، لأن الحرية في التشريع الإلهي ليست مزاجية تخضع لانفعالات المزاج في حالات اللذة والألم، بل هي واقعية أساسية تخضع للمصالح والمفاسد الحيوية للإنسان في حركة الحياة وقاعدتها الرئيسية.

وعلى ضوء ذلك، فإن القرآن لم يزد شيئاً على تقرير هذه الحقيقة الواقعية في الخمر والميسر، فلم يقل لهم ما يجب عليهم أن يفعلوه بل ترك الأمر للإحساس الفكري الصافي ببداهة النتيجة التشريعية التي تلتقي بالحكم

الإسلامي الحاسم بتحريم الخمر والقمار بشكل أساسي ونهائي، في هذه الآية الكريمة .

* * *

ما موقف الإسلام من الخمر والميسر؟

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ هل للإسلام موقف محدد منهما؟ وهل هذا الموقف سلبي ينطلق في خط التحريم، أو إيجابي في خط التحليل؟ لأن هناك عادة عامة في أوساط الناس في الأخذ بهما، في الوقت الذي يتحسسون حدوث أكثر من مشكلة اجتماعية منهما، ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فهما يختزان في خصوصياتهما الذاتية معنى الذنب، في مضمونه الذي يوحى بالنتائج السيئة التي تؤدي إلى فساد في العقل أو في المال يعطل الوضع الطبيعي المتوازن في الحياة، من خلال الضرر الذي يحدثه في واقع الإنسان في التعقيدات السلبية التي تصيب روحه وعقله، فتقعده به عن الحصول على النمو العقلي والروحي والتوازن في حركته في الحياة.

فإن الخمر يترك تأثيراته على عمر الإنسان، من خلال الأضرار التي يحدثها في الجسد؛ وقد يؤدي إلى الضرر على الجنين الذي يولد من أبوين مدمنين، وإلى الكثير من المفساسد الأخلاقية والأضرار الاجتماعية والاقتصادية، حسب الدراسات الطبية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية. كما أن القمار يترك تأثيره الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي على واقع المدمنين له، فيبعدهم عن العمل المنتج، الذي يحرك طاقة الإنسان نحو الإنتاج في المجالات التي تمثل حاجات الناس في حياتهم العامة والخاصة.

وفي ضوء ذلك، فإن كلمة الإثم تختزن في داخلها معنى الضرر.

والظاهر أن المراد بها الضرر الدنيوي لا الأخروي، لأنه تابع للتحريم الذي تستوجب مخالفته العقاب في الآخرة. وهذا مما لم يكن معهوداً قبل الآية، ليتحدث الله عنه كشيء وجداني معلوم للناس في ذهنيته الشرعية، لأن الغرض أنهم في موقع السؤال عن التحريم كموقف إسلامي فيه الأمر الذي يجعل الضرر الأخروي نتيجة للآية، لا تحليلاً للمسألة وتقريباً للصورة.

وربما يستفاد ذلك من «مقابلة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، فإن النفع — في مفهومه — يقابل الضرر، فهما يتواردان في الأشياء التي يتطلبها الناس لخصائصها الإيجابية أو يكرهونها لخصائصها السلبية، مما يجعل من ذكر أحدهما في مورد قرينة على إرادة مقابلة في مجال المقارنة بين الخصائص الكامنة في الشيء.

وربما كان المراد من المنافع حالة الفرج النفسي الذي يحدث في حالة السكر عندما يدخل الإنسان في غيبوبة ذهنية ضبابية، توحى له بالمرح واللهو والعبث، بحيث يتخفف من قيوده الاجتماعية التي يفرضها عليه عقله، فيبتعد بذلك عن ضغط المشاكل النفسية والاجتماعية والاقتصادية ونحوها، مما يجعل من الخمر سبباً في الهروب من الواقع، بدلاً من أن يكون حلاً للمشكلة وتركيزاً للواقع. أما في القمار، فقد تكون المنافع متمثلةً في الأرباح التي يحصل عليها المقامر — في بعض الحالات — بيسر وسهولة، فلا يتكلف في سبيل الحصول عليها أي جهد أو تعب مما يتكلفه الناس في حركتهم المعاشية في الأسفار البعيدة والأخطار الكثيرة، بالإضافة إلى ما يستتبع ذلك من الحالة النفسية المريحة في حركة اللعب الذي يؤدي إلى الربح.

﴿وَأَنَّهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فإن الأضرار التي تحدث للحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية في جميع مجالاتها، في الخمر والميسر، أكبر من المنافع الحاصلة منهما، لأن الهروب من الواقع، ونسيان المشاكل في لحظات السكر، قد يخدر الآلام الكامنة في الواقع، من خلال مشاكل الإنسان الخاصة والعامة،

ولكنه لا يلغيها، بل قد تعود — بعد الإفاقة منه — بقسوة أكبر وألم أعمق. تماماً كما يحدث للمريض الذي يصرخ من الألم ثم يهدأ بتناول المخدرات، ليعود إلى آلامه بإحساس أكثر قسوة عند انتهاء مفعول التخدير. كما أن النتائج السلبية الصحية والعقلية والاجتماعية الناتجة من السكر تدخله في أكثر من مشكلة تتعب حياته، وتدمرها، وتؤدي بها إلى الهلاك في بعض الحالات.

وهكذا نجد القمار، في قضية المنفعة التي يحصل عليها المقامر في الأرباح الطارئة، فإنها لا بد من أن تلتقي في التجربة الثانية والثالثة وغيرها في اللعب بالخسائر المدمّرة التي تجعل الربح — الذي حصل عليه — لا معنى له أمام خسارته الجديدة التي قد لا يبقى له معها أي شيء.

وإذا كانت المضار أكبر من المنافع، فمن الطبيعي أن يحرمهما الله، ولا يمكن له أن يحللهما من خلال لطفه بعباده الذي يقربهم إلى ما يصلح أمرهم في الحياة، ويبعدهم عما يفسدها في أوضاعهم العامة والخاصة، لأن التشريع وسيلة من الوسائل لإدخال الإنسان في ما يحبه الله من الخير وابعاده عما يبغضه من الشر، ويتصل بالسلامة العقلية والروحية والجسدية للإنسان على الصعيد الفردي والاجتماعي، فالشريعة هي عناوين المصالح والمفاسد الكامنة في أفعال الإنسان، فلا يأمر الله إلا بما فيه صلاح الإنسان، ولا ينهى إلا عما فيه فساد حياته.

ولعل هذه المسألة، وهي تغليب الجانب الأقوى على الجانب الأضعف في مسألة التشريع في التحريم والتحليل، هي الطريقة العقلانية التي يجري عليها العقلاء في قضاياهم السلبية والإيجابية. فإذا كانت المصلحة أقوى من المفسدة في الفعل، كان الموقف إيجابياً لحساب المصلحة؛ وإذا كانت المفسدة أقوى من المصلحة، كان الموقف سلبياً لحساب المفسدة. ونلاحظ — في هذا المجال — أنهم يقبحون للإنسان اختيار ما كان ضرره أكبر من نفعه،

ويذمونه على ذلك، ويعتبرونه سفيهاً، ولهذا يحجرون على أموال السفیه وعلى تصرفاته العقدية، لأنه لا يدرك الفاصل بين المضار والنفع، ولا يتحرك في اتجاه اختيار النفع على الضرر.

وفي ضوء ذلك، نستفيد من هذه الفقرة، أن الله، سبحانه، أراد بيان التحريم بهذه الطريقة، انطلاقاً من الارتكاز العقلاني الذي يتحرك تلقائياً لتقرير النتيجة من خلال هذه القاعدة بتحريم ما يتمثل فيه ذلك في حركة الواقع أو في خصائصه الذاتية.



وقفة مع آراء المفسرين في هذه الآية

وقد ذكر بعض المفسرين، في ما نقله العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، أن آية البقرة ما كانت صريحة في الحرمة. فإن قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لا يدل على أزيد من أن فيه إثماً. والإثم الضرر. وتحريم كل ضار لا يدل على تحريم ما فيه مضرة من جهة ومنفعة من جهة أخرى، ولذلك كانت هذه الآية موضعاً لاجتهاد الصحابة، فترك الخمر بعضهم وأصر على شربها آخرون، كأنهم رأوا أنهم يتيسر لهم أن ينتفعوا بها مع اجتناب ضررها. فكان ذلك تمهيداً للقطع بتحريمها، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَالُغُ الْمُمِينُ * لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * إِلَى قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن

أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿[المائدة: ٩٠ - ٩٤].

وقد ردّه العلامة الطباطبائي؛ «أولاً: إنه أخذ الإثم بمعنى الضرر مطلقاً، وليس الإثم هو الضرر. ومجرد مقابله في الكلام مع المنفعة، لا يستدعي كونه بمعنى الضرر المقابل للنفع. وكيف يمكن أخذ الإثم بمعنى الضرر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ثانياً: فإن الآية لم تعلل الحكم بالضرر، ولو سلّم ذلك فإنها تعلل فعلية الضرر على المنفعة، ولفظها صريح في ذلك حيث يقول: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ وإرجاعها مع ذلك إلى الاجتهاد، اجتهاد في مقابل النص.

وأما ثالثاً، فإن الآية في نفسها قاصرة الدلالة على الحرمة، لكنها صريحة الدلالة على الإثم وهي مدنية قد سبقتها في النزول آية الأعراف المحرمة للإثم صريحاً؛ فما عذر من سمع التحريم في آية مكية، حتى يجتهد في آية مدنية؟! (١).

* * *

ملاحظة على رأي الطباطبائي

ونحن نوافق العلامة الطباطبائي على تأكيده على دلالة الآية على

(١) تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ١٩٨ - ١٩٩.

التحريم، ولكن بطريقة إيحائية بلحاظ الفقرة الأخيرة ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ أَكْبَرَ مِنْ نَّفْعِهِمْ﴾ بالتقريب الذي ذكرناه؛ ولكننا لا نوافقه على إنكاره إرادة الضرر من كلمة الإثم، باعتبار أن مقابلته بالنفع لا يصلح أن يكون قرينة على ذلك، مع عدم إمكان إرادته من الآيات التي ذكرها. فإننا لا ندعي أن كلمة الإثم مرادفة للضرر ولكنها - كما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسير الآية -: «حال في الشيء أو في العقل يبطئ الإنسان عن نيل الخيرات» وبذلك فإن مصداقها يختلف حسب اختلاف موارد استعمالها، فقد يراد منها الضرر كما في هذه الآية، وقد يكون المراد منها المعصية أو الذنب الذي يستحق العقوبة ونحو ذلك. فالمعنى واحد، ولكن حركته في الموارد متنوعة، وقد بينا في ما ذكرناه أنفاً، الوجه في حمل الكلمة على معنى الضرر، كما أننا لا نوافقه في تقدم آية الأعراف تاريخياً على آية البقرة، بل الظاهر العكس، كما ذكرناه.

إن الآية توحى بالتحريم ولكنها لا تدل عليه بشكل صريح، فهي أسلوب تربوي من أساليب إعداد النفس لتقبل التحريم، بإثارة الأجواء الفكرية الداخلية للانفتاح عليه، كما لو كان أمراً طبيعياً يختاره الإنسان بنفسه.



الآية في مستوى القاعدة الفقهية

وقد نستطيع استichاء هذه الفقرة، لتكون قاعدةً فقهية تقتضي تحريم كل ما كان ضرره أكبر من نفعه، حتى لو لم يرد فيه نص، باعتبار أن القضية قد تكون عقلية يحكم العقل بها، ويدرك وجود الملاك الشرعي للتحريم في مواردنا، لقبح ارتكاب ما يكون ضرره أكثر من نفعه، لأنه ظلم للنفس على

مستوى الحالة الفردية، وقد يكون ظلماً للمجتمع بما يحدثه من الأضرار الاجتماعية، كما أنها عقلائية من خلال السيرة العقلائية الجارية في أمورهم العامة على الخاصة على ترك ما كان ضرره أكثر من نفعه.

فإذا كان ما يحكم به العقل يحكم به الشرع؛ وإذا كانت السيرة العقلائية محترمة لدى الشارع في القضايا العامة التي لا تخضع للتعبد من خلال الخصوصيات الخفية التي لا يدركها الناس، بل تخضع للمصالح والمفاسد المعروفة لديهم؛ وإذا كانت الآية قد أكدت المسألة بحيث يمكن القول بأنها تؤكد حكم العقل وتمضي سيرة العقلاء وبناءهم، فإن النتيجة لا بد من أن تكون في مستوى القاعدة لا في مستوى الحكم الخاص. وإذا كان البعض يثير احتمال أن الآية واردة على نحو الحكمة لا على نحو العلة، فإننا نردّ عليه بأن الحكمة النوعية تمثل علة للتشريع العام، على أساس تحقيق المصالح الكبرى للإنسان وإبعاد المفاسد النوعية المهمة عن الواقع، بحيث تنعدم المصالح أو المفاسد الصغيرة أمام ذلك.

وفي ضوء ذلك، نستطيع استيعاء ما ذكر في حكمة تشريع العدة، أنه عدم اختلاط المياه في عملية النكاح من حيث التناسل والتوالد، لأن الزواج بعد الطلاق قد يؤدي إلى الحيرة في إلحاق الولد بالزوج الأول أو الثاني. فإذا كانت هذه الحكمة واردة في التشريع، فيمكن أن تسري إلى كل ما كان من هذا القبيل.

وربما نستوحي ذلك في مسألة تعليل حرمة الخمر بالإسكار؛ فإنها واردة على أساس المسألة النوعية، من جهة الإسكار الفعلي، ولذلك قرر الفقهاء بأن «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، كما قرروا حرمة شرب الخمر في الموارد التي يملك الإنسان فيها المناعة من السكر، لاعتياده عليه بالمستوى الذي لا يؤثر فيه كما في بعض المدمنين ونحو ذلك.

وعلى هذا، فيمكن الحكم بتحريم التدخين الذي ثبت علمياً بأن ضرره أكثر من نفعه، بل ربما يكون مما لا نفع فيه، وقد يتحدث الأطباء الاختصاصيون بأنه، في المسألة النوعية، يؤدي إلى التهلكة لعلاقته بالسرطان أو ببعض أمراض الرئة ونحوها بالدرجة التي يغلب فيها الموت، ويمكن الحكم بتحريم المخدرات كالأفيون والحشيشة والهرويين ونحوها مما ثبت علمياً وحسباً أنها تدمر حياة الإنسان، لأنها تقود إلى الإدمان الذي يتحول فيه الإنسان في أغلب الحالات إلى إنسان مشلول الفكر والحركة والإنتاج؛ وقد نجد أن أضراره من الناحية النفسية والعملية والاجتماعية أكبر من أضرار الخمر بكثير. وهكذا نستطيع - بفضل هذه القاعدة - أن نحكم بتحريم الكثير من الأشياء والأفعال التي تشتمل على هذه الخصوصية التي قررها القرآن في هذه الآية.

إننا نثير هذه الملاحظة الفقهية للمناقشة العلمية، لما تمثله من نتائج مهمة في الشريعة.



الآية في خط الدعوة والتربية

وقد نستطيع استيعاء هذا الأسلوب في حركة الدعوة، بأن نثير أمام الناس إيجابيات القضايا بالإضافة إلى سلبياتها، سواء كان ذلك في المسائل التي يطرحها الإسلام في مفاهيمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، أو التي يؤمن بها الآخرون مما لا يؤمن به الإسلام في شريعته. فإن التأكيد على الإيجابيات في جانبنا، والسلبيات في جانب الآخرين، يوحى بالتعصب للموقع الذاتي ضد مواقع الآخرين؛ بينما يمثل التوازن بين الخطئين الاعتدال والموضوعية والعدالة في النظرة إلى مواقع الخلاف؛ الأمر الذي يجتذب الناس

إلى الإسلام، انطلاقاً من أسلوبه العقلاني الموضوعي القائم على احترام عقل الآخر وموقعه وانتمائه بحيث تكون قضية الصراع قضية تجاذب فكري، وحركة إنسانية في دراسة الأفكار المختلفة ومناقشتها، والتأكيد على أن الحوار الموضوعي هو الأسلوب المنتج في إيصال الناس إلى مواقع الحق في قناعاتنا الفكرية.

وهو أسلوب تربوي لا بد من تحريكه في خط المنهج التربوي، الذي يربي الإنسان المسلم على أن لا ينظر إلى الأمور من جانب واحد، لتكون الحياة دائرة بين الأبيض أو الأسود بشكل مطلق؛ فلننظر إليها من كل جوانبها، فهناك الواقع الذي يحمل اللونين معاً، اللذين قد يلتقي أحدهما مع الآخر بدرجة متساوية، وقد يغلب أحدهما الآخر فيعطي للفعل أو للشئ صورته الغالبة، الأمر الذي يفرض على الإنسان أن يوازن بين الجوانب، ليكون اختياره منطلقاً من دراسة مقارنة، فلا يخضع للحالات الانفعالية السريعة ولا للنظرة الارتجالية العابرة، بل يخضع للعمق الفكري الذي ينفذ إلى جوهر الشئ ولا يقتصر على سطحه، فيكون اختياره خاضعاً للنتيجة الحاسمة في هذه الموازنة بين الأمور.

وهذه الآية توحى بفكرة عامة وهي أنه ليس هناك إيجاب مطلق أو سلب مطلق في الحياة، لأن كل ما في الكون من موجودات وأفعال هو محدود بحدوده الذاتية والزمانية والمكانية. والله — وحده — هو المطلق، لذلك ليس هناك خير لا شر فيه، ولا شر لا خير فيه. فقد يختزن الخير بعض الشر في ذاته، وقد يختزن الشر بعض الخير في مورده، لأن طبيعة الحدود تفرض ذلك؛ فتكون خيرية الشئ برجحان جانب الخير فيه كما تكون غلبة الشر برجحان جانب الشر فيه، ولا قيمة للعنصر المغلوب أو الضعيف هنا في مسألة التشريع.

إن هذه النقطة لا بد من التركيز عليها في ما يواجهه المسلمون من النقد،

الذي قد يوجهه الكافرون من إثارة النقاط السلبية في بعض المفاهيم أو التشريعات الإسلامية، مما قد يجعل الدعاة والمبلغين في موقف حرج شديد الصعوبة، عندما يجدون صحة هذا النقد في واقع الإسلام في مفاهيمه وأحكامه، ولكننا - أمام الملاحظة المذكورة - نجد أن اعترافنا بوجود السلبيات في التشريع أو في المفهوم الإسلامي، لا يعني سقوط التشريع أو خطأ المفهوم، لأن ذلك يمثل واقع الحياة في كل حقائقتها الفكرية أو العملية؛ ولذلك فإن علينا مواجهة المسألة بالحديث عن الإيجابيات الكامنة في داخل الحقيقة الإسلامية، مع غلبة هذا الجانب الإيجابي على الجانب السلبي. وبهذا نتفادى الكثير من المآزق الجدلية ومن ضعف الموقف، لنحوّله إلى مأزق للآخرين وإلى موقع قوة يرتكز على النظرة العلمية الموضوعية للأشياء والمواقف.



الحفو من الإنفاق

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: جاء في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ عن ابن عباس: «أن نفراً من الصحابة، حين أمروا بالنفقة في سبيل الله، أتوا النبي فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما نفق منها؟ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به»^(١).

وسأله عما ينفقون من أنواع الأطعمة والألبسة والأموال، فلم يحدد لهم شيئاً في الجواب، لأن تعيين ذلك لا يمثل شيئاً في حساب القيمة الأخروية عند

(١) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٦٠٧.

٢٣٠ من وحي القرآن ج ٤

الله، ما دامت القضية تركز على حل مشكلة الفقير من خلال التكافل الاجتماعي من جهة، وعلى تربية المؤمن على روح العطاء من جهة أخرى. ولذلك اكتفى بكلمة ﴿الْعَفْوُ﴾ التي تعني الفضل.

﴿قُلِ الْعَفْوُ﴾. وقد اختلف المفسرون في تطبيق هذه الكلمة على الواقع العملي، فقال بعضهم: إنه ما فضل عن الأهل والعيال، أو الفضل عن الغنى. وقال بعضهم: إنه الوسط من غير إسراف ولا إقتار، وهو المروي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام). وقال بعضهم: إنه ما فضل عن قوت السنة^(١)، وهو المروي عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) وقد تلتقي هذه المعاني حول معنى واحد، وهو أن لا يترك تأثيره على حاجاته الأساسية مما يتصل بمسؤولياته عن نفسه وعياله على النحو المتعارف.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالة على حقائق الأشياء مما يتعلق بالتشريع في مسؤولياتكم العامة والخاصة، فتتعرفون حكمة الله في تشريعاته في أقوالكم وأفعالكم، ليظهر لكم كيف يريد صلاحكم. كما يبين لكم الآيات المنتشرة في الكون في كل مخلوقاته الجامدة والنامية والحية التي تكشف لكم عن عظمة الإبداع وسر الخلقة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وتهتدون بالفكر المتحرك الباحث عن كل حقيقة في الأرض وفي السماء وفي الحياة والإنسان، فتحصلون على الثقافة العلمية التي تنمي مدارككم وفهمكم وافتاحكم على حقائق العقيدة والإيمان، ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ لتعرفوا كيف هي الدنيا في نطاق مسؤولياتكم من حيث هي دار ممر لا دار مقر، وساحة عمل لا ساحة لهو وعبث، ومزرعة للآخرة لا غاية في ذاتها، لتتحركوا فيها في ما تفعلون وتركون في هذا الاتجاه لتحقيق تلك الغاية. ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ التي هي دار الحيوان والخلود، فسعادتها هي السعادة وشقاؤها هو الشقاء، فلا بد لكم من الاستعداد لها لتواجهوا نتائج المسؤولية بين يدي الله.

وهذا هو الإيحاء الإيماني الدائم، الذي يوحى به الله للإنسان، ليكون على وعي دائم لنفسه ولحركته في الحياة في الدنيا والآخرة، بعيداً عن أية حالة غفلة أو نسيان.

وهناك نقطة ثانية، لا بد من الانتباه إليها، وهي أن الدعوة إلى التفكير التي تشمل العمل على أساس الوصول إلى معرفة حكمة التشريع وعلل الأحكام، توحى بأن الإسلام لا يريد للإنسان أن يتعد عن السعي للتعرف على المفاهيم الإسلامية والعقائد الإيمانية والأحكام الشرعية، وذلك كي يصل إلى حقائقها وأسرارها بالفكر العميق، ليزداد بذلك إيماناً وهدى، فلا يكلف الإنسان الإنفاق من ضرورياته المعاشية، بل يكفيه - في إطاعة هذا التشريع - أن ينفق مما يزيد عن حاجاته الأساسية، وبذلك كان الإسلام منسجماً مع الطبيعة البشرية التي قد لا تستجيب للإيثار دائماً، وإن كانت قد تسير معه في بعض مراحل الحياة. وقد كان ختام الآية دعوة للتفكير في آيات الله التي يبينها للإنسان، ليفكر فيها فيهتدي بها إلى سواء السبيل.



ويسألونك عن اليتامى

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ كيف تكون علاقاتهم معهم، في ما يفعلونه في أموالهم وتربيتهم ورعايتهم؟ فقد كانوا يمثلون مشكلة أساسية في الضمير الديني للإنسان المسلم، فقد يتحرج الكثيرون من التعامل معهم خوفاً من الإثم.

فقد جاء في الدر المنثور، قال ابن عباس: لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَامَى إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾

[النساء: ١٠] الآيتين، انطلق كل من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه. فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيجلس له حتى يأكله أو يفسد فيرمي به، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم^(١).

فكان الجواب تحديداً للخط العام والإطار الشامل لذلك: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ فلا بد من دراسة كل أمورهم في نطاق الإصلاح لديناهم وآخرتهم، لأنهم أمانة الله لدى المجتمع، فعلى أفرادهم أن يراعوا جانب الصلاح معهم، كما يراعون ذلك في جانب الأمانة العادية في ما يتعلق بحفظها ورعايتها. وقد تكون القضية أبعد عمقاً وتأثيراً في جانب اليتامى، لأن إصلاح أمر الإنسان الذي لا يملك تدبير شؤونه ورعايتها قد يدخل في تعقيدات كثيرة تحتاج إلى المزيد من الدقة والتأمل والإيمان، لئلا يفسد الإنسان الأمر من حيث يريد إصلاحه، أو يفسد الأمر الصالح من حيث لا يريد إفساده.

ثم أكد القضية من جهة أخرى، فأثار أمامهم موضوع المخالطة لهم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، وأراد من المسلمين أن يخالطوهم من موقع الشعور بأنهم إخوة في الدين، كما يخالط الأخ أخاه في النسب من حيث احترامه له ورعايته لأمواره، وحفظه لماله على هدى قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْظُلْمِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]. وأن لا ينظروا إليهم نظرة فوقية إشفاقية من خلال ضعفهم الطبيعي وحاجتهم الملحة إليهم؛ فإن ذلك يثقل على نفوسهم، ويهدم معنوياتهم، ويُعقّد حياتهم، ويعطل نموهم الطبيعي في الحياة. وربما كانت هذه الفقرة واردة في الإذن لهم في ما كانوا يتخرجون فيه من مخالطتهم في المأكل والملبس والمشرب ونحو

ذلك، ورخصة لهم في ذلك إذا تحزوا الصلاح بالتوفير على الأيتام. وعن الحسن وغيره. وهو الوارد والمروي في أخبارنا - كما في مجمع البيان^(١) -.

وتختتم الآية الجواب بتعميق الإحساس بقضية الممارسة الواعية لإصلاح أمر اليتامى؛ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، وذلك بالإيحاء بأن الله يراقب عمل الإنسان في داخل النفس وخارجها، ويعلم المفسد من المصلح في ما يقوم به من الإفساد والإصلاح، ويحاسب كلا منهما على ما عمله من خير أو شر.

ثم أكد عليهم بأن الله يريد للناس من خلال تشريعاته أن يحقق لهم الانسجام والراحة والطمأنينة، فتلك هي مشيئته في ما يريد للناس من حياة، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لأوقعهم في العنت، وهو المشقة. وفي ضوء ذلك، لا بد للإنسان من أن يفهم التشريع في كل ما يحلله وما يحرمه من أمور الحياة، حتى في الأمور التي يشعرون معها بالتعب والمعاناة، فإن نتائج ذلك لا تبعد عن مصالحهم الحقيقية.

وكانت خاتمة الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ باعتبار أن عزته توحى بقوة مشيئته، كما أن حكمته توحى بارتباط التشريع بمصلحة الإنسان.

وقد يستوحي الفقيه من قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِصْلَاحُكُمْ خَيْرٌ﴾ أن التصرف في أمر اليتيم، سواء كان متعلقاً بماله أو بحياته الخاصة والعامة، لا بد أن تكون فيه مصلحة له، لأن ذلك هو الذي يتبادر من قوله: ﴿إِصْلَاحُكُمْ﴾ كما يتبادر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَلَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فلا يكفي في شرعيته أن لا يكون ذلك مفسدة له، ولا بد من التأمل في ذلك، وفي

كل مورد من موارد الولاية الشرعية المفعولة للإنسان على القاصر الذي لا يملك إدارة شؤون نفسه وتدبير أموره؛ فإن القضية تتصل بإصلاح أمره، وتنمية ماله، وتوجيه حياته نحو النتائج الجيدة التي تحقق له المصلحة في كل أموره.



الآية

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ
مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ
بِإِذْنِهِ ۚ وَيَبَيِّنُ ٱلْآيَاتِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

* * *

معاني المفردات

﴿تَنْكِحُوا﴾: قال الراغب: أصل النكاح العقد، ثم استعير للجماع، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد، لأن أسماء الجماع كلها كنايات، لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه^(١).

والظاهر أن المراد بالعقد هو علاقة الزوجية، لا العقد اللفظي المعهود

(١) مفردات الراغب، ص: ٥٢٦.

كما ذكر في الميزان^(١).

﴿الْمُشْرِكَةِ﴾: اسم فاعل من الإشراف، بمعنى اتخاذ الشريك لله سبحانه، وهو ذو مراتب مختلفة من حيث الظهور والخفاء.

﴿وَلَأَمَةٌ﴾: الأمة: المملوكة التي تقابل الحرة، وقيل: المرأة لأنها أمة الله.

﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾: راقى لكم، وعظمت بعيونكم لجمالها أو مالها أو حسبها. والعجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولذلك قيل: إذا عرف السبب بطل العجب.



مناسبة النزول

جاء في مناسبة النزول — كما في مجمع البيان — أنها «نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي؛ بعثه رسول الله إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان قوياً شجاعاً، فدعته امرأة يقال لها عناق إلى نفسها، فأبى وكانت خلة^(٢) في الجاهلية، فقالت: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: حتى أستأذن رسول الله. فلما رجع، استأذن في التزوج بها، فنزلت الآية^(٣)».



(١) انظر: تفسير الميزان، ج: ٢، ص: ٥٢٦.

(٢) الظاهر سقوط الضمير من اللفظة، والصواب: خلت.

(٣) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٦٠.

الزواج بين الرغبة العاطفية والمصلحة الواقعية

في هذه الآية تأكيد على الأساس التشريعي للحكم بحرمة تزويج المشركات للمؤمنين وحرمة تزويج المؤمنات للمشركين. وهو التباين في النظرة بين المؤمنين وبين المشركين، مما يوجب التباين في السلوك وفي الهدف، فينعكس على الحياة الزوجية التي يجب أن تخضع للمودة والرحمة القائمة على وحدة التصور، ووحدة الشعور بالهدف. فالمؤمنون يسرون في اتجاه دعوة الله إلى الجنة، التي تقتضي نمطاً في السلوك وفي التفكير يختلف مع النمط في السلوك والتفكير الذي تقتضيه دعوة المشركين إلى النار. فكيف يمكن أن يتحقق الإخلاص للحياة الزوجية مع الالتزامات الروحية والفكرية والحياتية التي تفرضها العقيدة؟.

وقد يجدر بنا أن نفهم من الآية الكريمة، أنها لم تجعل النهي عن الزواج — هنا — على أساس التعسف، كما ربما يتوهمه بعض الناس، حيث جعل الحكم ثابتاً حتى لو كان على خلاف رغبة الناس وإعجابهم، بل حاولت أن تقود الإنسان إلى الموازنة بين الرغبة العاطفية وبين المصلحة الواقعية للعقيدة والحياة، لينتهي — بالنتيجة — إلى الاقتناع بأن الرغبة لا تمثل شيئاً كبيراً بإزاء قضية المصير للإنسان في الدنيا والآخرة.



من هم المشركون في الآية؟

والظاهر أن المراد بالمشركين، هم الذين يشركون بالله بشكل مباشر، فلا يشمل الذين يتصفون به بشكل غير مباشر، كما يُذكر عن أهل الكتاب الذين

يقولون بربوبية عيسى، أو أن الله ثالث ثلاثة، ولكن بطريقة لا تتنافى مع التوحيد في زعمهم، فإن المصطلح القرآني جرى على التفريق بين المشركين وأهل الكتاب في ما فصل من أحكام، وما أطلقه من لفظ؛ فقد ورد في قوله تعالى، في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] وقوله تعالى، في سورة البقرة: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] فإن العطف يدل على المغايرة بين الفريقين. وفي ضوء ذلك، لا تدل الآية على حرمة التزاوج بين المسلمين وأهل الكتاب، فلا بد من التماس دليل ذلك في غير القرآن، في ما أجمع عليه المسلمون من حرمة زواج المسلمة بغير المسلم من كتابي وغيره، وما اختلفوا فيه من زواج المسلم بالكتابية بين محلل ومحرم.

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقد تبين فساد هذا القول مما ذكرناه في تحديد المراد من لفظ المشركين في القرآن وعدم شمولها لأهل الكتاب، فلا تكون هناك علاقة بين الآيتين في مدلوليهما، لأن آية البقرة واردة في حرمة نكاح المشركات اللاتي يشركن بالله غيره بشكل مباشر، بينما كانت آية المائدة واردة في حلية نكاح الكتابيات دون غيرهن.

فليطلب ذلك من مظانه في الكتب الفقهية التي عالجت هذه المسائل بتفصيل. وتبقى لنا هذه الآية لتركز الخط الإيماني، الذي تقوم عليه العلاقات

الزوجية، من أجل أن تكون أساساً لبناء بيت إسلامي يقوم على المحبة والمودة المرتبطة بالله في أجواء الإيمان والإسلام.

* * *

ولأمة مؤمنة خير من مشركة

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾ فإن الله لا يريد للمسلمين الزواج من النساء اللاتي يعبدن الأصنام ويعتبرنها شركاء لله في حق العبودية، لأن العلاقة الزوجية قائمة على الاتحاد الروحي، والانسجام الفكري بين الزوجين، بالإضافة إلى الاتحاد الجسدي. وهل يمكن قيام اتحاد بين الفكر التوحيدي والفكر الإشراكي، أو حصول انسجام بين قيم الوحدانية وقيم الوثنية؟! فإذا تبدل الشرك بالإيمان وانفتحت قلوبهن على الله وعلى دينه، فلا بأس عليهم من الزواج بهن، من خلال الانسجام الفكري المنفتح على اللقاء الروحي في الحياة المشتركة بينهم.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ المشركة بالصفات المتنوعة التي تجذب اهتمام الرجل وإعجابه، كالمال، والذكاء، والجمال، والحسب، والموقع الاجتماعي، والشرف العائلي، لأن الإيمان يتميز على ذلك كله، لأنه ينفذ إلى عمق الوجدان الإنساني في تصوراتهِ وتطلعاتهِ ومشاعره وأفكارهِ وعاداتهِ وتقاليده وروحيتهِ، مما يترك تأثيره على العمق الداخلي للشخصية الإنسانية، بحيث يفتح العقل على العقل، والروح على الروح، والقلب على القلب، والحياة على الحياة، فتتداخل الشخصيتان، لتؤلفا شخصية واحدة متنوعة الخصوصيات.

إن القيمة الإيمانية بكل عناصرها وامتداداتها وروحياتها، هي الأساس في ثبات الحياة الزوجية بين المؤمنين والمؤمنات. وقد جاء في الحديث

النبي الشريف، أتى رجل رسول الله ﷺ يستأمره في النكاح، فقال رسول الله ﷺ: نعم، انكح وعليك بذوات الدين تربت يداك^(١).

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ لأن المؤمنة لا ترتاح لدين المشرك في شركه، ولا تأمن على دينها معه، ولا تجد في الزواج به السكينة والطمأنينة الروحية والفكرية... ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ المشرك في صفاته الجسدية، والمالية، والاجتماعية، للأسباب ذاتها التي ذكرناها في الفقرة السابقة. وقد جاء في الحديث الشريف: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه وإن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(٢).

وللأسرة والأولاد الدور الكبير في علاقة الإنسان بالسلامة الروحية في الدائرة الزوجية الإيمانية. إن الزوج المؤمن يمنعه إيمانه من الإساءة إلى زوجته، كما أن الزوجة المؤمنة يمنعها إيمانها من خيانة زوجها، لأن الإيمان يمثل الالتزام العميق بالقيمة الأخلاقية والمسؤولية الشرعية، بينما لا يملك المشرك أو المشركة مثل هذه القيمة في أخلاقيات الشرك، لأن الوثنية تُغرق صاحبها في المنفعة المادية التي تتحرك بالإنسان هنا وهناك من دون ضوابط، الأمر الذي يجعل العلاقة الزوجية في حالة اهتزاز دائم، حيث تخضع المسألة للأخلاقيات الفردية الطارئة لدى هذا الإنسان أو هذه الإنسانية، وذلك أن الزوج المشرك أو الزوجة المشركة قد يتميزان ببعض الأخلاقيات الذاتية بمحض الصدفة للحالة الطارئة بعيداً عن العمق الروحي.

إن العلاقة الزوجية هي علاقة من الداخل قبل أن تكون من الخارج. وقد أقامها القرآن على المودة والرحمة، فلا بد لها من قاعدة في الروح تنتج هذين العنصرين الروحيين اللذين يحميان الحياة الزوجية من الاهتزاز والانهيار،

(١) التهذيب ج: ٧، ص: ٤٠١، باب: ٣٤، رواية: ٩.

(٢) البحار، م: ٣١، ج: ٨٨، ص: ٦٠٤، باب: ١١٩، رواية: ١٨.

ولذلك كان من الضروري أن يفكر المسلم أو المسلمة بالعناصر الروحية الداخلية التي تشير الإعجاب الإيماني والعقلي بالإضافة إلى العناصر الخارجية .

﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ لأنهم يدعون إلى الشرك في العقيدة أو العبادة، الذي لا يغفره الله لصاحبه إلا إذا تراجع عنه؛ ويتحركون في حياتهم من دون أية قاعدة فكرية عاصمة من الانحراف الأخلاقي أو الاجتماعي، مما يدفعهم إلى التمرد على كل القيم الإنسانية المنفتحة على التعاليم الإلهية، التي ترتفع بالإنسان إلى الدرجات العليا في السمو الروحي الذي يقترب به الإنسان من الله، وبذلك يستحقون دخول النار فيجرون معهم أزواجهم وذرياتهم وكل الناس الذين يعيشون معهم، ويلتزمون بخطهم الذي يقودهم إلى الضلال المندفع نحو النار.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ أي بأمره، من خلال معنى الإيمان الذي يفتح على الله، وعلى كل مواقع رضاه ومواقع القرب منه؛ الأمر الذي يقود إلى المغفرة في خط التوبة، وإلى الجنة في خط الإيمان والعمل الصالح؛ فيلتقي عليه الناس الذين يلتزمون بالإيمان، ليدخلوا في رحمة الله وجزائه، كما قال الله سبحانه ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ * سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]. وهذا ما ينبغي للإنسان المؤمن أو الإنسانية المؤمنة مراعاته في اختيار الزوجة أو الزوج، حتى تقوده أو يقودها إلى الجنة لا إلى النار، ليقتربا من الله - سبحانه - الذي يهديهم سواء السبيل .

﴿وَبَيْنَ أَيْتِيهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليقربهم إليه من خلال تربيهم إلى الإيمان به من خلال آياته الظاهرة البينة التي تؤدي إلى القناعة، وترتكز على الحجة الواضحة التي لا تسمح لأي لبس أو اشتباه. وذلك هو دور الآيات؛ فإنها تنفذ الإنسان من غفلته، وتدفعه إلى أن يتذكر كل القضايا الحية

المتصلة بحياته وبمصيره، ليتوازن في نظراته إليها وفي التزامه بها في الواقع العملي.



الفارق بين أهل الكتاب والمشرّكين

وقد يستدل بعض الفقهاء بكلمة ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ على حرمة الزواج بغير المسلمين، لأن أي دين أو اتجاه آخر غير الإسلام ليس مقبولاً عند الله وهو خاسر في الآخرة، مما يعني أنه يدعو إلى النار. وفي ضوء ذلك، فإنها تدل على حرمة الزواج بأي كافر أو كافرة، سواء كان كفراً بالله أو بوحدايته أو برسوله أو باليوم الآخر، حتى لو كان الكافر كتابياً.

ولكن الظاهر من الدعوة إلى النار، أنها منفتحة على الشرك الذي لا يغفره الله وعلى الخط الفكري الذي لا يؤمن باليوم الآخر. وهذا قد لا ينطبق على الكافرين بالرسول الذين يلتزمون ديناً آخر كاليهود والنصارى؛ لأن لديهم عناوين توحيدية دينية خاضعة للإيمان باليوم الآخر، الذي تتحدد فيه مواقع أهل النار وأهل الجنة عندهم، مما لا يجعل الموقف لديهم مصداقاً للدعوة إلى النار، بقطع النظر عما إذا كانت دعوتهم الدينية مقبولة عند الله أو غير مقبولة. ولعل ذلك هو ما جعل الإسلام يفرق في أحكامه بين الملحدين والمشرّكين من جهة، وأهل الكتاب من جهة أخرى، لوجود كلمة سواء مع أهل الكتاب ليست موجودة عند الملحدين والمشرّكين، وهي توحيد الله والإيمان بالرسالات، مع الاختلاف في بعض التصورات اللاهوتية والمفاهيم العقيدية والأخلاقية.

الآيتان

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ^١
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ^٢ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا
لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ^٣

* * *

معاني المفردات

﴿الْمَحِيضُ﴾: المحيض: كالمعيش، أي: العيش. وهو لغة: السيلان. وشرعاً الدم الخارج من أقصى الرحم في وصف مخصوص في زمن مخصوص. وقد يراد به مكانه، كما قد يطلق على زمانه؛ وذلك من خلال تفسير المحيض في قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ بذلك.

﴿أَذًى﴾: الأذى: الضرر النفسي أو الجسدي، الدنيوي أو الأخروي. قال الراغب: فسمي المحيض أذى باعتبار الشرع وباعتبار الطب^(١)، وربما كان

ذلك باعتبار القذارة والرائحة الكريهة .

وقد ناقش العلامة الطباطبائي في إطلاق الضرر على الأذى، قال: فإنه لو كان هو الضرر بعينه، لصح مقابله بالنفع، كما أن الضرر مقابل النفع، وليس بصحيح. يقال: دواء مضر وضار، ولو قيل دواء مؤذ أفاد معنى آخر. وأيضاً قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]، ولو قيل: لن يضرركم إلا ضرراً لفسد الكلام؛ وأيضاً كونه بمعنى الضرر غير ظاهر في أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الاحزاب: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فالظاهر أن الأذى هو الطارئ على الشيء غير الملائم لطبعه، فينطبق عليه معنى الضرر بوجه^(١).

وقد يخطر في البال أن الترادف بين الألفاظ لا يوجب استعمال أحد اللفظين في مقابل الآخر، لأن من الممكن أن يكون للمعنى الواحد في لفظ بعض الخصوصيات التي لم تلاحظ في اللفظ الآخر الذي يختزن خصوصية أخرى، كما في كلمة إنسان التي تقال في مقابل الحيوان أو الجن، وكلمة بشر التي تقال في مقابل الملك، مع ملاحظة أن الأذى يمثل جانباً من الضرر، وذلك من خلال النتائج النفسية والجسدية.

﴿فَاعْتَزِلُوا﴾: اجتنبوا. والاعتزال: أخذ العزلة، والتجنب عن المخالطة والمعاشرة، والمراد به في الآية: ترك الاتصال الجنسي بالحائض.

﴿يَطْهَرُنَّ﴾: التطهر: النقاء وانقطاع الدم. أما على قراءة التشديد (يطَّهَرْنَ) فقد تعني الغسل.

﴿تَطَهَّرْنَ﴾: قد يراد به النقاء: من الحيض، باعتبار أنه يؤدي إلى طهارتها منه؛ وقد يراد به: الاغتسال بعد النقاء.

﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان يوضحه ما بعده. واختلف في تشخيص المراد، هل هو المكان الذي أمر الله بتجنبه وهو الفرج، أو الجهات التي يحل فيها مقارنة المرأة في مقابل الجهات التي لا يحل فيها مقاربتها كما إذا كن محرمات أو صائحات.

﴿أَنَّى﴾: من أين شئتم، أو متى شئتم. فإن ﴿أَنَّى﴾ من أسماء الشرط، الذي يستعمل في المكان، ويستعمل في الزمان. وذكر الراغب في مفرداته أنها تأتي للبحث عن الحال والمكان، ولذلك قيل: هو بمعنى أين وكيف^(١). وأضاف إليها في تاج العروس (حيث) وذكر احتمال الآية للوجوه الثلاثة^(٢).

﴿حَرْثٌ﴾: موضع الحرث كالأرض التي تستنبت. شبهت بها النساء، لأنها منبت الولد كالأرض للنبات: فبالنساء زرع ما فيه بقاء الإنسان كما أن الأرض زرع ما فيه بقاء أشخاصهم. قال الراغب في المفردات: الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيئها للزرع، ويسمى المحروث حرثاً. قال الله تعالى: ﴿أَن آغِدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾^(٣) [القلم: ٢٢].

* * *

(١) مفردات الراغب، ص: ٢٥.

(٢) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جوهر القاموس، ت: إبراهيم التريزي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، مادة: أنى.

(٣) مفردات الراغب، ص: ١١١.

مناسبة النزول

روى مسلم والترمذي، عن أنس بن مالك، أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(١).

وروى الشيخان - البخاري ومسلم - وأبو داود الترمذي عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها، أي يأتي امرأته من ناحية دبرها في قبلها: إن الولد يكون أحول، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ الآية وقال مجاهد: كانوا يتجنبون النساء في الحيض، ويأتونهن في أدبارهن مدة زمن الحيض، فنزلت الآية. وروى الحاكم عن ابن عباس قال: إن هذا الحي من قريش كانوا يتزوجون النساء، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات. فلما قدموا المدينة، تزوجوا من الأنصار، فذهبوا ليفعلوا بهن كما كانوا يفعلون بمكة، فأنكرن ذلك وقلن: هذا شيء لم نكن نؤتى عليه، فانتشر الحديث حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ الآية^(٢).

وربما اختلف الفقهاء والمفسرون في استيحاء الآية في مسألة الوطء في الدبر، من ملاحظة روايات سبب النزول، بالإضافة إلى ما فهموه من كلمة ﴿أَنَّى﴾ أو كلمة ﴿حَرْثٌ﴾، لأن الآية نزلت من أجل معالجة الواقع اليهودي، مما كان يعتقد اليهود من إتيان المرأة في القبل من جهة الدبر؛ أو الواقع

(١) الدر المشور، ج: ١، ص: ٦١٨.

(٢) انظر: م.ن.، ج: ١، ص: ٦١٨ - ٦١٩.

القرشي المكي من إتيان النساء في أدبارهن زمن الحيض، فإن استحياء الآية في هذا الجانب أو ذلك على نحو التعيين، يتوقف على تحديد سبب النزول، وليس ذلك من جهة أن أسباب النزول تحدّد مدلول الآية، بل لأنها - في بعض الحالات - قد تفسر بعض إجمالها كما في مثل هذه الآية.



يسألونك عن المحيض

كانت هناك مشكلة تراود المسلمين في علاقتهم بالنساء في حالة الحيض، - وهو الدم الذي تراه المرأة بشكل دوري في موعد معين من الشهر - فقد كانت هناك بعض التصورات والعادات التي تعتقد أن المرأة تتحول - في هذا الوقت - إلى إنسان نجس، فكانوا يمتنعون عن مخالطتها ومؤاكلتها ومشاربتها... مما يجعل منها عنصراً معزولاً عن المجتمع، في ما تذكره بعض الأخبار، وقد كان هذا مصدر حرج شديد على الناس. وجاء الإسلام بتشريعاته المتنوعة في شؤون الحياة، وعاش المسلمون هذه المشكلة في هاجس يلح على الحل الأمثل الذي يخلصهم من هذا الإزعاج، فكان هذا السؤال تعبيراً عن ذلك.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ عن الموقف الذي يتخذه من هذا الدم، الذي تراه المرأة، الخارج منها في العادة الشهرية المعروفة لدى سائر النساء؛ وهو الدم الذي يتجمع شهرياً في العروق الداخلية للرحم من أجل تقديم الغذاء للجنين المحتمل، ذلك لأن مبيض المرأة يدفع كل شهر بويضته إلى الرحم، وفي الوقت نفسه تمتلئ عروق الرحم بالدم استعداداً لتغذية الجنين، فإذا انعقد الجنين، يستهلك الدم لتغذيته وإلا يخرج بشكل دم حيض.

هل تتحول المرأة إلى إنسان قدر لا بد من اجتنابه والابتعاد عنه من

خلال قذارة الدم؟ وكيف يعالجون أوضاعهم مع نسائهم في مثل هذه الحال؟ .
فقد كان اليهود يتشدّدون — كما ذكرنا في أول الفصل — ويفارقون النساء في المحيض في عملية عزل ومقاطعة في المأكل والمشرب والمجلس والمضجع . وهناك في التوراة أحكام شديدة في أمرهن في هذه الحال، وحرّمت التقرب منهن في المجلس والمضجع والمس ونحو ذلك . . . وأما النصارى فلم تكن لديهم مشكلة في أي جانب من هذه الجوانب، بل يجدون حالهن في هذه الحال كبقية الحالات الأخرى .

وجاء الجواب حاسماً يضع القضية في نطاقها الطبيعي ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ .
فإن هذه الحالة لا تزيد عن أية حالة طبيعية من حالات الجسم التي يقتضيها نظامه المحدّد، ولكنها تختلف عن الحالات الأخرى بأنها تتمثل في نزول الدم الذي يحدث حالة من الأذى، التي تلتقي ببعض آلام العادة الشهرية من جهة، وبالقذارة التي تصيب الجسد في هذه الحالة، وبعض الجوانب النفسية الأخرى . . . ولذلك فإنها لا تحدث أي تأثير سلبي في الوضع العام للمرأة في المجتمع، فلا توجب نجاسة جسدها، ولا تؤثر في الجو الذاتي لشخصيتها؛ بل كل ما هناك أنها تجعل من العلاقة الجنسية شيئاً غير مرغوب فيه، من خلال قذارة المحل من جهة، أو من خلال استعداد الجسد لدخول الميكروبات — كما يقول البعض — من جهة أخرى . . . وربما كانت هناك جوانب أخرى تتصل بالحالة النفسية غير المريحة في هذا الوقت . وقد أجمل القرآن هذه المعاني بكلمة ﴿أَذَى﴾ التي تشير إلى الجوانب الصحية والمعنوية .

فقد ذكر البعض — في الطب المعاصر — أن المقاربة، في حال الحيض، قد تؤدي إلى عقم الرجل أو المرأة، وإلى إيجاد محيط لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسية مثل السفلس والالتهابات الداخلية للأعضاء التناسلية للرجل والمرأة، ودخول مواد الحيض المليئة بميكروبات الجسم في عضو الرجل . هذا بالإضافة إلى أن الحيض يحدث آلاماً والتهابات حادة في أعضاء التناسل لدى

الأنثى، مما يجعل من الجماع إيذاء لها من خلال ما يضيفه من الآلام وغير ذلك.

وعلى هذا الأساس، كان الأمر الإلهي باعتزال النساء في حالة الحيض: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، لأن المقاربة بين الزوج وزوجته لا بد من أن تكون في وضع طبيعي من الناحية الجسدية بحيث لا تؤدي إلى ضرر لأي منهما، ومن الناحية الروحية بحيث تنفتح على الراحة النفسية المزاجية في انفعال كل منهما بأجواء الرغبة الجنسية، من دون أية حالة منفرة. وهذا مما لا يتناسب مع حالة النساء في حال الحيض التي تترك أكثر من تأثير سلبي على الطرفين معاً.

﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ وهو كناية عن الترك بأسلوب أكثر تأكيداً، لأن النهي عن القرب أمر ضمني بالابتعاد الذي يوحى بالمقاطعة، ولكنها ليست القطيعة الكلية في عزل المرأة عن المجتمع، بل الاجتناب عن مواقعتها في العلاقة الجنسية، فليس لهم أن يمارسوا العلاقة معهن. وبذلك فقد اقتصر الإسلام على تحديد هذه العلاقة من خلال هذا الأذى الطبيعي، الذي قد يتحول إلى أذى جسدي ومعنوي للرجل والمرأة؛ وأبقى للمرأة وضعها الاجتماعي مع زوجها وأولادها وسائر الناس، فاحترم إنسانيتها لأن هذه الحالة لا تترك أي تأثير على أي عنصر ذاتي من عناصر شخصيتها الفردية والاجتماعية، لأن قذارة عضو في الجسد لا تعني قذارة الإنسان في تفاعله مع المجتمع وتفاعل المجتمع معه، لا سيما في الحالات الطبيعية التي لا تمثل أية حالة سلبية في الإنسان من حيث عقله وحركته الخاصة والعامة. . .

فليس هناك إلا الاعتزال لهن في حال الحيض في العلاقة الجنسية ﴿حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾. والظهور: النقاء من الدم، باعتبار زوال المسبب بزوال السبب، فإذا كان دم الحيض هو الأساس في حرمة الجماع، فلا بد من زوال الحكم بنقاء المرأة من الدم. ﴿فَإِذَا ظَهَرْنَ﴾ وقد يراد به تأكيد القضية الواردة في الفقرة

السابقة باعتبار أن نقاء المرأة من الدم طهور لها، فكأنها تتطهر بالنقاء كحالة طبيعية في الواقع الجسدي وبذلك يجوز للإنسان، على هذا الوجه، مقارنة زوجته بعد النقاء وقبل الغسل. وربما يراد من التطهر الغسل، غسل الحيض، أو غسل الفرج لإزالة القذارة. ولكن الأقرب إلى أجواء الآية، هو المعنى الأول، باعتبار أنها ظاهرة في الرخصة بعد المنع على أساس ارتفاع المانع الموجب للحرمة. أما مسألة غسل موضع الفرج أو الاغتسال، فقد تقتضيهما طبيعة الحالة النفسية التي لا تُقْبَلُ على الموضع القذر إلا بعد غسله. لأن الناس قد يتعاملون مع آثار القذارة في المحل كتعاملهم مع القذارة نفسها، لذلك تراهم يعملون على إزالة الأثر حتى بعد زوال العين. وفي ضوء ذلك، يمكن أن تكون إرادة هذا المعنى — على التقدير الآخر — مطلقة من الحالة الطبيعية للإنسان، لا من خلال الشرط الشرعي للرخصة. وعلى كل حال، فإن الحرمة ترتفع بارتفاع هذا الأدنى وزوال تلك القذارة، فيمكن للناس العودة إلى الوضع الطبيعي في علاقتهم بالنساء.

﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. وهذا أمر وارد على سبيل رفع الحرمة، فلا دلالة فيه على الوجوب، تماماً كما في كل أمر وارد بعد الحظر أو في مقام توهمه. أما تحديد الإتيان بكونه ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فقد يكون المراد منه الإشارة إلى الفرج الذي أمر بتجنبه؛ وقد يفسر بأنه إشارة إلى طبيعة الجماع الذي أمر الله به في تقرير النظام في حياة النوع الإنساني، فليس هو من قبيل الأفعال التي تعيش في هامش الوجود الإنساني، كبعض الأفعال الصادرة منه على سبيل اللغو واللهو، باعتبار أن امتداد هذا الوجود وحيويته متوقفان على ذلك فهو من النواميس الكونية. وفي ضوء ذلك، يكون المراد بالأمر بالإتيان في الآية، الأمر التكويني المدلول عليه بتجهيز الإنسان بالأعضاء والقوى الهادية إلى التوليد، كما ذكره صاحب الميزان^(١). وقد يُراد به — كما عن ابن

الحنفية — من قبل النكاح دون الفجور. وقال الزجاج: معناه، من الجهات التي يحل فيها أن تقرب المرأة. ولا تقربوهن من حيث لا يجب. أي لا تقربوهن وهن صائمات أو محرمات أو معتكفات. وقال الفراء: ولو أراد الفرج، لقال: «في حيث». فلما قال: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ علمنا أنه أراد من الجهة التي أمركم الله بها. وقال غيره: إنما قال: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ لأن (من) لا ابتداء الغاية في الفعل نحو قولك: ائت زيدا من مأتاه، أي من الوجه الذي يؤتى منه^(١).

وربما كان هذا الاختلاف في تفسير القيد ناشئاً من قابلية التعبير لأكثر من وجه، مما جعل للاجتهاد في استيحاء الآية مجالاً واسعاً. ولكننا نلاحظ، في هذه المسألة، أن القيد لا بد من أن يكون وارداً لإفادة معنى جديد مما لا يلتفت الناس إليه غالباً، أو مما يحتاج الناس إلى معرفته ويقتضي التنبيه عليه. وفي ضوء ذلك، نجد الحديث عن «الفرج» كموضع للإتيان ليس من الأمور التي تمس الحاجة إلى تقريره، لأنه المكان الطبيعي للجماع في الواقع الإنساني العام، سواء كان ذلك من جهة الحصول على اللذة أو جهة طلب الولد، فهو المكان الذي يتجه إليه الناس بفطرتهم وطبيعتهم الذاتية. أما القول بأنه وارد في مورد التحذير عن «الإتيان في الدبر»، فهو غير دقيق، أولاً: لأن ذلك موقوف على ورود التعبير بأسلوب الحصر، الذي لا دليل عليه في هذه الفقرة، لا من اللفظ ولا من السياق؛ فهي واردة — على أساس هذا الاحتمال — للرخصة — بعد زوال المانع — في الإتيان في الفرج الذي هو موضع الحيض.

وهذا لا مفهوم له، لأن الأمر بشيء لا يقتضي النهي عن غيره. وقد قرر علماء الأصول أن اللقب لا مفهوم له، وأن الأمر بشيء لا يدل على النهي عن

الضد الخاص .

وثانياً: فإن الحديث عما أمر الله به لا بد من أن يكون — على تقدير إرادته — إشارة إلى أمر سابق بالإتيان في الفرج لا في الدبر، وهو مما لا دلالة عليه في القرآن. أمّا ما ذكره العلامة الطباطبائي من إرادة الأمر التكويني في نظام النوع الإنساني في تقرير الزواج، فليس للفظ ظهور فيه، ولا باعتبار أن هذا النظام جارٍ على سبيل الفطرة الإنسانية الذي ينطلق الناس إليه ويأخذون به من خلال الحاجة الطبيعية التي يريدون تحقيقها في حياتهم لإرادة الشهوة ولطلب الولد، تماماً كما يأكلون ويشربون ويلبسون، لا من خلال اللهو واللغو الذي لا معنى له؛ مما يجعل الحديث عنه لغواً لا فائدة منه، لأنه تقرير لحقيقة واضحة لدى الناس أكثر من وضوح الكلمة في الآية.

وثالثاً: استبعاد إرادة الأمر التكويني في نطاق السياق التشريعي الذي يتحدث عن الأمر والنهي، من الناحية المتصلة بالتشريع في الرخصة والمنع كما هو سياق الآية، بل الظاهر منه الأمر المتصل بالنظام الشرعي للعملية الجنسية.

وربما كان الاحتمال الثالث هو الأقرب إلى الاعتبار وإلى الظهور من خلال القرينة السياقية، وذلك لأن الآية واردة في بيان الحدود التي فرضها الله في علاقة الرجال بالنساء من الناحية الجنسية. فإذا كان الله قد حرّم إتيانهن في حال الحيض، وأمر باعتزالهن، وأراد للناس أن يقفوا عند هذا الحد، فإنه يريد لهم، بعد زوال الحيض، أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية السابقة التي وضع الله لها نظاماً في أوامره ونواهيه؛ فلا يبتعدوا عن نهج الله في شرعه، فيدخل في مدلول الفقرة كل الأوامر المتعلقة بالأفعال والتروك. أي: فأتوهن من الجانب المرتبط بأمر الله، وليس لكم إتيانهن من طريق الحرام. ولعل الفقرة التالية التي تتحدث عن التوايين والمتطهرين توحى بذلك، ولو من بعيد، والله العالم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ الذين إذا وقعوا في المعصية وطاف بهم الشيطان فأبعدهم عن الله، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، وتابوا منها، وأتابوا إليه، ولم يصروا على ما فعلوا... فهؤلاء هم الذين يخترنون في أعماقهم الإيمان بالله والمحبة له والالتزام بطاعته، من دون أية حالة للتمرد التي تتنافى مع الإحساس بالعبودية. وهم الذين لم تنطلق معصيتهم في خطيئاتهم من جحود بالله، ولا استهانة بعقوبته، ولا تهاون بوعيده، ولا استخفاف بأمره ونهيه... بل انطلقت من غفلة العمل وثورة الغريزة، ونداء الجسد ووسوسة الشيطان، فهي حدث عارض في حركة العمق الإيماني في الذات، وليست حالة عميقة مستقرة. ولذلك كانوا أهلاً لمحبة الله من خلال محبتهم له. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ الذين يتطهرون من قذارة الكفر والضلال والذنوب الكبيرة والصغيرة، فيلتقون بالتوَّابين الذين تمثل التوبة لديهم حالة من التطهر الروحي، الذي يتحول إلى حالة من التطهر الجسدي.

والله يريد للإنسان أن يعيش حالة التطهر الجسدي كما يريد له أن يعيش حالة التطهر الروحي، لأن الحياة المستقيمة الطاهرة في نظامها الطبيعي المتوازن في الجانب الفردي والاجتماعي، بحاجة إلى الطهارتين معاً؛ ولذلك أمر الله بهما معاً، فقد تحدث عن الطهارة المادية في أكثر من آية: ﴿وَبِأَنَّكَ فَطَرْتَهُ﴾ [المدر: ٤]، وقوله: ﴿وَيُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال: ١١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾...

وعن طهارة القلب في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكَلِمَةٍ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ

فَتَنَّتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[المائدة: ٤١]﴾. وعن الطهارة الروحية والنفسية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وعن طهارة المال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وطهارة المسجد من الأوثان والشرك: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ وطهارة الماء: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]؛ وطهارة الشراب: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُصْرٌ وَإِسْتَبَقُوا وَحَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ وغير ذلك، مما يوحي بأن الله يريد للإنسان أن يعيش في حياته الطهارة المادية التي تتحول إلى حالة نفسية ترفض القذارة الخبيثة، وتتحول إلى حالة عبادية ترفض التأثيرات المعنوية السلبية الناتجة عن الحدث الأكبر والأصغر، وإلى محيط طاهر نظيف يبتعد به الإنسان عن الأمراض والأوضاع المنفرة الناشئة من القذارات في جسده وفي طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه وفي ما حوله ومن حوله... كما يريد له أن يعيش الطهارة الروحية في الفكر الطاهر، والقلب الطاهر، والعمل النظيف، والقول الطاهر... لتجتمع له في وجدانه الحضاري، وفي نظامه الفردي والاجتماعي كل عناصر الطهارة. وفي ضوء ذلك، كانت محبة الله للمتطهرين، لأنهم أخذوا بأسباب الطهارة التي أمرهم بها في حياتهم الداخلية والخارجية؛ مما يوحي بأنهم يعيشون في عمق الحب لله، من حيث يتحركون في خط طاعته وموقع رضاه.

ولعل مناسبة الحديث عن التوابين والمتطهرين في هذه الآية، في سياق

الحديث عن اعتزال النساء في الحيض، هو أن لا يتعقد الناس مما قد تدفعهم إليه الغريزة من إتيان النساء في حال الحيض، فيرتكبون ما حرمه الله، فيسقطون تحت تأثير الذنب كما لو كان ذنباً لا يغتفر. فانطلقت الآية، لتؤكد لهم أن الله قد فتح لهم باب التوبة؛ فإذا ندموا على ذلك وعزموا على عدم العودة إليه، فإنه يمنحهم محبته التي تنفتح على مغفرته وعفوه ورضوانه. وإذا تراجعوا عن البقاء في القدر المادي والروحي، أحبهم الله ومنحهم مغفرته.

وإذا تحقق للمرأة الطهر؛ وهو النقاء في تفسير البعض، والاعتسال في تفسير آخرين، فيمكن الرجوع إلى العلاقة الجنسية من حيث أمرهم الله. ويختلف المفسرون في هذه الكلمة، فيرى البعض أن ذلك إشارة إلى المكان الطبيعي للجماع، ويرى البعض أنه يعني الوجه الذي أمر الله أن يؤتى منه، من دون ملاحظة لموضوع المحل الخاص، بل يتصل بالحدود التي جعلها الله لذلك. وتختتم الآية الحكم الشرعي بالإيحاء بضرورة التوبة في حالة الانحراف عن الخط الإسلامي في الأحكام الشرعية، وبضرورة التطهر بالابتعاد عن كل الأوضاع التي توجب القذارة الجسدية والروحية، وذلك للحصول على محبة الله الذي يحب التوابين، باعتبار أن التوبة تمثل الشعور بالحاجة إلى رضى الله بعد التعرض لغضبه، ويحب المتطهرين الذين يريدون أن يعيشوا الحياة في طهر جسدي وروحي، ليحصلوا على رضى الله في ذلك.

* * *

المفسرون والفقهاء واختلافهم في كلمة «الحرث»

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. أثار المفسرون والفقهاء في هذه الآية موضوع إباحة العلاقة الجنسية الشاذة بين الرجل والمرأة في نطاق العلاقة الزوجية، فأباحه بعضهم انطلاقاً من هذه الآية التي تبيح إتيان النساء في أي

مكان أرادوه، على أساس تفسير كلمة «أنى» بمعنى من أي مكان، ومنعه آخرون. واختلفوا في وجه المنع، فذهب بعضهم إلى أن كلمة «أتى» بمعنى متى، فتكون واردة لإطلاق الإباحة من ناحية الزمان، بعد أن جاء المنع في زمن معين.

ولكن بعض أهل اللغة يدّعي أن هذه الكلمة لم تأت إلا بمعنى من أين. وذهب بعضهم إلى اعتماد كلمة الحرث دليلاً على أن الإباحة مختصة بالمكان الطبيعي، لأن هذه الكلمة توحى بالزرع الذي يعني الولد في هذا المجال. وحمل كلمة «من أين» التي هي معنى «أتى» على إرادة إثبات المرأة في المحل الطبيعي، ولكن بطريقة معاكسة من الخلف، كما روي أن اليهود كانوا يعتقدون أن الرجل إذا أتى المرأة من خلفها في قبّلها، خرج الولد أحول؛ فكذبهم الله عن ابن عباس وجابر. وناقشهم بعض الفقهاء في ذلك، فقالوا إن استعارة كلمة الحرث لا تتعين بالحمل على الجماع لطلب الولد، فيمكن أن يكون لها معنى آخر.

واختلفت الروايات المفسرة لهذه الآية، واختلفت آراء الفقهاء تبعاً لذلك... ولا يملك الإنسان حجة واضحة في الجانب التفسيري للآية بين هذين الاتجاهين، وإن كان من الممكن أن توجه دلالة المنع في الآية الأولى، على أن القضية في المنع والإباحة هي قضية الزمان لا المكان، لأنه لم يكن مشكلة في هذا الموضوع، إن كانت الآية الثانية مرتبطة بالآية الأولى كما يبدو... إنه مجرد احتمال نثيره، وربما يخطر في البال أن كلمة ﴿أَدْنَى﴾، التي كانت عنوان المنع في الجماع في الحيض، قد تكون أكثر صدقاً وتأثيراً في الوطء في الدبر من حيث الإيحاء بالقذارة من جهة، وإيذاء المرأة من جهة أخرى، فإن الله لم يجعله في تكوينه العضوي معداً لذلك من خلال عضلاته، كما هو الحال في الفرج.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن وجه الشبه لا بد من أن يكون

ملحوظاً في المشبه والمشبّه به في أسلوب الاستعارة. وهذا غير متحقق إلا في الموضع الطبيعي، لأنه موضع النطفة، تماماً كما هي الأرض موضع البذرة؛ مما يوحي بالإعداد النوعي بعيداً عن الغرض الشخصي للرجال. فإن المسألة المطروحة ليست في إرادة الرجل للولد وعدم إرادته له من خلال عملية الجماع، ليقال إن الجماع أعم من ذلك، فيمكن — على هذا — إرادة الحرث بمعنى حركة المحراث في الأرض المستعارة لحركة الذكر في الفرج، بعيداً عن النتائج؛ بل المسألة هي في طبيعة كلمة الحرث التي تختزن معنى إلقاء البذر في المحل، من حيث وضعها اللغوي، مما لا ينسجم إلا مع الموضع الطبيعي للجماع، فلا انسجام من الناحية البلاغية للاستعارة بدونه.

أما توجيه كلمة: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ على هذا الاحتمال، فقد يكون المراد به «من أين». أي: من أية جهة شئتم، في مقابل قول اليهود على ما جاءت به رواية سبب النزول المتقدمة؛ وقد يكون المراد به «كيف شئتم»، أي: على أية حالة تحبونها في كيفية الجماع، من الخلف، أو الأمام، أو بأسلوب معين... يتنوع حسب تنوع الأوضاع التي قد تتعدد بأشكال مختلفة لدى الناس، الذين يعملون على تطوير أساليب الجماع بطريقةٍ بأخرى، مما يتفنن الناس في اختراعه طلباً للتجديد فيه. وقد يكون المراد به «حيث شئتم»، بمعنى في أي مكان شئتم، على أساس حرية الإنسان في ممارسة هذا العمل في أي مكان. ويجمع هذه الوجوه إطلاق الحرية للإنسان في اختيار الوضع الذي يحبه، أو الجهة التي ينطلق منها، أو المكان الذي يمارس فيه، بعيداً عن موضع الجماع لأنه مما لا يحتاج إلى بيانه في المجرى العملي العام، باعتبار أن الحالة الشاذة قد تكون موضع رغبة، ولكنها لا تمثل الرغبة العامة في الوضع الطبيعي. والله العالم.

المرأة بين الوطاء والحرث

وربما يوحي هذا التعبير عن المرأة بأنها «حرث للرجل» بعض الشعور بالانزعاج لدى النساء، لأنه يصورها بصورة الأرض التي تتلقى البذور من خلال آلية الزرع، فتكون البذور هي سر الحياة، بينما لا دور للأرض إلا الانفعال الذي لا يعبر عن ذاتية حيوية في تلك العملية.

وقد يتحدث البعض عن التعبير عن عملية الجنس بالوطء — كما هو التعبير الفقهي للمسألة — الذي يوحي بأن المرأة موطوءة تماماً كما هي الأرض التي توطأ بالأقدام، لتكون صورتها صورة المنسحقة تحت الرجل، مما يحمل أكثر من إيحاء بالمهانة المعنوية، فهي شيء «يحرث» و «يوطأ» ويبقى «تحت الرجل».

ولكننا نتصور، في التعليق على ذلك، أن المسألة التعبيرية لا تتجه هذا الاتجاه، لأن القضية تتصور بالصورة في تشبيه المرأة بالأرض التي تتلقى البذور، لتمنحها كل عناصرها الحية في عملية تفاعل حيّ، فتتحول البذور إلى كائن يمتلئ بالحياة وبالنمو المتحرك الفاعل الذي يتطور في الأرض، ليكون شجرة تنتج ما لذ وطاب من الفواكه والثمار، ويتحرك في المرأة ليكون إنساناً سويّاً ممثلاً بالحيوية والحركة والإرادة والعطاء المميز للحياة. فليس الإنسان وليد البذرة التي يضعها الرجل في رحم المرأة، بل هو وليد المزيج من نطفة الرجل وبويضة المرأة، ثم الغذاء المتنوع الذي تمنحه المرأة للمخلوق المتحرك في رحلة الحياة، تماماً كما هي الأرض في عطائها المستمر للنبته الوليدة حتى تكون شجرة. ويبقى العطاء بعد ذلك للشجرة.

كما يبقى العطاء للوليد بعد الولادة من خلال إرضاع الأم له، الأمر الذي قد يوحي بأن الأم هي التي تعطي الوليد — الإنسان أكثر عناصر وجوده — ولذلك فإن عملية «الحرث» لم تكن عملية انفعال، بل هي عملية تفاعل بين

الرجل والمرأة. مما يجعل من كلمة «الحرث» تعبيراً عن هذا المزيج المركب من عنصر الحياة في الرجل والمرأة.

وربما كان من الضروري أن ندرس الكلمة في إحياءاتها الإيجابية في المضمون والمعنى، بدلاً من الإحياءات السلبية في الشكل والصورة.

أما كلمة «الوطء» أو «تحت الرجل»، فإنها تمثل الوضع الطبيعي لعملية الجماع الذي ينحني فيه جسد الرجل على جسد المرأة، فليست القضية قضية وطاء للإنسانية، أو تحية معنوية للمرأة؛ بل هي قضية شكل عادي من أشكال العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة من خلال الخصوصيات الذاتية للمسألة، من دون أن يكون لذلك أي مدلول سلبي في المسألة الإنسانية المعنوية التي تنتقص من مكانة المرأة، فربما يكون «الفوق» في المادة «تحتاً» في الروح وفي المعنى، بينما يكون «التحت» في الواقع «فوقاً» في القيمة، وقد يتساويان.

إن قيمة النص القرآني، هو أنه يعمل على أن يسمي الأشياء بأسمائها، تدليلاً على واقعية الحياة الإنسانية بصورتها الطبيعية في حركة الإنسان في نفسه وفي العلاقات الإنسانية بين الناس. فهو يتحدث عن الجنس كما يتحدث عن الطعام والشراب، مع بعض ألوان الاستعارة والكناية في أسلوب التعبير، للتخلص من بعض المشاعر الحادة السلبية في بعض التعبيرات.

ولكن بعض الكتاب يحاولون التفلسف في بعض الإحياءات التي لا توحى بها الكلمة، من خلال العقدة اللاشعورية تجاه الدين.

إننا نحب أن نقول لهم: إن الكلمة عندما تنطلق من وجدان قائلها، فقد يفتح على أفق معين في بعض الحالات، كما يفتح على أفق آخر في حالة أخرى، فلا بد — في استيحاء الكلمة — من قراءة الكلام من الأفق الذي ينطلق من عمق الوجدان النفسي والفكري للمتكلم، لا من الأفق المملوء بالضباب في وجدان القارئ أو السامع الذي ينتقل من عقدة إلى عقدة في الفهم، حتى

يحول المعنى البسيط إلى معنى معقد.

ولا بد في هذه الأمور من الرجوع إلى السنة والتمييز بين صحيح الحديث وضعيفه، لنخلص إلى النتيجة الحاسمة في معرفة الحكم الشرعي؛ والله أعلم بحقائق أحكامه.

* * *

بين الأسلوب القرآني وطلا الإنسان بالله

﴿وَقَدْ مَوَّالِ أَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَوْنَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يبعد أن تكون هذه الفقرة من الآية جارية على الأسلوب القرآني، الذي جرى في أكثر من مجال، على اتباع الحكم الشرعي بالإيحاء للإنسان بالجانب الروحي الأخروي الذي يتعلق بقضية المصير، من أجل أن يتحقق له الانضباط الواعي، الذي يدفعه إلى مواجهة الطاعة بقوة وإيمان ووعي وامثال... فقد تحدث الآيتان عن بعض جوانب التحليل والتحريم، فكان من المناسب أن يطلب من المكلف أن يقدم لنفسه ما يشاء من الأعمال الصالحة التي ترفع درجته عند الله، وأن يتقي الله في نفسه فلا يرتكب ما حرمه الله عليه، وأن يعلم أنه سيلاقي الله غداً ليحاسبه على ما عمل من خير أو شر.

ثم أطلق البشارة للمؤمنين، لأنهم الذين استطاعوا أن يسيروا على الخط المستقيم في عقيدتهم، وعملهم فحصلوا على خير الدنيا والآخرة. وذهب البعض إلى أن معنى التقديم هنا طلب الولد، فإن في اقتناء الولد الصالح يكون تقديماً عظيماً لقوله ﷺ: «إذا مات المؤمن، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١). وذهب بعض آخر إلى غير ذلك، مثل الدعاء عند الجماع، أو التسمية عنده، أو التزويج

(١) البحار، م: ١، ج: ٢، ص: ٣٤٩، باب: ٨. رواية: ٦٥.

بالعفاف... ولكن جو الآية - في ما نفهم - بعيدٌ عن ذلك كله؛ والله العالم بأسرار آياته..

إن المنهج القرآني التربوي يؤكد دائماً على صلة الإنسان بالله، حتى لا تكون له صلة بأحد أكثر من صلته بربه. لأن الله هو الذي خلقه ورزقه ورعاه في حياته، ويرعاه بعد موته ليمنحه رضوانه وليدخله في نعيم جنته؛ ولأن الإنسان لا يمكن أن يستغني عن ربه في أية لحظة من عمره وفي أية مرحلة من مراحل حياته، مما يفرض عليه أن يستجيب له، ويخضع له، ويطيعه ويزدب في حبه وفي ربوبيته، فذلك هو سبيل سعادته.

ومن هنا أراد الله للإنسان، في هذه الآية المشتملة على بعض أوامره ونواهيه، أن يقدم لنفسه عملاً يرفعه إلى المقامات العليا من رضوانه، وأن يلتزم خط التقوى الذي يمثل شمول الإسلام في مفاهيمه وأحكامه المنفتحة على وحي الله. فإن خير الزاد الذي يحمله الإنسان بين يديه، ويقدمه لآخرفته هو التقوى التي يلتزمها أولو الألباب الذين يعرفون، بوعي الوجدان الفطري العقلي، أن الخوف من الله هو الذي يمنح الإنسان الانضباط في خطواته، لأنه ليس الخوف الذي يسحق الإنسان في ذاته، بل هو الذي يرتفع بإنسانيته إلى السموات العلى التي تحلق آفاقها في رحاب الروح. فإن الإنسان يولد من جديد، عندما يذوب في الله ويغيب في أعماق الخوف - الحب، لا الخوف - الخوف. وهذا هو الفرق بين الخوف من الناس والخوف من الله، فإن الأول يوحى للإنسان بالضعف والجفاف، ولكنه في الثاني يوحى له بالقوة والحيوية والعنفوان.

ثم أراد له أن يُذكّر نفسه دائماً بأنه سيلاقي الله، وسيقدم حسابه بين يديه مما أسلفه من أعماله وأقواله في الدنيا، ليعمق مثل هذا الإيمان الداخلي العميق بقاء الله الذي يملك الأمر كله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] حيث ينادي المنادي: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ

مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿ [المؤمن: ١٦] ليأتي الجواب حاسماً:
﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [المؤمن:
١٦] يوم: ﴿ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٣٠].

فإذا عاش هذا اليقين العقيدي كما لو كانت الآخرة ماثلة بين عينيه، فإنه
سوف يحرك خطواته في الخط المستقيم الذي يبدأ من الله وينتهي إليه، فيعيش
إيمانه فكراً وعقيدة وقولاً وعملاً وحركة... في الاتجاه الصحيح والصراط
القويم؛ ليتلقى البشارة من الله، على لسان الملائكة، مع المؤمنين: ﴿ ادْخُلُوهَا
بِسَلَامٍ آمِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦].



الآية

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا
وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿عُرْضَةً﴾: حاجزاً ومانعاً، من الاعتراض، أي: ما يجعل معرضاً للشيء.

﴿لِأَيْمَانِكُمْ﴾: الأيمان: جمع يمين، وهو الحلف والقسم. مأخوذة من اليمين بمعنى الجارحة، لكونهم يضربون بها في الحلف والبيعة، للملازمة بينهما. وقيل: أخذ من القوة لأنه يتقوى على ما يحلف عليه.

﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾: أن لا تبرؤا، بتقدير لا، وهو شائع مع أن المصدرية كقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا

تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿[النساء: ١٧٦]﴾، ويمكن أن لا يكون بتقدير لا .

* * *

مناسبة النزول

قيل: إن الآية نزلت في عبد الله بن رواحة الذي حلف أن لا يدخل على ختته^(١) ولا يكلمه ولا يُصلح بينه وبين امرأته؛ فكان يقول: إني حلفت بهذا فلا يحل لي أن أفعله فنزلت الآية^(٢) وقال المفسرون: إن كلمة ﴿عُرْضَةً لَا يَمْنَعُكُمْ﴾ تحتمل عدة معان:

أحدها: المانع والحاجز من الاعتراض بين الأشياء، فتكون نهياً عن جعل اليمين حاجزاً بين الإنسان وبين البر والتقوى والإصلاح.

ثانيها: الحجة والمبرر عن الامتناع عن هذه الأمور، باعتبار اضطرار الإنسان إلى الالتزام بيمينه.

وثالثها: المعرض، بمعنى أن تكون اليمين عادة تجعل الله معرضاً للحلف به دائماً في الحق والباطل. وقد قيل إن من أكثر ذكر شيء، فقد جعله عرضة له^(٣).

وقد يبدو لنا أن الآية لا تبتعد عن الأجواء الثلاثة، من خلال اختيار المعنى الثالث، الذي يوحي بأن الابتذال والإكثار من اليمين في كل شيء قد يؤدي إلى المنع من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، لأن العادة قد تجعله

(١) الختن: زوج البنت أو الأخت.

(٢) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٦٦.

(٣) انظر: م. ن، ج: ٢، ص: ٥٦٧.

يحلف على ترك هذه الأمور في بعض الأوضاع الانفعالية التي يمر بها، فيجعل ذلك حجة للانحراف عن خط البر والتقوى والإصلاح بين الناس، ومانعاً عن السير في هذا الاتجاه. ولا يبعد أن لا تكون هذه المعاني التي يذكرها المفسرون مدلولاً للفظ؛ بل هي استيحاء من جو الكلمة، ومعناها أن المعنى الثاني يرجع إلى الأول، لأن كونه حجة في المنع يجعله حاجزاً عنها عن البر والتقوى. والله العالم.

* * *

اليمين: دوره ومحتوياته

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾. أي: لا تندفعوا أيها المؤمنون في هذا الأسلوب اللإنساني المغلف بغلاف إيماني، كما لو كان إيمانكم بالله الذي لا بد من أن يطلّ بكم على الخير والبر والإصلاح بين الناس، حركة في الكلمة التي تؤدي إلى حركة سلبية في الواقع فتلجأون إلى الحلف بالله، تقدمونها أمامكم لتتخذوها حاجزاً بينكم وبين الانطلاق مع البر في الحياة، والتقوى في الموقف، والإصلاح بين الناس؛ في حاجة الحياة إليكم في عملية الانفتاح على الناس والالتزام بالخط، وحل المشاكل... لتجعلوا حلفكم بالله حجة لكم على هذه السلبية، ليقول بعضكم لبعض: إنني لا أملك الدخول في عملية السلام الاجتماعي، أو في تقديم الخير لهذا أو ذاك، أو الالتزام بهذا الخط أو ذاك؛ لأنني حلفت بالله على الامتناع عن ذلك، ولليمين قدسيته لأنها تمثل قدسية الإيمان بالله، الذي يعني الحلف باسمه أن يكون الشاهد علينا في التزاماتنا بما نفعل أو نترك أو نتخذ من مواقف وعلاقات.

إن مثل هذا الفهم الخاطيء لليمين، في خط الإيمان، يمثل خطورة كبرى على حركة الإنسان في مقدساته، لأنه يهدم القيم الإنسانية والروحية التي

يحبها الله باسم الله . وهذا هو الإخلال بالتوازن في حركة الإنسان والإيمان .
 إن الله لا يريدكم أن تحولوا اسمه إلى كلمة مبتذلة تكررونها في تغطية
 العقد النفسية، والأحقاد الذاتية، والمشاعر السلبية، والانحرافات
 العاطفية . . . ليكون حجة لكم ومانعاً عن ﴿ أَنْ تَبْرُؤُا ﴾ بما يمثله البرّ في معنى
 الخير في داخل الذات وفي خدمة الإنسان والحياة، ﴿ وَتَقْوُا ﴾ الله بالسير على
 منهاجه في تأكيد القيم الروحية والأخلاقية التي تمنح الأرض، في إنسانها،
 انضباطاً وتوازناً وقوة في حساب المسؤولية، ﴿ وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ عندما
 يختلفون أو يتنازعون أو يتحاربون؛ فإن الإصلاح يمثل عمق الصلابة في ثبات
 الواقع الإنساني، وابتعاده عن الضياع والاهتزاز .

لا تجعلوا اسم الله يعترض هذه القيم الأخلاقية، لتمنعوها من الانطلاق،
 ليكون حاجزاً بينكم وبين تأكيدها في حياتكم . ولا تبذلوا اسمه بالحلف
 الكثير، فإذا دعيتم لمثل هذه الأمور، بادرتم بفعل العادة أو السرعة الانفعالية
 إلى الحلف، الذي يوحى بالابتعاد عن حركة هذه القيم في حياة الناس . فإن
 الله هو إله البر، ورب التقوى، الذي يوحى لرسله ولعباده بالإصلاح بين
 الناس، فكيف تجعلون اسمه ضد ذلك كله؟ وكيف تغفلون عنه وتتحدثون في
 ما بينكم بمختلف الأمور والأساليب من دون الالتفات إليه؟!

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يسمع كل ما تتكلمون به، وما تهمسون به حتى وساوس
 النفس في هينمات الشعور، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .
 فكيف لا يعلم حواراتكم وكلماتكم يا أيها المؤمنون؟! وهذا يفرض عليكم أن
 تستحضروا رقابة الله في كل ما تفيضون فيه من كلمات وأفكار، مما لا يتناسب
 مع الخط الإلهي في ما يريد للإنسان أن يفعله أو يتركه، حتى ينضبط الإنسان
 في وسائل التعبير ومنطلقات الفكر، فلا يبتعد عن مواقع رضى الله في حياته
 العامة والخاصة .

وقد نستطيع أن نفهم من هذه الآية دور اليمين في الإسلام؛ فإن اليمين تعني التزام الإنسان بفعل شيء وتركه من خلال إدخال الله كعنصر شاهد ومؤكد على صدق هذا الالتزام وعلى توثيقه... وبذلك يستمد الحالف من قداسة اسم الله المبرر والحجة على تأكيد موقفه في الالتزام العملي بالحلف، في ما إذا طلب منه التراجع عنه. وهذا ما درج عليه الناس في حالات الانفعال الشديد، حيث نراهم يحلفون بالله على ترك كثير من الأشياء التي لا يحسن بهم تركها، أو يحلفون به على فعل بعض الأشياء التي لا ينبغي لهم فعلها؛ فيبتعدون بذلك عن خط البر والتقوى والإصلاح بين الناس في ما إذا تعلق الحلف ببعض الأمور التي تبتعد عن هذه الخطوط...

وقد شددت الآية على رفض ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يتلاعب باسمه الله ويبتذله ويتخذ حجة في ما لا يرضي الله. فلا قداسة لأي يمين لا يجد الإنسان صلاحاً فيه باسم قداسة اسم الله، لأن تقديس الله الحقيقي لا يتحقق إلا بامثال أوامره ونواهيه في ما يصلح به أمر الحياة والإنسان. فلا يمكن أن يلزم الله الإنسان بالسير على يمين تضاد أمر الله ونهيه في ما يحبه أو يبغضه...

وقد ورد في الحديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، في ما رواه أبو أيوب الخزاز، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين، فإنه عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾^(١).

وعن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله «جعفر الصادق» عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَدِّقُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قال: إذا دعيت لصلح بين اثنين فلا تقل عني يمين ألا

أفعل^(١). وقد أفتى الفقهاء بأن من حلف على شيء، فرأى خيراً منه؛ فله أن ينقض يمينه ويفعل الذي هو خير.

ومن خلال ذلك، يتحدد دور اليمين، ليتمثل في الحالات التي يريد الإنسان أن يلزم نفسه بفعل طاعة أو ترك معصية أو عادة سيئة، أو الدخول في شأن من شؤون الدنيا التي لا تنفعه في إيمانه ولا في حياته... ففي مثل هذه الحالات، يتحول اليمين إلى عنصر يدعم الإرادة ويقويها وينميها، من خلال ما يمثله من الالتزام بالشيء على أساس اسم الله، في ما يمثله هذا الاسم من قداسة وعظمة واحترام... فيجتمع للإنسان، من خلال يمينه، شيان؛ أحدهما: قداسة المضمون، باعتباره شيئاً يريد الله فعله أو يريد تركه في ذاته. ثانيهما: قداسة الالتزام، باعتبار ارتباطه باسم الله؛ وبذلك يتحول اليمين إلى عنصر تربوي ضاغط يستفيد منه الإنسان في دنياه وفي آخرته.



الآية

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ

قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

* * *

معاني المفردات

﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾: اللغو: الكلام الذي لا فائدة فيه، وما لا يعتد به.
ومنه: اللغو في الأيمان، أي: ما لا عقد عليه في القلب. وهو ما يجري على
عادة الناس من قول: «لا والله» و«بلى والله» من غير عقدٍ على يمين يقطع بها
ولا يظلم بها أحد.

* * *

اليمن بين اللغو والجدية

وقد قررت هذه الآية أن الإنسان لا يتحمل مسؤولية مثل هذا اليمين،
لأن الله لا يؤاخذ الناس على أعمالهم، إلا من خلال الالتزامات والدوافع

الداخلية التي تمثلها الأعمال أو تدل عليها الكلمات . ولا بد في الالتزام من نية وعمل أو كلمة تظهر منها النية، فلا قيمة لنية بدون عمل، ولا قيمة لعمل لا ينطلق من نية... وقد يتوهم البعض من الآية، أن الله يؤاخذ الإنسان بما كسبه القلوب من النوايا، وإن لم تتمثل في عمل أو في كلمة . وربما يؤكدون ذلك بالأحاديث الشريفة التي جاء في بعضها: «فإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) وجاء في بعضها الآخر: «إن الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة»^(٢). ولكن الآية لا تفيد ذلك، لأنها في مجال التمييز بين اليمين اللغو الذي لا ينطلق من النية القلبية والالتزام الداخلي، وبين اليمين الجدي الذي يرتبط بالنية والالتزام؛ وليست في مجال الحديث عن النية المجردة.

أما الحديثان المذكوران، فإنهما ينطلقان من موقع الحديث عن اختلاف مسؤولية العمل من خلال اختلاف النية الدافعة له، لأن النية تنوع العمل وتلوّنه بلونها، فيختلف حسنه وقبحه حسب اختلاف النية، كما يذكرون ذلك في ضرب اليتيم الذي يختلف حاله بين التحريم والتحليل حسب اختلاف القصد. فإذا كان الضرب للتأديب، كان حلالاً، وربما يصل إلى حد الوجوب. وإذا كان للتشفي والانتقام والعبث، كان محرماً. وإذا كان الله لا يؤاخذ الإنسان باللغو في يمينه، فلا يمنعنا ذلك من القول: إن الإكثار من اليمين يعتبر من العادات السيئة المرغوب عنها في الشرع، لأنها تمثل إساءة غير مقصودة لاسم الجلالة في ما يمثله ذلك من التلاعب والاستهانة به...

* * *

(١) البحار، م: ٢٣، ج: ٦٤، ص: ٧٣، باب: ٣، رواية: ٢١.

(٢) البحار، م: ٢٤، ج: ٦٧، ص: ١٢٣، باب: ٥٣، رواية: ٢٩.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ التي لا توحى في مدلولها النفسي بأي شيء، لأنها جرت على سبيل العادة التي يعتادها الناس في التلُّفُظ بصيغة اليمين، من دون أن ينطلق من أي التزام عقدي بالإتيان بمتعلقه، كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام - تعليقاً على هذه الآية - قال: هو: «لا والله» و«بلى والله» و«كلا والله»، لا يعقد عليها أو لا يعقد على شيء^(١). وعلى هذا فلا مسؤولية على الحالف، لأنه لم يقصد الحلف؛ بل تكلم باليمين من دون شعور كآية لازمة في اللفظ يعتادها الإنسان من دون قصد.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: عقولكم أو نفوسكم، أو المنطقة الداخلية في الرأس التي تنتج الفكرة، وتبدع النية، وتحرك الإرادة... وبذلك كانت الأفكار والنيات والإرادات حركة كسب في الذات، منطلقة من اختيار الإنسان الذاتي؛ مما يفرض عليه أن يتحمل مسؤولية هذا الكسب، باعتبار أنه إنتاجه العملي في الداخل الذي ينعكس، سلباً أو إيجاباً، على إنتاجه الخارجي في عمله.

﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾ لما يصدر من المؤمن من هذا اللغو الذي أراد له أن يعرض عنه لكرهته له، ولكن بالدرجة التي لم تصل بها إلى حد الإلزام. وفي ضوء ذلك، قد نستوحي من هذه الفقرة أن الإتيان بالمكروهات قد يلتقي بالحاجة إلى المغفرة والرحمة، لما في ذلك من الحزاة العملية، التي لا يحب الله للإنسان أن يقوم بها؛ باعتبار أن المنهج التربوي القرآني يؤكد على الهدف الإيماني في تحرك الإنسان.



الآيتان

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ۚ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ

* * *

معاني المفردات

﴿يُؤْلُونَ﴾: الإيلاء: الحلف المانع من مقاربة المرأة. وحقيقة الإيلاء: هو الحلف المقتضي للتقصير في الأمر الذي يحلف عليه.

﴿تَرَبُّصُ﴾: التربص: الانتظار بالشيء أمراً ينتظر زواله أو حصوله، أو سلعة يقصد بها غلاءً أو رخصاً.

﴿فَاءُوا﴾: رجعوا. والفاء والفئة: الرجوع إلى حالة محمودة.

﴿عَزَمُوا﴾: العزم: هو العقد على فعل شيء في مستقبل الأوقات؛ وهو إرادة متقدمة للفعل بأكثر من وقت واحد.

﴿الطَّلَاقُ﴾: حلّ عقد النكاح بسبب من جهة الرجل.

* * *

مناسبة النزول

قال ابن عباس: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقت الله أربعة أشهر؛ فمن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر، فليس بإيلاء^(١). وقال سعيد بن المسيب: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية، كان الرجل يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً. وكان يتركها كذلك، لا أيمماً ولا ذات بعل؛ فجعل الله تعالى الأجل الذي نعلم به ما عند الرجل في المرأة أربعة أشهر، وأنزل الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الآية^(٢).



الإيلاء بين خيارين

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ الإيلاء: هو الحلف على ترك مقاربة الزوجة، كوسيلة من وسائل المضارة. أي: يحلفون على ترك وطء نساءهم للإضرار بهن، لتبقى المرأة في حالة تجميد من ناحية العلاقة الجنسية في الزواج، لارتباطها بزوجها لبقاء الزواج، وانفصاله الجسدي عنها؛ الأمر الذي يؤدي إلى مشكلة إنسانية معقدة، لأن الله لا يريد للمرأة أن تعيش في حالة اضطهاد نفسي وجسدي في نطاق الزواج، الذي قد يحوله الرجل بهذه الطريقة إلى سجن؛ ولذلك أراد الله أن يضع لهذه المسألة حداً معقولاً، فهو لا يريد إلغاء الحلف كليةً، باعتبار أنه حالة طبيعية قد تمس الحاجة إليها من خلال غضب

(١) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٦٤٧.

(٢) أسباب النزول، ص: ٤٢ - ٤٣.

جامع أو انفعالٍ شديد، لا يملك فيه الإنسان نوازعه النفسية؛ فترك له التنفيس عن ذلك بهذه الطريقة، ليأخذ وقته في التأمل والتفكير واتخاذ الموقف المناسب بعد سكون غضبه وهدأة إنفعاله، من دون أن تكون المدة المفروضة بالغة الضرر بالنسبة إلى المرأة؛ وذلك هو ﴿تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فله الاستمرار في يمينه في نطاق هذه المدة. فقد أمهل الزوج الحالف مدة أربعة أشهر، فلا سبيل للشرع عليه هذه المدة، لأن الزوجة لا تملك عليه في حق الاتصال في تلك المدة. فإذا بلغت المدة أربعة أشهر؛ وقد جاء في الحديث عن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام، كما في الكافي، أنهما قالاً: إذا آلى الرجل أن لا يقرب امرأته، فليس لها قول ولا حق في الأربعة أشهر، ولا إثم عليه في كفه عنها في الأربعة أشهر؛ فإن مضت الأربعة أشهر قبل أن يمسه، فسكتت ورضيت فهو في حلّ وسعة. فإن رفعت أمرها قيل له: إما أن تفيء فتمسها وإما أن تطلق وعزم الطلاق أن يخلي عنها. فإذا حاضت وطهرت طلقها، وهو أحق برجعها ما لم يمض ثلاثة قروء. فهذا الإيلاء الذي أنزله الله تبارك وتعالى في كتابه^(١).

فإذا بلغت المدة أربعة أشهر؛ ﴿فَإِنْ فَأَوْوُ﴾: أي رجعوا إلى أمر الله بإعطاء المرأة حقها الجنسي إذا كان قادراً على ممارسته، أو تراجع عنه التزامه بالترك إذا لم يكن قادراً عليه في ذلك الوقت؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم يمينهم ولا يحاسبهم عليها، لأن المولى لا يعاقب على هذا السلوك اللاأخلاقي، باعتبار صدوره عن إرادة للإضرار بالزوجة؛ وهو أمر لا يرضاه الله، لأنه لا يريد للمؤمن أن يفكر بالإضرار بأيّ إنسان، لا سيما زوجته، ولا يريده أن يحوّل التفكير — على تقدير صدوره — إلى ضرر فعلي؛ ولذلك كان الرجوع إلى الوضع الطبيعي بمثابة الكفارة عن هذا الفعل المبغوض له، وإن كان ذلك بدرجة لا تصل إلى حد التحريم. ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ وأكدوه ونفذوه باطلاق

صيغة الطلاق بشروطه الشرعية، لأن الزوج لم يجد صلاحاً لنفسه أن يستمر على الحياة الزوجية مع هذه الزوجة، ولا يملك أن يبقى معها في حالة التجميد بمقتضى يمينه، لأن الشريعة لا تسمح له بذلك؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما اتفقا عليه، فهو الذي يسمع الكلمات التي تحل المشكلة بالطلاق أو بغيره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تضرره صدورهم، وعليم بأسرار الواقع كله.

وهذا التفصيل بين حالة الرجوع وحالة عزم الطلاق، خاضع للتخيير بين الأمرين، فلا يسمح له بالبقاء على يمينه وتجميد الحياة الزوجية؛ كما تفيده الآية. وهناك أحكام تفصيلية في موضوع الإيلاء وحدوده وشروطه، يرجع إليها في الفقه... أما ما نريد الإشارة إليه، فهو أن الله قد فرض على الإنسان أن يتراجع عن يمينه في الحالة التي يتحول فيها اليمين إلى عنصر مضاد للحكم الشرعي، وإلى وسيلة من وسائل الضغط النفسي على الآخرين بالاعتداء على حقوقهم الشرعية؛ وبذلك كانت هذه الآية نموذجاً تطبيقياً للآية السابقة: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾... الخ.



مداول الأربعة أشهر

ويبقى هناك سؤال: ما خصوصية الأربعة أشهر؟

ذكر مالك بن أنس في الموطأ، عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل، فسمع امرأة تقول:

تداول هذا الليل واسودّ جانبه
وأزقني أن لا خيل لأعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه
يحرّك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك.

ولكننا لا نستطيع تأكيد حدّ المرأة في المسألة الجنسية في مدة زمنية معينة من خلال تجربة امرأة واحدة في حاجتها الغريزية، بلحاظ أقصى ما تصبر عليه من الحرمان، لأن النساء يختلفن في ذلك من حيث النوع، كما أن الرجال يختلفون فيه، ولا سيما إذا لاحظنا الأحاديث التي تدل على أن قوة شهوة المرأة بأضعاف شهوة الرجل، وأنها لولا الحياء الذي رُكّب فيها، لاندفعت في اتجاه هذه الشهوة إلى درجة الانحراف.

وجاء في الحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، في رواية صفوان بن يحيى أنه سأل عن الرجل يكون عنده المرأة الشابة، فيمسك عنها الأشهر والسنة لا يقربها، ليس يريد الإضرار بها يكون لهم مصيبة، أيكون في ذلك آثماً؟ قال: إذا تركها أربعة أشهر، كان آثماً بعد ذلك^(١).

وفي ضوء هذا، أفتى العلماء في المذهب الإمامي، أن المرأة لا تملك حقاً على الرجل في الجماع إلا مرة في الأربعة أشهر، استناداً إلى هذه الرواية واستيحاءً من حكم الإيلاء.

ولكن يمكن للفقهاء أن يستفيد من قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أن حق المرأة في الوقاع كحق الرجل فيه، بحيث يجب عليه الاستجابة لحاجتها الجنسية إذا

(١) التهذيب، ج: ٧، ص: ٤١٢، باب: ٣٦، رواية: ١٩.

طلبت ذلك منه، كما يجب عليها الاستجابة له في حال طلبه ذلك منها؛ لأن الدرجة التي ذكرت قد يكون المراد بها القوامة التي يملك بها حق الطلاق مما يميزها عنه، لأن طبيعة الزواج من الناحية الشرعية يفرض إشباع الغريزة لدى كلٍّ من الطرفين في نطاقه، لئلا يضطر إلى الانحراف بالبحث عن ذلك خارج نطاقها. وقد تكون المرأة أكثر إلحاحاً وحاجة من الرجل، في نطاق التشريع، لأن الله أباح للرجل الزواج بأكثر من واحدة، كما أباح له المتعة في رأي الشيعة الإمامية، ولم يبيح ذلك للمرأة؛ فكيف يمكن أن تعصم نفسها وتشبع غريزتها في مستوى ثلاث مرات في السنة؟ وقد جاء في الرواية عن الإمام جعفر الصادق في رواية بعض رجاله، قال: من جمع من النساء ما لا ينكح، فزنى منهن شيء، فالإثم عليه^(١).

وقد يخطر بالبال، أن الأربعة أشهر تمثل الحد الأقصى الذي يمكن للرجل أن يقف عنده في الأوضاع الطارئة، كما في حال اليمين على الترك أو المصيبة أو السفر، على بعض الآراء، أو نحو ذلك... لا في الحالات الطبيعية، ولعل تشريع القسمة للزوجات، بل للزوجة الواحدة، يوحى بالتأكيد على تهيئة الأجواء المناسبة التي تقود الزوجين إلى الاستمتاع الدائم في مدى أربعة أيام، على الأكثر، باعتبار أن المبيت إذا لم يكن مشروطاً، في القسم، بالجماع، كما هو منطوق بعض الأخبار وفتوى المشهور من الفقهاء، فهو منفتح عليه من خلال طبيعة الغريزة في أجواء الإثارة الطبيعية بالمضاجعة الليلية في حياة الزوجين.

إننا نريد إثارة هذه المسألة، من أجل التنبيه إلى ضرورة التوفيق بين العناوين القرآنية للحياة الزوجية وبين طبيعة الفتاوى والروايات الواردة في هذا المجال، وإلى الانطلاق من ارتكاز الزواج في الرجل والمرأة على تحصين

النفس ضد الانحراف لمصلحة العفة الجنسية، وهذا مما لا يتفق مع الحدود التي وضعها الفقهاء لحق المرأة في الجنس، فلا بد من ملاحظة ذلك في مسألة الاجتهاد؛ والله العالم.



الآية

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْصَنَ بَأْنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ
 أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ
 فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨

* * *

معاني المفردات

﴿قُرُوءٍ﴾: جمع قرء، وهو يطلق على الطهر والحيض معاً. قال
 الراغب: القرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر، ولما كان اسماً
 جامعاً للأمرين الطهر والحيض المتعقب له، أُطلق على كل واحد منهما^(١).

وقال الطبرسي - في مجمع البيان -: «أصله في اللغة يحتمل وجهين:
 أحدهما: الاجتماع، ومنه قرأت القرآن لاجتماع حروفه . . . الوجه الثاني:

(١) مفردات الراغب، ص: ٤١٣.

أن أصل الوقت الجاري في الفعل على عادة^(١).

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: أزواجهن. والبعل هو الذكر من الزوجين، وسمي بذلك لأنه عالٍ على المرأة بملكه لزوجيتها. وقوله: أتدعون بعلاً؟ أي: رباً. والبعل: النخل لأنه مستبعل على شربه. وبعل الرجل بأمره: إذا ضاق به ذرعاً، لأنه علاه منه ما ضاق به ذرعه، وبعل الرجل: بطر، واستعلى تكبراً. وامرأة بعل: لا تحسن لبس الثياب، لأن الحيرة تستعلي عليها فتدهشها.

﴿وَالرِّجَالُ﴾: الرجال: جمع رجل، يقال: رجل بين الرجلين أي: القوة. وهو أرجلهما أي أقوامهما. وفرس رجل: قوي على المشي. وسميت الرجل رجلاً لقوتها على المشي. والرجل الذي يمشي على رجله.

﴿دَرَجَةٌ﴾: الدرجة: المنزلة.

* * *

مناسبة النزول

«أخرج داود، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن أسماء بنت يزيد ابن السكن الأنصارية قالت: طُلِّقْتُ على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة؛ فأنزل الله تعالى حين طُلِّقَت العدة للطلاق: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، فكانت أول من أنزلت فيها العدة للطلاق»^(٢).

* * *

(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٧٢.

(٢) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٦٥٦.

بين الطلاق والإصلاح

﴿وَالْمُطَلَّقَتُ﴾ اللائي انفصلن عن أزواجهن بالطلاق ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فلا يتزوجن بأي رجل آخر قبل انتهاء مدة الانتظار، وهي ثلاثة أطهار بما فيها الطهر الذي جرى فيه الطلاق. بناء على تفسير القرء بالطهر، أو ثلاث حيضات التي تبدأ بعد انتهاء الطهر الأول بناء على تفسير القرء بالحيض، فهي في هذه المدة المصطلح عليها بالعدة، بمنزلة الزوجة في كل الأجواء المنفتحة في العلاقة الزوجية، فتكون المسألة زواجاً مجمّداً، أو طلاقاً مع وقف التنفيذ.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾، لأن اختصاصها بالمعرفة في البداية للحبل، — على تفسير — أو للدم في العادة الشهرية — على تفسير — يجعل المسألة أمانة لديها كأي شيء لا يعرف — غالباً — إلا من قبل الشخص المعني، لأن القضية — في دائرة الحق — لا تتصل بها في نتائجها الشرعية، بل تشمل الزوج في أكثر من جهة؛ الأمر الذي يجعل الكتمان وإخفاء الحقيقة خيانة للأمانة الشرعية، فلا يجوز لها أن تخفي الحمل الذي تطول العدة إلى نهايته وتدعي الحيض، لتقصير مدة العدة، أو تدعي الحمل لإطالتها لحاجة في نفسها؛ لأن في ذلك تجاوزاً لحدود الله وانحرافاً عن خط المسؤولية الشرعية، ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن الإيمان بالله يمنع المؤمن من التعدي على حدود الله، من موقع إحساسه بالعبودية لله، كما أن إيمانه باليوم الآخر يدفعه إلى اختيار الأعمال التي تؤدي به إلى النجاة من عذاب الله والحصول على جنته ورضوانه. وقد جاء في المجمع عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: الحبل والحيض^(١).

(١) انظر: مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٧٤.

﴿وَعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ لأنها لم تخرج من حكم الزوجة، مما يجعل اختيار الزوج للرجعة والعودة إلى الحياة الزوجية من جديد، تماماً كما لو أخرج الزوجة من بيته ثم قرر استعادتها إليه؛ لأن المبادرة في الطلاق الرجعي كانت من خلاله، فله أن يصحح الخطأ الذي وقع منه، ويتراجع عن القرار الذي شعر بالندم عليه. وهذا هو المنهج الإسلامي التربوي في العلاقات الإنسانية، الذي يفتح أكثر من نافذة للإنسان للتراجع عن قراره الذي يشعر بالخطأ فيه، ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ بحيث كان الأساس في الرجوع إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح من أجل إصلاح المسألة إذا ما اكتشف الزوج خطأه تجاه الزوجة، أو اكتشفت الزوجة خطأها تجاه الزوج سواء أكان ذلك بمبادرة ذاتية أم كان من خلال تدخل المصلحين بينهما.

أما إذا كان الهدف من الرجعة أن يستزيد الزوج في الإمعان في تعذيبها وإيلامها وإرباك حياتها، للإضرار بها حتى تبقى في حالة اهتزاز دائم، من أجل ابتزازها للحصول منها على تنازلات مادية أو معنوية، وكان الزوج إنساناً مضاراً؛ فإن الظاهر من الآية أن الحق الذي للزوج في الرجعة لن يكون له أية شرعية في حالة إرادة الإضرار، بحيث لا تصح الرجعة من الناحية الوضعية القانونية، كما لا تحل من الناحية التكليفية. ولكن الفقهاء لم يلتزموا بذلك، لأنهم اعتبروا الزوجة في العدة زوجة أو بحكم الزوجة، فتكون الحالة تماماً كما هي حالة الزوجة إذا أراد الإضرار بها في نطاق الحياة الزوجية.

وجاء في مجمع البيان: إن الشخص - في الجاهلية - كان إذا أراد الإضرار بامرأته طلقها واحدة وتركها [مدة]، حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها وتركها مدة ثم طلقها أخرى وتركها مدة، كما فعل في الأولى، ثم راجعها وتركها مدة ثم طلقها أخرى. فجعل الله الزوج أحق بالمراجعة على وجه الإصلاح لا على وجه الإضرار. وإنما شرط الإصلاح في إباحة الرجعة لا

في ثبوت أحكامها، لإجماع الأمة على أن مع إرادة الإضرار يثبت أحكام الرجعة^(١).

* * *

ولهذا مثل الذي عليه

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. هل المراد من هذه الفقرة أن حقوق الزوجة كحقوق الزوج، بطريقة شمولية، بمعنى أنه إذا كان للزوج حق الاستمتاع بالزوجة، فإن للزوجة حق الاستمتاع به. فليس له أن يمنعها من ذلك عند حاجتها، كما ليس لها أن تمنعه عند حاجته، وهكذا في الجوانب الأخرى، فالحق مشترك بينهما كما أن الواجب مشترك بينهما، إلا في ما دل الدليل عليه كالنفقة التي تجب على الزوج دون الزوجة، لثمنحه الدرجة التي تقرها الفقرة التالية؟!

أو أن هذه المساواة جاءت لتقرير المبدأ، من خلال أن أحدهما لا يملك حقاً مطلقاً على الآخر، بل إن لكل منهما حقاً على الآخر يقابله واجب تجاهه. فلا ينافي ذلك أن يزيد حق أحدهما على الآخر، كما يقرره الفقهاء في حديثهم عن أن حق المرأة في الاستمتاع لا يساوي حق الرجل فيه، لأن حقه في ذلك مطلق، بينما حق المرأة فيه بحدود تكاد تلحقه بالعدم؟ ربما كان هذا الاحتمال هو الأقرب لدى الكثيرين من المفسرين.

وقد جاء في المجمع أن المراد بذلك، في الآية، «ما يرجع إلى حسن العشرة وترك المضارة والتسوية في القسم والنفقة والكسوة، كما أن للزوج حقوقاً عليها مثل الطاعة التي أوجبه الله عليها له، وأن لا تدخل فراشه غيره،

وأن تحفظ ماءه فلا تحتال في إسقاطه»^(١). ونستفيد من ذلك، أن الآية لم تقرر الحق؛ بل هي إشارة إلى ما ثبت من الحق في السنة فلا مجال للاستدلال بها على ذلك.

ولكننا نستقرب الاحتمال الأول بلحاظ الفقرة التالية: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فإن الحديث عن امتياز الرجال بالدرجة المميزة، والمنزلة المحددة يدل على أن الفقرة السابقة واردة لتقرير المساواة في الحقوق الزوجية الطبيعية التي شرع الزواج على أساسها، مثل إرادة العفة وتحصين الإنسان نفسه بالزواج، ليملك الحصول على إشباع غريزته من دون حاجة إلى البحث عنها في مكان آخر لدى إنسان آخر. فلا معنى لأن يأخذ الرجل كل حقه إلى حد التعسف، بينما لا تحصل الزوجة من ذلك إلا على مثل رشفة الماء السريعة في أجواء العطش الشديد في الصيف الحارق. وهكذا في مسألة حقه في منع زوجته من الخروج من بيتها بغير إذنه، حتى لو لم يكن هناك سبب يدعو به إلى ذلك إلا الحالة المزاجية الذاتية التي تعتمد الإضرار بها.

وإذا كنا في مجال الحديث عن الدرجة أو المنزلة المميزة، فإننا نتصور أنها إشارة إلى القوامة التي يملك الرجل من خلالها حق الطلاق، دون أن تملكه الزوجة، في مقابل قيامه بالمسؤولية المادية عن الحياة الزوجية، ووجود بعض العناصر المميزة في شخصيته؛ مما يجعل إدارته للعلاقة الزوجية أكثر توازناً وواقعية من خلال ظروفه التي تسمح له بحرية الحركة أكثر منها، في تكوينها الجسدي وفي دور الأمومة ونحوها.

إنها أفكار نثرها، في الجانب التفسيري، من أجل توجيه التفكير نحو المناقشة الفكرية التي تتحرر من المألوف إلى الفهم الجديد المنفتح على الآيات بكل موضوعية وعمق.

(١) (مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٧٥).

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو العزيز في ذاته، من خلال أن القوة له جميعاً لتكون له العزة جميعاً، وهو الحكيم في تقديره للأمور وتدبيره لشؤون خلقه، فلا ينتقص أحد من عزته في ما يقرره من التشريع، ولا يشك أحد في حكمته في تقرير مصالح عباده في كل حركة التشريع والتنفيذ.

* * *

مع بعض الأحاديث في حقوق المرأة والرجل في الزواج

جاء في الكافي — بسند صحيح — عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ما حق الزوج على المرأة؟ فقال لها: أن تطيعه ولا تعصيه، ولا تصدق من بيته إلا بإذنه، ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه؛ وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء، وملائكة الأرض، وملائكة الغضب، وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها. فقالت: يا رسول الله، من أعظم الناس حقاً على الرجل؟ قال: والده. فقالت: يا رسول الله، من أعظم الناس حقاً على المرأة؟ قال: زوجها. قالت: فما لي عليه من الحق مثل ما له علي؟ قال: لا ولا من كل مائة واحدة. قال: فقالت: والذي بعثك بالحق، لا تزوجت زواجاً أبداً. — وفي رواية — لا يملك رقبتى رجل أبداً^(١).

ولا بد لنا من أن نحمل هذا الحديث على الإشارة إلى الحق المعنوي الذي يفرض على المرأة — من ناحية روحية — أن تفتح على زوجها انفتاح الإنسان المؤمن على الإنسان الذي حمله الله مسؤوليته، من أجل إيجاد

(١) الكافي، ج: ٥، ص: ٥٠٦، رواية: ١.

الضوابط النفسية للالتزام بالحدود التي فرضها الله عليه؛ وذلك بتقوية الطاقة الروحية في خلفيات سلوك المرأة مع الرجل، لتعتبر حياتها معه جهاداً على هدى الحديث المأثور: «جهاد المرأة حسن التبعل»^(١)؛ أو عبادة تقترب إلى الله لتصبر على المشاكل المتنوعة التي تحصل في الحياة الزوجية، وليكون ذلك أساساً للانسجام مع متطلباتها في موقع الرجل القيادي في هذه الخلية الاجتماعية الإنسانية لتحقيق التوازن من خلال العنصر الروحي والعاطفي الذي يشد المرأة إلى زوجها، لأن ذلك هو الذي يحميها من الانحراف وفقدان التوازن والسقوط تحت تأثير العوامل الطارئة.

ولعل وقوع الحديث عن حقوق الزوج على الزوجة، في سياق الحديث عن حقوق الوالد على ولده، يشير إلى ذلك باعتبار أن الله يريد للولد أن يتحسس حق والده عليه من الناحية المعنوية والروحية، التي تتحول إلى ناحية شعورية تؤدي إلى إيجاد قاعدة للتوازن في داخل الحياة العائلية بعيداً عن الحسابات المادية؛ فإن للجانب الشعوري دوراً في العلاقات الإنسانية أقوى من الجانب المادي، لأنه هو الذي يقوي عنصر التضحية في حركة الإنسان تجاه الإنسان الآخر؛ ويتعاضد هذا الجانب في الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ قال: «ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٢)، فإن الكلمة توحى بالروحية الانقيادية للموقع القيادي للزوج، لا للذات في طبيعتها الإنسانية.

ولولا هذه الملاحظة الإيحائية في فهمنا للمسألة، لكان هذا الحديث غير منسجم مع الآية الكريمة: ﴿وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فإننا لا نستطيع التوفيق بين الدرجة التي يتميز بها الرجل عن المرأة، وبين المائة بالمائة في ميزته عليها حتى لا حق لها معه بنسبة الواحد بالمائة، مما لا يجعل الحديث موافقاً

(١) البحار، م: ٤، ج: ١٠، ص: ٢٧٧، باب: ٧، رواية: ١.

(٢) البحار، م: ٦، ج: ١٧، ص: ٨١٠، باب: ٥، رواية: ١١.

لكتاب الله الذي هو الأساس في قبول الحديث من حيث انسجام الحديث مع المفاهيم العامة للقرآن.

وفي ضوء ذلك، يختلف اتجاه الآية عن اتجاه الرواية؛ فإن الآية تؤكد على الحقوق القانونية الشرعية، بينما تؤكد الرواية على الحق المعنوي الروحي.

أما مسألة عدم خروج المرأة من بيتها إلا بإذن زوجها، فإننا لا نحتمل أن يكون ذلك حكماً مستقلاً بذاته إلى جانب الأحكام الأخرى — كما هو المشهور بين الفقهاء — بل أستقرب ما ذهب إليه أستاذنا السيد أبو القاسم الخوئي — رحمه الله — من اعتباره حكماً مرتبطاً بحق الرجل في الاستمتاع كلما أراد منها ذلك، فليس للمرأة الحرية في الخروج من بيتها في أي وقت شاءت، بل لا بد لها من استئذان زوجها في ذلك، للتعرف على حاجاته وللتفاهم على تنظيم مسألة البقاء في البيت والخروج منه؛ لتركيز الحقوق الزوجية على قاعدة صلبة قائمة على التنسيق بينهما، بعيداً عن حركة التمرد على الزوج من جهة الزوجة؛ لأن ذلك ما تفرضه التزاماتها العقدية التي يفرضها عقد الزواج في التشريع الإسلامي.

وإننا نركز في هذا الفهم الاجتهادي على عناوين «المعاشرة بالمعروف» و«الإمساك بالمعروف» ونحو ذلك... فإنها لا تتسجم مع إعطاء الزوج الحق المطلق في منع الزوجة من الخروج من البيت إلا بإذنه، الذي يملك — بمقتضى هذه الفتوى المشهورة — أن يحركها من خلال مزاجه الذاتي؛ لا من خلال دراسة المرأة في حاجاتها الذاتية أو الاجتماعية أو الإنسانية، بحيث يكون له الحق في تحويل البيت إلى سجن دائم من حين العقد إلى حين الوفاة لمجرد رغبته الشخصية أو عقدته الذاتية؛ دون أن يكون في ذلك أي إثم أو خطيئة من ناحية الحكم الشرعي. فله أن يسافر مدة طويلة من دون أن يأذن لها في الخروج من بيته، مع توفير حاجاتها المادية من النفقة الواجبة؛ وله أن

يفصلها عن المجتمع كلياً وعن جذورها العائلية، وعلاقاتها الاجتماعية... فيمنعها من الخروج في الوقت الذي يكون مشغولاً عنها بعمله أو بعلاقاته الاجتماعية العامة والخاصة.

إن هذا لا يصدق عليه «المعاشرة بالمعروف» أو «الإمساك بالمعروف» وربما كان مصداقاً للظلم في النظرة العامة بلحاظ الارتكاز الإنساني للعدل في وعي الناس للعلاقات الزوجية التي هي جزء من العلاقات الإنسانية. فإن المرتكز في الذهنية العامة، أن حبس إنسان في البيت بشكل دائم، من دون ذنب جناه سوى كونه مرتبطاً بالزوج في عقد الزواج، يعتبر تصرفاً غير عادل؛ كما أنه يتنافى مع الخط العام الذي ارتكز عليه التشريع الإسلامي في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] أو: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] أو في الحديث النبوي: «لا ضرر ولا ضرار»^(١) فإن هذا الحكم الشرعي — على أساس الفتوى المشهورة — من أوضح مصاديق الحرج والعسر والضرر، بحسب المفهوم العرفي أو العقلاني لهذه العناوين.

وقد يستدل بعض الفقهاء على حرية الزوج المطلقة، في منع زوجته من الخروج بغير إذنه، بالحديث المعروف الذي رواه في الكافي بسنده عن

عبدالله بن سنان، عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: «إن رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله ﷺ خرج في بعض حوائجه، فعهد إلى امرأته عهداً ألا تخرج من بيته حتى يقدم؛ قال: وإن أباه مرض، فبعثت المرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي خرج وعهد إلي أن لا أخرج من بيتي حتى يقدم، وإن أبي قد مرض، فتأمرني أن أعوده؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. فثقل فأرسلت إليه ثانياً بذلك، فقالت: فتأمرني أن أعوده؟ فقال: اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فمات أبوها، فبعثت إليه: إن أبي قد مات، فتأمرني أن أصلي عليه؟ فقال: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فدفن الرجل، فبعث إليها رسول الله ﷺ: إن الله قد غفر لك ولأبيك بطاعتك لزوجك»^(١).

فإنهم يرون أن النبي ﷺ منع هذه المرأة من الخروج من بيتها لعيادة أبيها أولاً، ولحضور جنازته ثانياً إطاعةً لزوجها. فلو كان لها الحق في الخروج في مثل هذه الحالة التي كان فيها زوجها في السفر، بحيث لا حاجة له بها من ناحية الاستمتاع، لكان خروجها أمراً راجحاً في نفسه لقضاء حق أبيها، من دون الابتعاد عما لزوجها من الحق. ولكننا نلاحظ أن المورد من موارد الحق الزوجي الطبيعي، لأنه أراد منها أن تكون على استعداد دائم لاستقباله، لأن من الممكن أن يأتي في أية لحظة فيجدها في البيت.

كما أن هناك نقطة أخرى، وهي أن الزوج الذي يكون على علاقة طبيعية مع أهل زوجته، أو الذي لا يكون على مثل هذه العلاقة، لا يمكن أن يمنع زوجته من عيادة أبيها أو حضور جنازته، لأنه من الحقوق الاجتماعية أو العائلية العامة في نظر الناس، بحيث يعد الإنسان الذي لا يقوم بها، أو الذي يمنع منه، خارجاً عن المألوف وبعبداً عن الحس الإنساني مما لا يقبله أي

إنسان لنفسه. ولذلك نجد أن الأشخاص المعقدين من أهل زوجاتهم لا يمانعون في ذهاب زوجاتهم إلى آبائهن أو أمهاتهن، وربما يبادرون — هم — إلى الذهاب للعيادة أو لحضور الجنازة، مما يعني أن المورد هو مورد إحراز رضى الزوج في الخروج لعدم شمول المنع لمثل هذه الحالة، الأمر الذي يجعل أمر النبي ﷺ لها في البقاء في البيت وعدم الخروج، وارداً على سبيل الاستحباب لإفهامها أن طاعتها لزوجها، حتى في مورد عدم الوجوب، أفضل — عند الله — من عيادة أبيها وحضور جنازته، لا سيما أن ذلك يؤكد الانسجام بينهما، ويعمق الإحساس بالموودة والرحمة بينهما. فإذا رأى الزوج أن زوجته تلتزم بأمره، حتى في مثل هذه الحال الصعبة القاسية من الناحية العاطفية، فإن علاقته بها ستزيد وستمتد إلى أبعد من الحالة الطبيعية في العلاقة الزوجية، مما يؤدي إليه ذلك من عمق المحبة لها؛ فينعكس ذلك إيجاباً على ثبات الزواج.

وربما نستوحي ذلك من حديث النبي ﷺ لها إن الله غفر لها ولأبيها بطاعتها لزوجها للتدليل على فضل مبادرتها تجاه زوجها، بحيث حصلت على غفران الله لها ولأبيها، فكانت حصة أبيها من امتناعها عن زيارتها له وحضور جنازته أكثر من حصته على تقدير حضورها عنده أو بعد وفاته، مما يوحي بالاستحباب لا بالوجوب؛ والله العالم بحقائق أحكامه.

م. وبعد، فإنّ هناك عدة أحكام ومفاهيم في هذه الآية، تتعلق ببعض أوضاع المطلقات التشريعية؛ ولا بد لنا من الحديث عنها في عدة نقاط...

* * *

ضرورة العدة

١ — إن المطلقة التي قاربها زوجها، لا بد لها من العدة قبل أن تتزوج إنساناً آخر. والعدة أن تنتظر مدة ثلاثة قروء؛ فإذا خرجت من القرء الثالث،

جاز لها الزواج. وقد اختلف في معنى القرء، فقال بعضهم: إنه الحيض وعلى هذا، فلا بد لها من انتظار الحيضة الثالثة، واستشهدوا بقول النبي ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»^(١)، والصلاة إنما تترك في أيام الحيض وقال بعضهم: إنه الطهر. فلا بد في حلية تزويجها من انقضاء الطهر الثالث، فيجوز لها الزواج في بداية الحيضة الثالثة. وروي عن زرارة قال: سمعت ربيعة الرأي وهو يقول: إن من رأيي أن الأقرء التي سمى الله في القرآن، إنما هي الطهر في ما بين الحيضتين وليس بالحيض. قال: فدخلت على أبي جعفر عليه السلام فحدثته بما قال ربيعة، فقال: كذب ولم يقل برأيه، وإنما بلغه عن علي عليه السلام. فقلت: أصلحك الله، أكان علي عليه السلام يقول ذلك؟ قال: نعم، كان يقول: إنما القرء الطهر، فتقرأ فيه الدم فتجمعه. فإذا جاءت قذفته. قلت: أصلحك الله، رجل طلق امرأته طاهراً من غير جماع بشهادة عدلين؟ قال: إذا دخلت في الحيضة الثالثة، فقد انقضت عدتها وحلت للأزواج. قال: قلت: إن أهل العراق يروون عن علي عليه السلام أنه كان يقول: هو أحق برجعته، ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة؟ فقال: كذبوا^(٢).



حرمة الكتمان

٢ - لا يجوز للمرأة أن تكتُم ما خلق الله في رحمها في أثناء العدة، والظاهر منه بادية ذي بدء الولد. وقد وردت بعض الروايات عن بعض أئمة أهل البيت، أنه الأعم من الولد والدم، وهو أشمل. وقد يؤيد ذلك، بأن الله قد فوض إلى النساء ثلاثة أشياء: الحيض والطهر والحمل، كما روي عن

(١) التهذيب، ج: ١، ص: ٣٨٤، باب: ١٩، رواية: ٦.

(٢) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٧٩، باب: ١١٩، رواية: ٢٢.

الإمام جعفر الصادق عليه السلام . وقد فسر حرمة الكتمان، بأن ذلك يوجب منع الزوج عن المجامعة فيكون ظلماً له، أو بنسبة الولد إلى غيره كما كان يفعل في الجاهلية. وقد أثارت الآية الجانب الإيماني في التشديد على الالتزام بالحكم الشرعي، فربطت الموضوع بالإيمان بالله واليوم الآخر، للإيحاء بأن قضية الإيمان تفرض الالتزام، فلا إيمان بدون التزام.



حق الرجعة

٣ - إن للزوج حق الرجعة في أثناء العدة، في غير موارد الطلاق البائن، من دون حاجة إلى عقد جديد، ولا حق لها في الامتناع عن ذلك. وقد ورد أن المطلقة الرجعية بمنزلة الزوجة في أثناء العدة، ولذا وجبت لها النفقة، وثبت التوارث بينها وبين الزوج، وحرم عليها الخروج بغير إذن. . . إلى غير ذلك من الأحكام التي تدل على أن الطلاق الرجعي بمنزلة تجميد حالة الزوجية في زمن معين، وليس إلغاء لها. وقد قيّدت أحقية الرجعة بإرادة الزوج الإصلاح من خلال ذلك، وعدم قصده المضارة. والظاهر أنه قيد للتكليف بالجواز لا لصحة الرجعة، فقد ثبت نفوذها حتى في غير حالة القصد الطيب. . . فهو أشبه بالإرشاد منه بالتقييد، للإيحاء بأن الرجوع مما ينبغي أن يكون بقصد الإصلاح لا بقصد المضارة، انطلاقاً من حكمة التشريع المرتكزة على علاج المشاكل لا تعقيدها.



والرجال عليهن درجة

٤ - في أجواء الحديث عن الطلاق، جاءت هذه اللفتة القرآنية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ...﴾ لتضع العلاقة بين الرجل والمرأة في نطاقها الإسلامي، الذي يركز على الأسلوب الواقعي الحكيم، من خلال تشريعه لبناء الأسرة في حياة المجتمع.

فالرجل والمرأة يلتقيان في خط المسؤولية على صعيد واحد، فليس هناك أي انتقاص من شخصية المرأة كإنسان في ما أوجبه الله وما حرّمه، وفي ما أباحه وما دعا إليه... فالمرأة الزانية والسارقة في نص القرآن، كالرجل الزاني والسارق في ما ألزهما به من حدّ وعقوبة؛ والمرأة الصالحة كالرجل الصالح في ما أعدّ الله لهما من ثواب. فلا زيادة لثواب الرجل على صلاته وصومه وصدقه وعفته على ثواب المرأة في ذلك كله. وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَلَّاعِينَ وَالْخَلَّاعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: ٣٥].

فإننا نستشف من هذه الآية وغيرها أن الرجل والمرأة سواء في التقسيم من حيث طبيعة المسؤولية كمبدأ، ومن حيث نتائجها العامة والخاصة... ما يعني تسوية مطلقة في هذا المجال. وتبقى القضية، في مجال العلاقات بينهما، تتخذ سبيلاً آخر في حساب المسؤولية المشتركة، من حيث توزيع الأدوار في نطاق نظام العائلة وفي غيره. فقد جعل الإسلام للرجل امتيازاً نابعاً من بعض

الخصائص الذاتية التي قد تجعله أكثر قدرة على الممارسة، ومن تحمله المسؤولية المالية للعلاقة، وذلك على أساس تنظيمي لقانون الأسرة؛ وذلك ما أوضحته الآية الكريمة:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

فإن الآية تحدد الموقع للرجل في نطاق العائلة، في مركز القوام التي تعني الإدارة والرعاية والإشراف... أما خارج نطاق العائلة، فلا قوام ولا رعاية ولا تمييز؛ فللمرأة الحرية في أن تمارس كل ما تستطيع ممارسته في الحياة كإنسانة في حدود التشريع الإسلامي العام، كما كان للرجل أن يمارس الدور نفسه من غير فرق في ذلك بين مجالات العلم والعمل ومراكز المسؤولية في الحياة، مع بعض الاستثناءات التي تقتضيها طبيعة الاحتياط للعدالة وذلك في مجالات القضاء والشهادة والحكم... وربما كانت الدراسة لهذه الاستثناءات تضع القضية في الموضع الدقيق للفكرة الإسلامية، التي يلاحظ الإنسان معها أن بعض هذه الاستثناءات قد وردت في نطاق مسؤولية الرجل من حيث صفاته الأخلاقية والعلمية والعملية، على أساس الاحتياط لحقوق الناس في شهادة أمينة، وقضاء متزن، وحكم قوي عادل...

وفي ضوء ذلك، نفهم أن الدرجة، التي جعلت للرجل في نطاق التشريع الإسلامي العام، لا تعتبر امتيازاً للرجل على حساب كرامة المرأة وإنسانيتها، بالمستوى الذي يبرّر هذا التمايز الاجتماعي الذي يضغط على المرأة لحساب الرجل، بحيث تتحول إلى أداة للمتعة، أو كمية مهمة لا تمثل شيئاً كبيراً في مقياس الإنسانية... فإن دراسة المساحة الواقعية بين ما هو التشريع الإسلامي في عدالته وإنسانيته، وبين ما هي الممارسة العملية في ظلمها وانحرافها؛ تبين لنا البون الشاسع بين معنى الإسلام، وبين سلوك المسلمين الذي لا يتحمل الإسلام سلبياته في أي حال.

موقع الطلاق من التشريع الإسلامي

٥ - ربما يثير البعض اعتراضاً على التشريع الإسلامي للطلاق، لأنه يسيء إلى استقرار الحياة الزوجية عندما يفسح المجال لفسخها في أية لحظة، ولو من دون مبررات معقولة، مما يسبب الكثير من المشاكل الاجتماعية للزوجة وللأولاد بشكل خاص... ولا يزال علماء الاجتماع يتابعون الحديث عن المشاكل الصعبة الناتجة عن ذلك، من تعقيد لأولاد الطلاق في نطاق الإحصائيات الكثيرة البالغة الدلالة على النتائج الوخيمة للطلاق.

ولكننا نريد هنا أن نؤكد على أن تشريع الطلاق ينسجم مع طبيعة الأشياء، ومع طبيعة العلاقات الإنسانية التي تمثل العلاقة الزوجية إحدى مظاهرها، لأنها مثل العلاقات التي تجمع الناس مع بعضهم تحت تأثير أي عنصر من العناصر المتنوعة: اجتماعية، وفكرية، وعاطفية، واقتصادية، ودينية، وسياسية... وقد يكون من الطبيعي أن يخضع استمرارها وامتدادها للظروف النفسية والحياتية التي يعيشها الطرفان، فإن من الصعب بقاء أية علاقة بشكل طبيعي ومعقول في حالة فقدان العناصر التي تكفل الاستمرار.

ولنتصور - في هذا المجال - شريكين في علاقة مادية، اختلت ثقتهما ببعضهما البعض، أو اكتشفا اختلاف أفكارهما أو مزاجيهما بالمستوى الذي تحول فيه الشراكة إلى مشاكل وحوادث يومية... فإن الحل المعقول لذلك أن تُفسخ الشراكة لئلا تتحول الحياة بينهما إلى جحيم لا يطاق لكل من الطرفين. فإذا انتقلنا إلى العلاقة الزوجية، رأيناها تركز على عنصري المودة والرحمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فإذا استمرت الحياة بينهما على هذا الأساس، أمكن لها أن تكون طبيعية مستمرة، سواء كان الاستمرار ناشئاً من التعاون بينهما في تحقيق ذلك، أو من تضحية أحدهما بمزاجه وسلوكه لمصلحة الفريق الآخر... أما إذا تحطم هذا الأساس؛ فحدثت العداوة بدلاً من المحبة، والقسوة بدلاً من الرحمة؛ أو اكتشف أحد الطرفين أو كلاهما أن الانسجام مفقود في أكثر من جهة... فإن أمامنا أحد حلين: إما أن نقول لهما: استمرا على هذه العلاقة وليصبر كل منكما على صاحبه، وليضح كل منكما بمزاجه وذوقه وطريقته في الحياة... وهذا حل غير عملي، لأن الزواج من العلاقات المستمرة المتصلة بكل جوانب الحياة اليومية للإنسان بشكل متداخل، فليس من الطبيعي أن يفرض على الإنسان الاستمرار في الخضوع للضغط النفسي إلى ما لا نهاية؛ بل قد يؤدي ذلك إلى الانفجار — ولو بعد حين — كنتيجة للحياة الرتيبة التي تخلق المزيد من المشاكل على أساس حالة التماس الدائم.

ولعل من أوضح الدلائل على صعوبة هذا الحل وعدم واقعيته، أن الفئات التي حرمت الطلاق لجأت إلى حلّ الانفصال الجسدي والهجران، لإدراكها أن الاستمرار غير عملي. ولكنها وقعت في مشكلة أخرى، وهي الإحساس بالارتباط الذي لا يمثل أي شيء للطرفين، في الوقت الذي لا يستطيعان معه التخلص منه، ليتفرغا لعلاقة جديدة ناجحة بدلاً من العلاقة القديمة الفاشلة؛ مما يجعل الحياة لديهما جحيماً لا يطاق، أو طريقاً للانحراف... فلم يبق إلا الحل الثاني، وهو أن نقول لهما: إن بإمكانهما أن ينفصلا ويبحثا عن تجربة جديدة، باعتبار ذلك ضرورة حياتية، فيكون أبغض الحلول إلى الله، تماماً كما هي العملية الجراحية عند استئصال المرض.

وفي ضوء هذه الفكرة، لا ينبغي للمؤمن أن يلجأ إلى الطلاق إلا بعد استنفاد كل الوسائل المفضية إلى استمرار الحياة الزوجية، حيث يكون الطلاق حلاً لمشكلة المرأة والرجل معاً. أما الأولاد، فقد لا يكون الطلاق هو

المشكلة الكبيرة في حياتهم، نتيجة ما يحصل لهم من تعقيد؛ بل هي المشاكل الحاصلة من الخلافات والمنازعات بين آبائهم، فإن تأثيرها عليهم أشد من تأثيرات الطلاق؛ بل ربما يكون الطلاق حلاً ضرورياً للجزء الكبير من المشكلة، وتخفيفاً للكثير من السلبات.

وقد قرأت للدكتور بروتلي أحد الأطباء النفسيين الفرنسيين في إحدى المجلات النسائية المصرية «لا يوجد ما يسمى ابن الطلاق... إن ذلك مجرد عذر سهل وتبرير غير واعي لكل حماقات سوء التربية ولعدم كفاية النصح والعجز عن التفتح، ولكن ما يوجد حقاً هو الصراع بين أبوين متنافرين، فالطلاق إذلاً لا يخلق حالة، ولكنه يعمل على تسوية مشكلة. والصراع هو الذي لا يتحملة الطفل، فحين يفتح الطفل يكون محتاجاً إلى الدفء والحنان والاستقرار والأمانة؛ وكلها مستوحاة من الأب والأم معاً...».

إن مشكلة الطفل في الطلاق هي أنه لا يعيش جو الحنان الطبيعي بين أبويه، ولكن هذا الجو لم يكن موجوداً في ظل المشاحنات الزوجية، بل قد يكون الموجود شيئاً مضاداً له في ما يستتبعه من التأزم والتعقيد... وربما يحصل على العاطفة في خارج الحياة الزوجية بعد الطلاق أكثر مما فقدته في داخلها، بالمستوى الذي يعتبر تعويضاً كاملاً عما فقدته..

ولا بد لنا من الإشارة إلى حقيقة أساسية في كل قضايا التشريع الإسلامي في الحياة، وهي: أن أي تشريع في جانب السلب والإيجاب لا يمكن أن يكون حلاً مطلقاً للمشكلة؛ بل كل ما هناك، أنه يمثل الحل النسبي الذي يجمع إلى الإيجابيات بعض السلبات. ففي جانب الإلزام بالفعل، لا بد من أن تكون إيجابيات الفعل أكثر من سلبياته؛ وفي جانب الإلزام بالترك، يكون الأمر بالعكس، فتكون إيجابيات الترك أكثر من سلبياته... وهكذا تكون النتيجة الحاسمة في موضوعنا هذا، وهي أن الطلاق يعتبر عملاً إيجابياً في حركة العلاقة الزوجية في الحياة، ولكنه — في الوقت نفسه — لا يخلو من بعض

السلبيات في نتائجه العملية بالنسبة إلى الزوجين والأولاد وإلى المجتمع بشكل عام...

* * *

الطلاق بيد من؟

٦ - لماذا جعل الإسلام الطلاق بيد الزوج، ولم يجعله بيد الزوجة بمفردها أو بالإضافة إلى الزوج؟ والجواب عن ذلك هو: أن الإسلام حمّل الزوج مسؤولية الحياة الزوجية في المهر والإنفاق على الزوجة والأولاد، فهو الذي يخسر في انهدام العلاقة أكثر مما تخسره الزوجة من ناحية مادية ومعنوية؛ فقد دفع المهر والنفقة الزوجية من دون أي تعويض؛ وهو الذي يتابع تحمل المسؤوليات المالية للأولاد، ويواجه بناء بيت زوجي جديد على أساس نفقات جديدة؛ بينما لا تتحمل الزوجة أية مسؤوليات مادية تجاه زوجها، ولا تواجه أية خسارة في زواجها الجديد - لو تزوجت - بل الأمر بالعكس. نعم قد تواجه بعض المشاكل الاقتصادية إذا كانت فرص الزواج قد ضاعت منها، ولكن ذلك لا يمنع من وجود بعض فرص العمل التي يمكن أن تعوضها عما فاتها من الاكتفاء الاقتصادي في فرصة الزواج من قبل الزوج...

وفي ضوء ذلك، لا يمكن أن نعطي الزوجة حق إنهاء العلاقة بطريقة طبيعية أصلية، لأنها لا تتحمل مسؤولية الحياة الزوجية من جميع الجهات... وقد نلاحظ - في هذا المجال - أن الإسلام لم يصد الباب أمام الزوجة في أخذ المبادرة في طلاق نفسها لبعض الأسباب، فرخص لها أن تجعل لنفسها الوكالة من قبل الزوج في طلاق نفسها في ضمن العقد - على رأي بعض الاجتهادات الفقهية -، أو أن تكون العصمة بيدها - على بعض الاجتهادات الأخرى - وهناك حالات أخرى يمكن للحاكم الشرعي أن يتدخل بها في

الطلاق، كما إذا رفض الزوج الطلاق والإنفاق؛ فإن للحاكم الشرعي أن يطلقها. وهناك بعض الحالات الأخرى التي يختلف فيها المجتهدون، ومجالها البحث الفقهي لا التفسيري.

* * *

ما الحكمة في العدة؟

٧ - ما الحكمة في العدة بعد الطلاق، الذي يكون على المرأة فيه العدة، وهو ما يسمى بالطلاق الرجعي؟.

قد تكون الحكمة في المحافظة على عدم اختلاط الأنساب - كما يعبر الفقهاء - ليظهر من خلال هذه الفترة، ما إذا كانت المرأة حاملاً أو غير حامل؛ فلا يبقى هناك مجال للاشتباه، بينما يؤدي الزواج المباشر بعد الطلاق إلى اشتباه المولود بين أن يكون ثمرة الزواج الأول، وبين أن يكون ثمرة الزواج الثاني على أساس أقل الحمل وهو ستة أشهر.

وقد يكون هناك جانب آخر - من الحكمة - وهو أن يفسح الإسلام المجال للزوجين للتفكير الهادئ في إيجابيات العلاقة الزوجية وسلبياتها، بعيداً عن الأجواء المتوترة في داخل هذه العلاقة، لأن الإنسان الذي يعيش في الأجواء المحمومة للمشكلة، لا يستطيع أن يفهم طبيعتها الحقيقية بشكل سليم. أما إذا انفصل عنها - ولو قليلاً - فإنه يستطيع أن يحصل على وضوح الرؤية، الذي يساعده على التفكير الهادئ والقرار المتزن.

وفي ضوء ذلك، كانت العدة الرجعية تجميداً للعلاقة الزوجية باسم الطلاق. فقد جعل الشارع للمرأة - في هذه الفترة - حق النفقة والسكنى على الرجل، وجعل للرجل الحق في الرجوع من دون أية اتفاقات جديدة من المهر

ونحوه، ومن دون عقدٍ جديد؛ بل يكفي أن يعبر عن رجوعه بأية طريقة، وبأي أسلوب لتعود العلاقة الزوجية كما كانت... وجعل الإرث بينهما ثابتاً في هذه الفترة، فلو مات أحدهما ورثه الآخر، كتأكيد لبقاء العلاقة في بعض أحكامها القانونية، وإن كانت منحلة قانوناً.

وقد يعترض بعض الناس على ما ذكرناه، بأن العدة شرّعت في حالات إمكانات الحمل، وأما في حالات عدمها، كما إذا كانت المرأة عقيماً، أو كان الزوج عقيماً، أو غائباً عن المرأة غيبة لا مجال فيها للحمل... وما إلى ذلك من الموارد التي تقطع فيها بعدم الحمل، فقد أثبتت الشريعة الإسلامية العدة من دون أن تتحقق العدة في نطاقها الطبيعي.

ولنا أن نجيب عن ذلك، بأن الشارع — في تشريعه للأحكام — يتحرك من خلال الصفة النوعية للأشياء، فيلاحظ الأوضاع العامة، فيوجب الفعل فيه أو يحرمه، وإن كانت بعض خصوصياتها لا تخضع للحكمة النوعية، وذلك كوسيلة احتياطية للحصول على الغاية، وإمكانية وجود حالات نادرة تحدث في بعض هذه الخصوصيات كما يمكن للعاقل أن تحمل صدقة لبعض الطوارئ، أو للغائب أن يعود من دون أن يشعر به أحد... وما شاكل ذلك، مما يخلق جواً من الارتباك والاختلاف حول تحقق الشرط وعدمه. فربما أراد الشارع أن تسير الأمور بشكل منضبط، ولو على حساب بعض الحالات الجزئية؛ هذا مع ملاحظة الجانب الثاني المتمثل في إفساح المجال للرجوع بعد الطلاق؛ والله العالم.



الرجوع بيده من؟

٨ — لماذا جُعل الرجوع حقاً للرجل، ولم يجعل حقاً مشتركاً بينهما مع

أن المشكلة قد تكون في حياة المرأة، لا في حياة الرجل؟

لعل السر في ذلك، أن العلاقة الزوجية هي مسؤولية الرجل في الإدارة والإنفاق، ولذا جُعل الطلاق بيده؛ الأمر الذي يجعل قضية الرجوع بيده. لأننا ذكرنا — في حديثنا المتقدم — أن الطلاق الرجعي يعتبر تجميداً للحياة الزوجية في الحكم، وليس إلغاءً نهائياً؛ وقد نستوحي ذلك من اعتبار الرجوع امتداداً للحياة الزوجية، لا علاقة جديدة. فلو طلقها الزوج بعد الرجوع من دون أن يدخل بها، لا يكون طلاقه هذا طلاقاً قبل الدخول، بل يكون طلاقاً بعد الدخول لأنه استمراؤ للعلاقة السابقة. ولم يترك القرآن الكريم القضية لمزاج الزوج ونزوته، بل أراد أن تكون خاضعة لإرادة الإصلاح المشتركة التي تركز على أساس القيام بالحقوق والمسؤوليات اللازمة على الطرفين. وعلى أي حال، فإن المشكلة التي تثار في جعل الرجوع بيد الزوج، هي المشكلة نفسها المثارة في جعل الطلاق بيده، وبذلك يكون التفسير هو التفسير في ما تعالج به قضية تنظيم العلاقة الزوجية؛ والله العالم بحقائق أحكامه.



الآيات

الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٢٩ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٢٣٠

* * *

معاني المفردات

﴿فَأَمْسَاكٌ﴾ : الإمساك : خلاف الإطلاق .

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ : أي : على وجه جميل سائغ ، وذلك بالإصلاح وحسن المعاشرة لا على وجه الإضرار . قال تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْتَدُهَا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُ ﴿البقرة: ٢٣١﴾ فإن الرد إلى حبال الزوجية للإضرار منكر، وليس معروفاً.

﴿تَشْرِيعُ﴾: مأخوذ من السرح، وهو الإطلاق. وسرح الماشية في المرعى سرحاً: إذا أطلقها. والسرحة: الشجرة المرتفعة لانطلاقها في جهة الطول. والمسرح: المشط لإطلاق الشعر به.

﴿يَا حَسَنُ﴾: بمعروف، وذلك بأداء حقوقها المالية دون أن يذكرها بعد المفارقة بسوء. والإحسان يطلق على وجهين: الأول: الإنعام على الناس، والثاني: الإحسان في فعله.

﴿يَخَافَا﴾: معناه: يظنا. وقال أبو عبيدة: معناه: يُوقنا. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ ها هنا بمعنى: أيقنتم.



مناسبة النزول

جاء في المجمع: «روى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أن امرأة أتها فشكت أن زوجها يطلقها ويسترجعها يضارها بذلك، وكان الرجل في الجاهلية إذا طلق امرأته ثم راجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك، وإن طلقها ألف مرة لم يكن للطلاق عندهم حد. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ فجعل حد الطلاق ثلاثاً»^(١).

«وروي أنه قيل للنبي: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾، فأين الثالثة؟ قال: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيعٍ بِإِحْسَنِ﴾. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ فأنزل في ثابت بن قيس بن شماس وزوجته جميلة بنت عبد الله بن أبي، وكان يحبها وتبغضه، فقال لها:

(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٧٧.

أتردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، وأزيدة. قال: لا، حديقته فقط. فردّت عليه حديقته فقال: يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخلّ سبيلها. ففعل، فكان أول خلع في الإسلام»^(١).

وأخرج داود في الناسخ والمنسوخ عن ابن عباس قال: «كان الرجل يأكل من مال امرأته نحلته - عطاءه - الذي نحلها وغيره، لا يرى أن عليه جناحاً، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سَيِّئًا﴾»^(٢).

ولنا ملاحظة، وهي أن هذه الروايات، وغيرها مما ورد في تحديد أسباب النزول، تدل على أن حركة التشريع كانت تنطلق من حاجة الواقع إلى معالجة المشاكل المتحركة فيه؛ فيأتي الحكم الشرعي في صعيد الحاجات الإنسانية الصعبة التي يتطلع المسلمون إلى حلها، ليكون تأثيره أكثر عمقاً مما لو كان منطلقاً من تشريع ابتدائي. وهذا مما يوحي بأن الإسلام كان واقعياً في تشريعه للإنسان، من خلال نظرتة إلى واقع حياته، بحيث يجد الإنسان سرّ الحكم الشرعي في معاناته للواقع المعاش في حياته الخاصة والعامة.

وفي ضوء ذلك، لا بد للاجتهاد الفقهي أن لا ينظر إلى الحكم الشرعي الوارد في النصوص في دائرة التجريد، بل في دائرة الواقع. فربما نستوحي من ذلك الكثير، مما يجعل فهم النص أكثر سلامة واستقامة في وعي الشريعة، لأنها جاءت لخدمة الإنسان ولحل مشاكله، لا لتعذيبه وتقييد حاجاته بلا معنى.



(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٧٧.

(٢) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٦٦٧ - ٦٦٨.

حدود الله في تشريع الطلاق

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ هذا تحديد للطلاق الذي يملك فيه الرجل حق الرجوع للمرأة المطلقة من دون حاجة إلى إجراءات جديدة؛ ولهذا فرع عليه قوله: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ فإن هذا هو الخيار الذي يملكه في وقت العدة.

وقد روى الصدوق في كتاب «من لا يحضره الفقيه»، عن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال: سألت الرضا علي بن موسى عليه السلام عن العلة التي من أجلها لا تحل المطلقة للعدة لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره فقال عليه السلام: إن الله - عز وجل - إنما أذن في الطلاق مرتين، فقال عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ يعني في التطليقة الثالثة فلدخوله في ما كره الله عز وجل له من الطلاق الثالث حرّمها عليه، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، لئلا يوقع الناس الاستخفاف بالطلاق ولا يضاروا النساء^(١).

وفي هذا التعبير إحياء بطبيعة الموقف الذي ينبغي له أن يتخذه في كلتا الحالتين، فلا يتعد عن الجو الحميم الذي تقتضيه العلاقة، ولا يتنكر للكرامة التي تطلبها المرأة... فإذا كان هناك رجوع وعودة وإمساك، فينبغي أن يكون بالمعروف في الروحية والدوافع والأسلوب. وإذا كان هناك انفصال وتسريح، فلا بد من أن يكون بالإحسان في الكلمة والمعاملة والجو اللطيف، حتى يتمثل كل منهما في نفسه روحية الخلق الإسلامي الذي يحب الله للناس أن يتصفوا به.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ فليس للرجل أن يستغل

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج: ٣، ص: ٥٠٢، باب: ٢، رواية: ٤٧٦٤.

قوته، فيغتصب من المرأة حقوقها الشرعية من مهر ونحوه. وهذا دليل على احترام الإسلام لملكية المرأة للمال الذي تملكه، باعتبار أنها شخصية قانونية شرعية مستقلة. فلها الحرية في التصرف بمالها كما تشاء، وليس للآخرين أن يأخذوه منها في أية حالة، حتى زوجها الذي بذل لها المهر في عقد الزواج، فإنها قد ملكته بذلك وأصبح ملكاً لها كبقية أموالها؛ فليس له استرجاعه منها بعد الطلاق.

وليس له أن يأخذ منها أي شيء عوضاً عن الطلاق بوسيلة غير مشروعة، ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فتشعر المرأة بأن لا مجال للعيش مع زوجها على أساس الالتزام بالحكم الشرعي، ويشعر الرجل بالشعور نفسه بالنظر إلى كراهيتها ونفورها منه. فيمكن لهما في هذه الحال أن يتفقا على أن تتنازل له عن مهرها أو عن شيء آخر، كتعويض له عما يفقده من هذه العلاقة الزوجية، مما يدخل في حساب الخسائر المادية والمعنوية؛ وذلك في سبيل أن يطلقها طلاقاً بائناً، لا مجال له — معه — في الرجوع؛ بل يكون لها الأمر في ذلك.

فإن رجعت في ما بذلته في أثناء العدة، كان لها ذلك وثبت لها الحق في إرجاع ما بذلته، وكان له — في مقابل ذلك — أن يرجع بالطلاق. وإن بقيت على البذل ثبت الطلاق واستمر من دون أي مبرر شرعي للرجوع. وهذا ما يسميه الفقهاء «بالطلاق الخلعي»، للتعبير عنه بصيغة الخلع في مقام الإنشاء الإيقاعي. وفي هذه الحال، يجوز للرجل أن يأخذ ما بذلته له من دون حرج، لأنه منطلق من موقع الاتفاق على ذلك، على أساس التبادل في الخسارة والربح. وهذا ما عبر عنه الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. ويلاحظ في هذا التعبير «الافتداء» معنى التعويض عن حريتها التي قيدها الزواج.

وإنما نسب نفي الجناح إليهما، مع أن الإباحة للزوج لأنه هو الذي يأخذ المال، باعتبار قيام الأمر بالزوجة من جهة، لأن لها التخلص منه بدفع الفدية،

وبالزوج لأن له الأخذ للمال.

وقد جاء عن الصادق عليه السلام: الخلع لا يكون إلا أن تقول المرأة: لا أبر لك قسماً، ولأخرجن بغير إذنك، ولأوطئن فراشك غيرك، ولا أغتسل لك من جنبابة. أو تقول: لا أطيع لك أمراً. فإذا قالت ذلك فقد حلّ له أن يأخذ منها جميع ما أعطها وكل ما أقدر عليها مما تعطيه من مالها. فإذا تراضيا على ذلك، على طهر بشهود، فقد بانت منه بواحدة، وهو خاطب من الخطاب، فإن شاءت زوجته نفسها، وإن شاءت لم تفعل. فإن تزوجها فهي عنده على اثنتين باقيتين، وينبغي له أن يشترط عليها كما اشترط صاحب المبرأة، إن رجعت في شيء مما أعطيتني، فأنا أملك بضعتك. وقال: لا خلع ولا مبرأة ولا تخيير إلا على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين عدلين، والمختلعة إذا تزوجت زوجاً آخر ثم طلقها تحل للأول أن يتزوج بها، وقال: لا رجعة للزوج على المختلعة ولا على المبرأة إلا أن يبدو للمرأة فيرد عليها ما أخذ منها^(١). وقوله: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ يعني الطلاق الثالث، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ في الطلاق الأول والثاني.

ثم يؤكد القرآن على اعتبار هذا التشريع حداً من حدود الله التي ينبغي للمؤمن أن يقف عندها ولا يتعداها، لأن ذلك هو معنى الالتزام بخط الإيمان، فيقف حيث يريد الله منه أن يقف، ويتحرك حيث يريد الله منه أن يتحرك. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم في ما يتعلق بحياتهم الخاصة، ولغيرهم في ما يتصل بحياة الآخرين... وقد جعل الله للظلم عقابه الذي ينال الظالمين وغيرهم في يوم القيامة.

وعلى ضوء هذا، يمكن للزوج أن يرجع في طلاقه الأول، فتعود العلاقة الزوجية كما كانت. فإذا طلقها للمرة الثانية أمكنه الرجوع في طلاقه

(١) البهار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٦٤ - ٣٦٥، باب: ١١٤، رواية: ١.

الثاني، وتعود العلاقة من جديد ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ للمرة الثالثة، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ﴾ بأية وسيلة من رجوع أو عقد جديد؛ فقد حرمت عليه بالطلاق الثالث، فلا مجال للعودة إليه ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؛ وذلك بالعقد والدخول معاً، لما ورد في الحديث المأثور الذي يقول: «حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها»^(١) وهو كناية عن الالتذاذ بالجماع وعدم الاكتفاء بالعقد.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ من جديد، أمكنه أن يرجع إليها تماماً كما هو الحال في الطلاق الأول. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، ولعل في هذا التقييد إشارة بأن المؤمنين لا يحاولون إعادة التجربة على أساس مزاج شخصي أو شهوة طارئة، بل ينطلقون في ذلك كله من موقع الدراسة الواعية للموقف، والاستفادة من تلك التجارب السابقة الفاشلة، والشعور بضرورة عدم تكرارها إلا إذا أيقنا بإمكانية النجاح في ذلك؛ مما يجعل الظن غالباً في إقامتهما لحدود الله من جديد، لأن اليقين بذلك لا يتحقق في حسابات المستقبل... ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ في الطلاق والرجوع ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتحملون مسؤولية العلم فكراً وعملاً في كل ما يريده الله منهم وما لا يريده.

وفي هذا إشارة إلى أن أحكام الله، في ما أحله أو حرمه، هي الحدود التي يقف الإنسان عندها في حركته في الحياة، لأن في تجاوزها خطراً على مصيره في الدنيا والآخرة، لما في ذلك من الوقوع في المفاسد، ومن خسران المصالح في الدنيا، باعتبار ارتكاز التشريع عليها في الجانب الإيجابي أو السلبي؛ ولما فيه من التعرض لغضب الله الذي يؤدي إلى عقابه في الآخرة. فلا حرية للإنسان في معنى عبوديته لربه أن ينطلق في حياته تبعاً لهواه، وانفعالاً بمزاجه الذاتي، وذلك هو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ

(١) البهار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٦٠، باب: ١١٢، رواية: ٦٦.

اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾
[الأحزاب: ٣٦].

* * *

فإمسأكم بمحروف أو تسريح بإحسان: قاعدة فقهية

هل هذه الفقرة التي تكررت في أكثر من آية، متصلة ببعض الجزئيات في أحكام الطلاق من خلال تأكيد البقاء على الزوجية، أو الخروج منها بالطلاق أو بانتهاء العدة، أو هي قاعدة فقهية تحدد الطابع الإسلامي العام للعلاقة الزوجية، بحيث يدور الأمر بين السلوك الأخلاقي الشرعي في علاقة الزوج بزوجته بحيث يصدق عليه المعاشرة بالمعروف، و «الإمسك بالمعروف»؛ وبين إنهاء الحياة الزوجية بـ «التسريح بإحسان» بالطريقة التي لا يتعسف الزوج فيها على الزوجة بالطلاق، بحيث لا مجال لتجميد الحياة الزوجية في حالة إساءة الزوج لزوجته، ومنعها من حقوقها الشرعية كالنفقة والقسم والجماع في حدوده الخاصة... فإذا امتنع الزوج من تطبيق أحكام الشرع في حقوقها الخاصة، أُنذر بالطلاق من قِبَل الحاكم الشرعي؛ فإذا امتنع عن ذلك، طلقها الحاكم الشرعي؟

ربما يجد الفقيه نفسه أمام هذه الفقرة في دائرة واحدة، وذلك في الآيات

التالية:

١ - ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

وظاهره أن على المكلف، إذا طلق في المرة الثانية، أن يبقى على زوجته بالرجوع إليها في أثناء العدة، أو ينتظر انتهاء العدة، أو يطلقها في المرة الثانية على الاحتمالين في تفسير التسريح بإحسان. فلا علاقة لها على الظاهر

بالحديث عن طابع الحياة الزوجية في علاقة الرجل بامرأته .

— ٢ — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوْا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيِدَ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ .

— ٣ — وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ [الطلاق : ٢] .

وظاهرهما هو أن المطلقة، إذا بلغت نهاية العدة فلم يبق منها إلا القليل، فلا بد لزوجها أن يقف بين أمرين: إما مراجعتها لتستمر حياتهما بالمعروف، وإما أن يبقى على الطلاق فيفارقها نهائياً بإحسان. وأن عليه أن لا يجعل من رجوعه إليها وإمساكه بها وسيلة لإضرار بالزوجة، من أجل تطوير العدة أو التضيق بالنفقة أو الابتزاز لها، لتفتدي نفسها منه بما تبذله من مالٍ أو نحوه .

وفي ضوء ذلك، قد يلاحظ الفقيه أن الآية مختصة بأجواء الرجوع في العدة أو الاستمرار بالطلاق .

ولكن قد نلاحظ أن الفقهاء قد حكموا، تبعاً للأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت عليه السلام، بأن الرجل إذا امتنع عن النفقة وعن الطلاق، طلقها الحاكم الشرعي . وربما أوجت بعض هذه الأخبار بأن الأساس في ذلك هو هذه الفقرة: ﴿ أَلْطَلَقَ مَرَّتَانٍ فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ ۝ ٤ ۝ ٥ ۝ ٦ ۝ ٧ ۝ ٨ ۝ ٩ ۝ ١٠ ۝ ١١ ۝ ١٢ ۝ ١٣ ۝ ١٤ ۝ ١٥ ۝ ١٦ ۝ ١٧ ۝ ١٨ ۝ ١٩ ۝ ٢٠ ۝ ٢١ ۝ ٢٢ ۝ ٢٣ ۝ ٢٤ ۝ ٢٥ ۝ ٢٦ ۝ ٢٧ ۝ ٢٨ ۝ ٢٩ ۝ ٣٠ ۝ ٣١ ۝ ٣٢ ۝ ٣٣ ۝ ٣٤ ۝ ٣٥ ۝ ٣٦ ۝ ٣٧ ۝ ٣٨ ۝ ٣٩ ۝ ٤٠ ۝ ٤١ ۝ ٤٢ ۝ ٤٣ ۝ ٤٤ ۝ ٤٥ ۝ ٤٦ ۝ ٤٧ ۝ ٤٨ ۝ ٤٩ ۝ ٥٠ ۝ ٥١ ۝ ٥٢ ۝ ٥٣ ۝ ٥٤ ۝ ٥٥ ۝ ٥٦ ۝ ٥٧ ۝ ٥٨ ۝ ٥٩ ۝ ٦٠ ۝ ٦١ ۝ ٦٢ ۝ ٦٣ ۝ ٦٤ ۝ ٦٥ ۝ ٦٦ ۝ ٦٧ ۝ ٦٨ ۝ ٦٩ ۝ ٧٠ ۝ ٧١ ۝ ٧٢ ۝ ٧٣ ۝ ٧٤ ۝ ٧٥ ۝ ٧٦ ۝ ٧٧ ۝ ٧٨ ۝ ٧٩ ۝ ٨٠ ۝ ٨١ ۝ ٨٢ ۝ ٨٣ ۝ ٨٤ ۝ ٨٥ ۝ ٨٦ ۝ ٨٧ ۝ ٨٨ ۝ ٨٩ ۝ ٩٠ ۝ ٩١ ۝ ٩٢ ۝ ٩٣ ۝ ٩٤ ۝ ٩٥ ۝ ٩٦ ۝ ٩٧ ۝ ٩٨ ۝ ٩٩ ۝ ١٠٠ ۝ ١٠١ ۝ ١٠٢ ۝ ١٠٣ ۝ ١٠٤ ۝ ١٠٥ ۝ ١٠٦ ۝ ١٠٧ ۝ ١٠٨ ۝ ١٠٩ ۝ ١١٠ ۝ ١١١ ۝ ١١٢ ۝ ١١٣ ۝ ١١٤ ۝ ١١٥ ۝ ١١٦ ۝ ١١٧ ۝ ١١٨ ۝ ١١٩ ۝ ١٢٠ ۝ ١٢١ ۝ ١٢٢ ۝ ١٢٣ ۝ ١٢٤ ۝ ١٢٥ ۝ ١٢٦ ۝ ١٢٧ ۝ ١٢٨ ۝ ١٢٩ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨ ۝ ٤٦٩ ۝ ٤٧٠ ۝ ٤٧١ ۝ ٤٧٢ ۝ ٤٧٣ ۝ ٤٧٤ ۝ ٤٧٥ ۝ ٤٧٦ ۝ ٤٧٧ ۝ ٤٧٨ ۝ ٤٧٩ ۝ ٤٨٠ ۝ ٤٨١ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣ ۝ ١٠٩٤ ۝ ١٠٩٥ ۝ ١٠٩٦ ۝ ١٠٩٧ ۝ ١٠٩٨ ۝ ١٠٩٩ ۝ ١١٠٠ ۝ ١١٠١ ۝ ١١٠٢ ۝ ١١٠٣ ۝ ١١٠٤ ۝ ١١٠٥ ۝ ١١٠٦ ۝ ١١٠٧ ۝ ١١٠٨ ۝ ١١٠٩ ۝ ١١١٠ ۝ ١١١١ ۝ ١١١٢ ۝ ١١١٣ ۝ ١١١٤ ۝ ١١١٥ ۝ ١١١٦ ۝ ١١١٧ ۝ ١١١٨ ۝ ١١١٩ ۝ ١١٢٠ ۝ ١١٢١ ۝ ١١٢٢ ۝ ١١٢٣ ۝ ١١٢٤ ۝ ١١٢٥ ۝ ١١٢٦ ۝ ١١٢٧ ۝ ١١٢٨ ۝ ١١٢٩ ۝ ١١٣٠ ۝ ١١٣١ ۝ ١١٣٢ ۝ ١١٣٣ ۝ ١١٣٤ ۝ ١١٣٥ ۝ ١١٣٦ ۝ ١١٣٧ ۝ ١١٣٨ ۝ ١١٣٩ ۝ ١١٤٠ ۝ ١١٤١ ۝ ١١٤٢ ۝ ١١٤٣ ۝ ١١٤٤ ۝ ١١٤٥ ۝

نزل به الكتاب^(١). فإنها توحى بأن الأمر دائر بين الأمرين، فلا تجميد للوضع السلبي. فلا بد من التسريح بإحسان إذا لم يكن هناك إمساك بالمعروف. ولا يضر بذلك اقتصار الحديث على كف الأذى وإحياء النفقة، لأن من الممكن أن يكون ذلك على سبيل المثال، لأن هناك حقوقاً أخرى للمرأة على الزوج كما هي النفقة، كالقسم في بعض الآراء أو بعض الحالات والجماع في الحدود الشرعية المعينة.

وإذا كان الحديث ضعيف السند، فإنه لا يخلو من إحياء بالمضمون في الآية، مع ملاحظة أننا لا نقتصر في حجية الخبر على خبر الثقة، بل نضيف إلى ذلك الخبر الموثوق به نوعاً، لأن سيرة العقلاء أو بناءهم هو الأساس في حجتيه؛ وربما كان ضعف احتمال الكذب، لعدم وجود أساس لرغبة الناقل في تعمده هو القرينة الطبيعية على وثاقة الحديث.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المورد الذي نزلت الآية، من خلال مناسبتها، لا يخصص الوارد إذا كانت الفقرة تشمل أكثر من ذلك المورد. فإن إحياء هذه الفقرة يدل على أن الله لا يريد للمرأة في علاقتها بالرجل في الزواج أن تسقط تحت تأثير تعسفه، وأن تتجمد حياتها في دائرة وحشيته. فليس له أن يمسكها ضارراً من دون فرق بين الإمساك بها في مدى الحياة الزوجية الطبيعية، أو في الرجعة بها بعد طلاق. بل لا بد له، في حال إصراره على الإساءة أو الإضرار بها، من أن يطلقها أو يسرحها بإحسان، لا سيما إذا دققنا في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضَرَاراً لِنَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، والآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٦٠، باب: ١١٢، رواية: ٦٧.

النِّسَاءَ كَرِهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿[النساء: ١٩]﴾ فإن الآية الأولى ترفض الإمساك للإضرار، لأن ذلك يمثل لونا من ألوان العدوان عليها. فلا يمكن اختصاص النهي عن الإضرار بها بصورة الإمساك في حالة العدة بالرجعة، فلا مانع من الإضرار في الحياة الزوجية في أوضاعها العادية التي لا طلاق فيها.

أما الآية الثانية، فإنها تأمر بالمعاشرة بالمعروف، وإن بدا للرجل بعض ما يكرهه من زوجته، لأن الكراهة النفسية قد لا تتفق مع واقع الإنسان الذي نكرهه، فربما كان له في الجانب الخفي من عناصر شخصيته الكثير مما يحببنا به لو اطلعنا عليه؛ مما يعني أن على الزوج معاشرة زوجته بالمعروف حتى في حال كراهته لها.

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا: هل هي نصيحة من الله للأزواج، أو هي برنامج عملي للزواج كطابع عملي له، من خلال ما يريد الله للزوجة أن تعيشه مع زوجها في زواجها به؟؟ وهل نتصور أن الله يريد للمرأة أن تخضع للمعاشرة بغير المعروف، بحيث يكون ذلك ضريبة مفروضة عليها من الله، فلا فرصة لها في التخلص من ذلك، مهما فعل الزوج ومهما أساء، ما عدا النفقة، تماماً كما لو كان كل شيء للمرأة أن تحصل على ما يقيم جسدها ويكسو عورتها في بيت زوجها؟.

إن السؤال يفرض نفسه، وإن القرآن يجيب عن ذلك بأن للمرأة الحق بأن تعيش مع زوجها بمعروف وسلام، أو أن تفارقه بإحسان وسلام. وفي ضوء ذلك، فإن للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا منعها أي حق من حقوقها الشرعية في النفقة والمضاجعة بالمبيت معها، والجنس الكامل في وقته. فإذا لم يستجب لذلك، فلها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي الذي جعل الله له الولاية على طلاقها.

إنها أفكار نثيها، في نطاق استنطاق الآيات الكريمة، ليدور التفكير حولها، لا سيما إذا عرفنا أن الإجماع لم يقم ضدها، لأن هناك من العلماء من يوافق على هذا الرأي.

لماذا التحجير في حدود الطلاق؟

ويبقى أمامنا سؤال يفرض نفسه :

لماذا هذا التحجير على الإنسان في حدود الطلاق، والوقوف به عند حد الثلاث؛ فإذا تجاوزه، فلا مجال لإعادة الزواج إلا على أساس زواجها بإنسان آخر؛ الأمر الذي يعقد القضية، انطلاقاً من أن الإنسان الذي يرغب في العيش مع زوجته، لا يرضى بأن تعقد علاقة، ولو شرعية، مع إنسان آخر في امتداد علاقته بها؟..

والجواب عن ذلك: إن الله عندما أحلّ الطلاق من خلال الأسباب الشخصية والاجتماعية المترتبة على ذلك، أراد أن ينزل بالزواج إلى المستوى الطبيعي في العلاقات الإنسانية الواقعية، فلا يجعله غارقاً في أجواء القداسة المثالية، فأباح للزوجين أن ينفصلا عندما يريان المصلحة في ذلك، وجعل للزوج الحق في إيقاع الطلاق تبعاً لما جعله الله له من حق القوامة والإشراف على البيت الزوجي... ولكنه لا يريد أن يجعل الحياة الزوجية تهتز أمام الرياح، فتتلاعب بها الخلافات اليومية بالمستوى الذي يجعل لكل يوم طلاقاً أو لكل شهر طلاقاً؛ مما يجعل من العلاقة مأساة وكارثة لهما وعبئاً بحياتهما، بدلاً من أن تكون خيراً وبركة وسعادة... فأراد أن يحدد الموضوع بالحد الذي تعاف النفس معه العودة إلى الحياة الزوجية إن كان لهما رغبة في ذلك،

ليفكر الإنسان تفكيراً عميقاً في الموضوع في المرة الثالثة ، إذا لم يكن قد وقف طويلاً أمام الطلاق في المرة الأولى أو الثانية . . . ولتكون القضية في الثالثة بمثابة الصدمة القوية التي تجعله يعيد النظر في كل حساباته المستقبلية ، لتكون العودة بعد الزواج الجديد بالآخر مرتكزة على قاعدة ثابتة من التأمل والتفكير والمعاناة والمسؤولية . . . وفي ذلك درس عملي للإنسان في طريقة ممارسته للعلاقة الزوجية بوعي وبإنسانية .



الآية

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّنَعْدُوهُنَّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا
آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يُعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

* * *

معاني المفردات

﴿أَجَلُهُنَّ﴾ : الأجل : آخر المدة وعاقبة الأمور .

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ : المعروف : في الآية : الحق الذي يدعو إليه العقل أو الشرع ، للمعرفة بصحته ، خلاف المنكر الذي يزجر عنه العقل أو السمع ، لاستحالة المعرفة بصحته ؛ فما يجوز المعرفة بصحته معروف ، وما لا يجوز المعرفة بصحته منكر ، كما في المجمع ^(١) .

﴿ضِرَارًا﴾ : بقصد الإضرار بهن .

(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٨١ .

﴿هُزُؤًا﴾: أي: مهزوءاً بها بالإعراض عنها والتهاون في الحفاظ عليها، أي: يتعامل معها تعامل الهزاء والسخرية، لا تعامل الشيء الجدّي الذي يملك الاحترام والرعاية.

* * *

مناسبة النزول

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: كان الرجل يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها، ثم يطلقها... يفعل ذلك، يضارها ويعضلها، فأنزل الله هذه الآية^(١).

وأخرج الطبري عن السُّدّي قال: نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت ابن يسار، طلق امرأته، حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة، راجعها، ثم طلقها ففعل ذلك بها حتى مضت له تسعة أشهر مضارة يضارها؛ فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ ضَرَارًا لِّنَعْنَدُوهُنَّ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْخِذُواْ ءَايَتِ اللّهِ هُزُؤًا﴾. أخرج ابن أبي عمر في مسنده، وابن مردويه عن أبي الدرداء، قال: كان الرجل يطلق، ثم يقول: لعبت ويعتق، ثم يقول: لعبت. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنْخِذُواْ ءَايَتِ اللّهِ هُزُؤًا﴾ فقال رسول الله ﷺ من طلق أو أعتق، فقال: لعبت، فليس قوله بشيء، يقع عليه ويلزمه^(٣). وقال ﷺ: «ثلاث جدهنّ جدّ وهزلهنّ جدّ: الطلاق

(١) تفسير الطبري، ج: ٢، ص: ٦٥٢.

(٢) م. ن، ج: ٢، ص: ٦٥٣.

(٣) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٦٨٣.

والنكاح والرجعة»^(١).

* * *

إمساك الضرر ظلم للنفس واستهزاء بآيات الله

في هذه الآية نداء للأزواج الذين يستغلون الحق في الرجوع في العدة، كوسيلة من وسائل الإضرار بالزوجة... فهو لا يريد أن يرجع إليها لئلا يساكنها ويعاشرها بالمعروف، كما يعيش الزوج مع زوجته بالطريقة الإنسانية السمحة، بل يحاول أن يضارّها ليجعلها في ما يشبه السجن من الحياة الزوجية المضغوطة بضغوط العدوان والحقد، وليمنعها من أن تجد لنفسها السبيل في حياة جديدة، في تجربة أخرى مع زوج آخر... وهكذا يتصرف لينفّس عما يحمله في داخله من عوامل الحقد. إن الله يخاطب من يفعل ذلك، بأنه ممن ظلم نفسه بمعصيته ربه؛ لأن في ذلك إثماً وانحرافاً عن خط الله، واستهزاء بآيات الله من ناحية عملية، وإن لم يكن كذلك من ناحية شكلية. فإنه لا فرق بين من لا يحترم آيات الله بالكلمة، وبين من لا يحترمها بالعمل.

ثم يذكرهم الله بنعمته عليهم في ما أولاهم إياه من ضروب النعم، ويشير أمامهم التفكير الواعي في ما أنزله الله عليهم — بواسطة أنبيائه — من الكتاب الذي يهدي الإنسان السبيل إلى النور ويبعده عن الظلمة، ومن الحكمة التي تخلق للإنسان الرؤية الواضحة والفهم المستقيم والوقوف عند العلامات الثابتة للأشياء... ففي ذلك كله الموعظة، كل الموعظة، التي تدعو إلى التقوى، وتدفع إلى النجاة، وتبعث على الشعور العميق بالرقابة الشاملة الواعية من قبل الله الذي لا بد للعباد من أن يعلموا بأنه عليم بكل شيء؛ فهو الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد يكون في هذا التأكيد في

(١) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٦٨٤.

ترديد الكلمات التي تعبر عن ضرورة الالتزام من الوجه الإيجابي والسلبي، والدعوة إلى التجاوب مع موعظة الله للإنسان في ذلك كله، والدعوة إلى التقوى واستشعار أثر النعمة في نفسه وفي ما أنزله الله عليه... قد يكون في هذا التأكيد إشارة إلى أن مثل هذه الأمور التي تدخل في النوازع النفسية المعقدة التي تلتقي بالقيم المنحطة للإنسان، قد تحتاج إلى جهد كبير في أساليب المعالجة والإصلاح لقوة تأثيرها على النفس الإنسانية بالمستوى الكبير.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَبْطَهُنَّ﴾ أي: وصلن إلى نهايته، فلم يبق منه إلا القليل الذي انتهى، وخرجت المرأة من العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك بالرجوع إليهن من أجل العودة إلى الرابطة الزوجية، بعد هذه الفترة التي كانت فترة تأمل ودرس للإيجابيات والسلبيات واكتشاف الخطأ في الطلاق، لتكون العودة مطلقة من القناعة في ضرورة الدخول في تجربة جديدة مع الزوجة؛ فيعاشرها بالمعروف الذي يعبر عن الأخلاق الحسنة، والرعاية الطيبة، والعاطفة الحميمة، والرحمة الكريمة، والمودة الروحية... ﴿أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وأطلقوا لها حريتها، التي تتحرك من خلالها في حياتها بعيداً عن قيود الزواج ومسؤولياته، لتعود كما كانت قبل الزواج إنسانة حرة في نفسها أو أمام الآخرين. وليكن ذلك بالأسلوب الإنساني الذي يمثل الإحسان في المعاملة، الذي يجعل للطلاق ذكرى طيبة، كما يحدث ذلك في مشروع الزواج.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾، أي قصد الإضرار بهن من أجل ابتزازهن مالياً أو الضغط عليهن عاطفياً، لمنعهن من الارتباط بعد الطلاق بشخص آخر، أو لتحويل الزواج إلى سجن دائم، أو غير ذلك مما ينطلق من موقع العقدة الذاتية العدوانية... ﴿لِنَعْتَدُوهُنَّ﴾ لأن ذلك يمثل الاعتداء على حرية المرأة وكرامتها وإنسانيتها... وهذا مما لا يرضاه الله للإنسان؛ فلم يسلط الإنسان على الإنسان إلا بالحق.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، لأنه يدفع بها إلى الكثير من التعقيدات التي قد تعقد له حياته. فإن الكثير من الحالات التي يوجه فيها الإنسان الضرر للآخرين، قد تنقلب لتؤدي إلى الإضرار به، على طريقة «من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه»؛ ولأنه يعرضها لغضب الله. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ في الابتعاد عن روحها ومضمونها الإنساني، وحركتها في تحقيق السلام للحياة الزوجية، لتحولها إلى وسائل للإضرار بالآخرين، باستغلال الأشكال القانونية التي تمنحهم الشرعية لما يريدون الوصول إليه، كما لو كان الوضع طبيعياً جدياً، لا مجال فيه لأية مسؤولية سلبية ضدهم؛ تماماً كما لو كانوا في مقام الاستهزاء، وذلك بالإيحاء بأنهم منسجمون مع شريعة الله، في الوقت الذي يسقطون كل مضمونها الروحي وبعدها الإنساني.

﴿وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ الذي يمثل الإسلام في الخط الفطري والبعد التطبيقي، فيؤدي بالإنسان إلى الارتفاع إلى المستوى الأعلى في روحيته، وإنسانيته، وفي سعادته في توفير الاستقرار في حياته الفردية والاجتماعية في داخل الحياة الزوجية أو الحياة العامة، وتحقيق الخير والرفاه والسلام له... ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ في الالتزام بأوامره ونواهيه ووصاياه ونصائحه ومناهجه في كل قضاياكم العامة أو الخاصة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فهو العالم بالغيب، المطلع على السرائر، الذي يعرف ما تخفي الصدور، مما قد يفكر فيه الإنسان بالطريقة التي يختلف فيه الباطن عن الظاهر، فيكون ظاهره الأخذ بأسباب الشريعة وباطنه الإضرار بالمرأة - الزوجة. فليكن لكم الحس الإيماني، الذي تلتفتون فيه إلى حضور الله معكم ورقابته عليكم، لتتوازنوا في خطواتكم في الدنيا، ولتربحوا جنة الله في الآخرة.

الآية

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا
بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ
لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

* * *

معاني المفردات

﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: تمنعهن ظلماً وقسراً. وهو مأخوذ من العضلة، وهي كل لحم صلب في عصب. وعضلته: شددته بالعضلة، مثل عصبته: شددته بالعصب. ويستعمل في كل منع شديد، ومن هنا قيل: داءٌ عُضَالٌ للمرض الذي يصعب برؤه. وعضل المرأة يعضلها عضلاً، إذا منعها من التزويج ظلماً.

﴿أَزْكَى﴾: أصلح وأنمى وأحرى أن يجعلكم أزكياً. وأصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية.

﴿وَأَطْهَرُ﴾: أطهر للقلوب والنفوس، وأسلم للأخلاق. والطهارة

ضربان: طهارة جسم، وطهارة نفس، وحمل عليها عامة الآيات.

* * *

مناسبة النزول

روى البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم عن معقل بن يسار، قال: «كانت لي أخت، فأتاني ابن عم لي فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهو يها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقلت له: يا لكع أكرمتك بها، وزوجتكها، فطلقتها ثم جئت تخطبها؟ والله لا ترجع إليك أبداً. وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعْلِها، فأَنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ قال: ففي نزول هذه الآية. فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه. وفي لفظ: فلما سمعها معقل، قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك»^(١).

* * *

لا تمنعوا المطلقات من العودة

وهذا نداء آخر للأشخاص الذين يملكون أمر الضغط على النساء، من الآباء والأمهات والإخوة والأعمام والأخوال... وغيرهم، ممن جرت عاداتهم بالتدخل في أمورهن الخاصة والعامة، انطلاقاً من الضعف الطبيعي للمرأة الذي يبرز خضوعها للاضطهاد وانسحاقها تحت ضغط إرادة الآخرين. فلا يكون لها أي موقف في حياتها العملية، ولا يسمح لها بإبداء أي رأي في علاقاتها

(١) الدرّ المشور، ج: ١، ص: ٦٨٥.

الزوجية أو المالية أو الاجتماعية .

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ من خلال بعض الحالات الانفعالية الطارئة التي تحولت إلى عنصر ضغط سلبي نفسي ضد الزوجة، أو شقاق بينهما، أو من خلال بعض المصالح الآنية التي فرضت ذلك عليكم . . . ﴿فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي : انتهت العدة، فلم يعد لكم حق شرعي في الرجوع بطريقة تلقائية؛ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وتمنعوهن عن العودة إلى الزواج من جديد، ﴿أَنْ يَكُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ استجابةً للرغبة النفسية التي عاشتها المرأة وعاشها الرجل بعد تجربة الطلاق الذي شعرا فيه أنهما لا يستغنيان عن بعضهما، وأن ما حدث لهما كان صدمة لهما هزت أعماقهما؛ فرأيا أن الانفصال ليس من مصلحتهما؛ وذلك ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وأرادوا الدخول في ميثاق جديد وشروط جديدة، تمنح العلاقة الزوجية قوةً وثباتاً وصلابة حتى لا تهتز بفعل الحالات الطارئة، كما حدث سابقاً، فإن التجربة الصعبة قد أعطتهما درساً جديداً للمستقبل .

وقد نستوحي من الآية، أن القضية لا تقتصر على التحذير من المنع، بل تتعداه إلى التشجيع على العودة، فإن النهي عن شيء قد يخترن في داخله الدعوة إلى الأخذ بالخيار الآخر، باعتبار أن الله يريد للإنسان أن يستفيد من تجربته؛ فيتراجع عن الخطأ الذي وقع فيه، لا سيما في مسألة الزواج والطلاق التي قد تكون لها علاقة بالحياة الروحية والعملية للزوجين، بحيث يتحول الطلاق إلى عقدة نفسية لدى أي واحد منهما، أو أزمة عملية، أو يؤدي إلى مشاكل صعبة في أوضاعهما الخاصة والعامة، أو يترك تأثيره على أولادهما الذين قد يتعرضون للضياح أو للتعقيد النفسي أو للسقوط في أحوال الجرائم الاجتماعية، مما يجعل من العودة إلى الحياة الزوجية ضرورةً نفسيةً وعمليةً .

وخلاصة النداء، أن على هؤلاء أن لا يمنعوا المطلقات من العودة إلى أزواجهن من جديد بالعقد بعد العدة إذا تراضوا بينهما بالمعروف، بل يتركهن الحرية في ذلك، لأن القضية هي قضيتهم الخاصة المتعلقة بحياتهن

الحاضرة والمستقبل، فمن حقهن أن يملكن الإرادة في ما يردن وما لا يردن .

* * *

الْأَخْذُ بِمَوْعِظَةِ اللَّهِ أَزْكَى وَأَطْهَرُ لِمَنْ يُؤْمِنُ

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وتلك هي موعظة الله لمن يخافون الله ويخافون حساب الآخرة، انطلاقاً من الإيمان بالله واليوم الآخر الذي يدفع الإنسان إلى التفكير في الأمور من خلال الآفاق الرحبة التي تتجاوز الزوايا الضيقة التي تحاصره، فتضعه في دائرة معزولة عن الأفق الواسع . فإن قيمة الإيمان بالله، أنه يدفع الإنسان للتفكير بالأشياء من خلال ما يحبه الله له في حياته، لأنه الأعم بما يصلحه ويفسده . أما قيمة الإيمان باليوم الآخر، فتتمثل في الرغبة في الحصول على ثواب الله والابتعاد عن عقابه، من خلال ما يأخذ به أو يترك من الأقوال والأعمال والمواقف والعلاقات .

﴿ذَلِكَمُ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ فهو الذي يحقق لكم التوازن النفسي والعملية، ويربطكم بالواقع الذي تتحركون فيه؛ لتنظروا إليه من خلال حركة النمو الروحي في وجدانكم بما يفتح لكم من الآفاق الواسعة التي تتحسس النتائج الإيجابية في الأمور من أكثر من موقع، ومن خلال الطهارة الفكرية والعملية التي تجعلكم تتعدون عن كل قذارات الجاهلية في أنانياتها وعصبياتها وآفاقها الضيقة وعنفوانها الكاذب . . . ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كل أسرار الحياة الخفية الكامنة في الواقع الفردي والاجتماعي للناس، فيأمركم وينهاكم تبعاً لذلك . ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، فتتحركون من خلال الحالة الانفعالية الضبابية التي تحجب عنكم وضوح الرؤية للأشياء، فتتخبطون في مشاكلكم من خلال الجهل الضاغط على حياتكم كلها .

وبذلك يتحقق لهم النمو والطهارة بشكل أفضل وأعلى، لأن ذلك يحفظ

للمجتمع شرفه وعفته وانسجامه مع خطه المستقيم في الحياة، بينما يستلزم الضغط والمنع عن ممارسة الحق الطبيعي للإنسان في تقرير مصيره في الوقوع في الانحراف. فلا بد للإنسان من الالتزام بتوجيهات الله ووصاياه وتعاليمه، لأنه الذي يعلم مصلحة الإنسان أكثر مما يعلمها الإنسان نفسه.

* * *

الآية وحرية الاختيار عند المرأة

وإذا كانت هذه الآية تتحدث عن المنع من عضل النساء في العودة إلى أزواجهن من جديد، فإن هذه المسألة ليست هي كل شيء في خط الفكرة، بل هي جزء من الخط العام الذي يمنح المرأة الحرية في الاختيار بما يتصل بحياتها الخاصة. فليس لأحد من أقربائها، ولا لأي شخص من رموز المجتمع، ولا للمجتمع نفسه، الحق في الضغط على حريتها في اختيار ما تريد، لأنها إنسان كامل في عقله، ومستقل في قراره، وحر في إدارة شؤونه الذاتية والمالية والاجتماعية. . . فلا سلطة لأحد عليه، إلا بالحق المنفتح على شريعة الله في أوامره ونواهيه.

● □ ● □ ●

الآية

﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ
الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا
تُضَارَّ وَلَدَةٌ يَوْلَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلَدُهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا
عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أَلَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

* * *

معاني المفردات

﴿وَالْوَلَدَاتُ﴾ : الأمهات .

﴿يُرْضِعْنَ﴾ : الرضع : مص الثدي لشرب اللبن منه .

﴿حَوْلَيْنِ﴾ : سنتين . والحول : السنة ، مأخوذ من الانقلاب في قولك :

حال الشيء عما كان عليه يحول . ومنه : الاستحالة في الكلام لانقلابه عن

الصواب . وقيل : أخذ من الانتقال من قولك : تحوّل عن المكان .

﴿وَكَسَوْهُمْ﴾ : الكسوة : مصدر كسوته ثوباً ، أي : ألبسته . والكسوة :

اللباس .

﴿تُكَلِّفُ﴾ : التكليف : الإلزام الشاق . وأصله من الكلف ، وهو ظهور

الأثر لأنه يلزمه ما يظهر فيه أثره . وتكلف أي : تحمّل . والكلف بالشيء : الإبلاغ به .

﴿وُسْعَهَا﴾ : الوسع : بمعنى الطاقة ، مأخوذ من سعة المسلك إلى الفرض

فيمكن لذلك ، فلو ضاق لأعجز عنه . والسعة فيه بمعنى القدرة ، فلذلك قيل : الوسع بمعنى الطاقة .

﴿فَصَالًا﴾ : الفصال : الفطام ، لانفصال المولود عن الاغتذاء بثدي أمه

إلى غيره من الأقوات . وفصيلة الرجل : بنو أبيه ، لانفصالهم من أصل واحد .

﴿وَشَاوِرٌ﴾ : التشاور : مأخوذ من الشور ، وهو اجتناء العسل .

والمشورة : استخراج الرأي من المستشار ، لأنها تُجْتَنَى منه .

﴿تَسْتَرْضِعُونَ﴾ : أن تطلبوا مرضع غير الوالدات .

* * *

الرضاع : أهميته ، مدته ، حقوقه

وهذا تخطيط شرعي لموضوع الرضاع في ما يخضع له من تحديد وما

يترتب عليه من مسؤوليات ، سواء في ذلك حالة بقاء العلاقات الزوجية أو حالة انقطاعها بالطلاق . وهذا أمر تفرضه الحاجة إلى رعاية الطفل في فترة الرضاع ، وإلى الحقوق العاطفية والمادية التي تحكم علاقة الأم والأب في رعايتهما له .

ففي مجال التحديد الزمني، تطرح الآية الحولين كفترة طبيعية للرضاع ينبغي للوالدين أن يراعيها في تغذية الطفل وتنميته جسدياً. فربما كان في ذلك الكثير الكثير من العناصر الأساسية التي تبني له قوته وتمنحه الحيوية والمناعة.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ وقد أثبتت الأبحاث الطبية المعاصرة أن الفترة الطبيعية النموذجية للرضاع هي سنتان، كما أثبتت أن الإرضاع من الثدي يملك الكثير من الخصائص التي تترك تأثيراتها الإيجابية على صحة الطفل الجسدية والنفسية. وقد ثبت أن لحليب الأم خصوصيات كثيرة في عناصره الغذائية التي تتطور تبعاً لتطور حاجات الطفل في عملية نموه، مما يفرض على الأبوين عدم اللجوء إلى أنواع أخرى من الحليب الصناعي أو الطبيعي الحيواني، كما اعتاده الناس.

وهناك نقطة لا بد للأبوين من مراعاتها في مسألة الرضاع، فإنه يمنح الطفل شعوراً بالأمان في عملية الاحتضان في حال الرضاع، كما يعطيه الإحساس بالامتلاء العاطفي الذي يتحول، تدريجياً، إلى حالة من الاسترخاء اللذيذ والقوة الداخلية.

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وقد لا يجب أن تكون هذه الفترة هي حدود الرضاعة التي لا تجوز بعدها، لأنه قد ثبت حلية ذلك. ولكن التحديد قد يخضع لاعتبارات شرعية خاصة، كالتحريم الحاصل في العلاقات الرضاعية المستند إلى ما ورد عن رسول الله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(١) الذي يختص أثره بالحولين، فلا تحريم بالرضاع الحاصل بعدهما.

وقد يرجع التحديد إلى حق الأم في الإرضاع، الذي يتحقق من خلاله حق الحضانة للولد الذي قد يكون تابعاً لحق الرضاع في بعض الاتجاهات

(١) البحار، م: ١٣، ج: ٤٠، ص: ٣٠٩، باب: ٩٣، رواية: ٢.

الفقهية، وقد يتحدد فيه استحقاق الأم للأجرة على الرضاع. وفي جميع ذلك، لا بد لنا من أن نفهم ارتباط ذلك كله بمصلحة الطفل، باعتبار أن أياً من هذه الحقوق لا يقف عند حاجة الأم والأب إلا من خلال ارتباطها الطبيعي بحاجة الطفل إلى أن يعيشا المسؤولية تجاهه في فترة رضاعه... وفي قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾ بعض الإشارة إلى أن هذه الفترة هي الفترة الطبيعية التي تتم بها الرضاعة لمن أراد أن يصل بها إلى تمامها.

والولد — في حساب المسؤولية المادية — هو ابن الأب؛ فهو الذي يكون النسب إليه، وهو الذي يجب عليه تربيته ورعايته وحفظه من كل سوء... أما الأم، فلا يجب عليها من ذلك أي شيء ما عدا الأمور التي تتوقف عليها الحياة مما لا يمكن لغيرها أن تقدمه. فإذا أرادت أن تقوم بشيء من ذلك، كان لها الحق في طلب النفقة من رزق وكسوة كأجرة على خدماتها الرضاعية وغير الرضاعية. ولعل التركيز على الرزق والكسوة من جهة ما يمثلان من حاجة طبيعية للوالدة في ما تحتاجه مما تصرف فيه الأجرة التي تستحقها، لا لخصوصية فيها بالذات.

ولا بد من أن تكون النفقة في حدود المعروف الذي يتمثل بما تحتاجه مما يتناسب مع وضعها الاجتماعي من ناحية مادية؛ وذلك بالمستوى الذي لا يزيد على طاقة الرجل في الإنفاق. فلا بد من مراعاة مستواه المادي، ليتناسب مع طاقته؛ وذلك هو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وبذلك يتحقق التوازن الإنساني في المسؤولية المادية. فإذا كان الرجل غنياً في ماله، وكانت المرأة في مستوى معين من الحاجة، وكانت رعايتها للطفل تفرض عليها التفرغ له — كما يوحي به جو الآية — فقد يكون من الطبيعي أن يراعي المشرع حالة المرأة التي لا تضيق بها حالة الرجل. أما إذا كانت موارده محدودة، بحيث لا يستطيع مواجهة حاجات المرأة بشكل كامل، فإن الواجب عليه أن يعطيها جهده وطاقته في ما يملك من جهد الطاقة،

لأن من غير الطبيعي أن يكلف غير ذلك مما لا تستطيعه موارده المالية . . .
وقد نستوحي هذا التوازن، الذي يلاحظ فيه التشريع الحالة الطبيعية لكلا الطرفين في قوله تعالى: ﴿ لَا تُضَاكِرْ وَلَدَةً يُوْلِدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهَا يُوْلِدُهَا ﴾، فقد نفهم منه أن لا يحاول كل من الطرفين أن يمارس ضغطاً على الآخر بسبب ولده، كوسيلة من وسائل اعتبار الولد أداة ضغط. وقد تعددت الآراء والأحاديث في تفسير هذا الضغط الذي يراد منه الإضرار من جانب الزوج - الأب - كأن يحول بين الوالدة وولدها بمنعها عن حضائته أو رؤيته أو ما أشبه ذلك . . . فإن ذلك حرج ومضارة عليها. وأما من جانب الزوجة بأن تمنعه عن رؤيته . . .

وقد جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير الآية، قال: كانت المرأة ممن ترفع يدها إلى الرجل إذا أراد مجامعتها، فتقول: لا أدعك، إني أخاف على ولدي، ويقول الرجل للمرأة: إني لا أجامعك إني أخاف أن تعلقي فأقتل ولدي. فنهى الله عن أن يضار الرجل المرأة والمرأة الرجل^(١). وقد يكون مثل هذا التفسير وارداً مورد التطبيق، وليس جارياً في مجرى التحديد، كما هو الحال في أسباب النزول التي يتحرك فيها المفهوم من خلال النموذج، ولا يتجمد عنده بل يمتد في كل مورد فيه للمفهوم مجال.

وفي ضوء ذلك، نستوحي من هذه الفقرة من الآية التركيز على التحذير عن العلاقة المعقدة التي يتحرك فيها كل طرف من الزوجين من خلال العقد الداخلية السلبية المنطلقة من الحالة المتأزمة الكامنة في طبيعة علاقتهما الخاصة، فيحاول كل منهما أن ينقّس عن عقده تجاه الآخر بما يملكه من وسائل الضغط الطبيعية، فيحرمه من بعض المجالات التي تتصل بعاطفته وتقترب من مسؤوليته، أو يعطل عليه فرصة مناسبة كان من الممكن أن يحصل

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠٠، ص: ١٩٢، باب: ٦٦، رواية: ٤٥.

منها على خير كبير، ولا سيما في ما يتعلق بأمر الولد الذي تلتي فيه العاطفة بالمسؤولية، مما يجعل من الإضرار المتبادل فرصة لاستغلال الجانب العاطفي في وضع مضاد، أو الاستفادة من طبيعة المسؤولية في المواقف السلبية الصعبة.



لا ضرر ولا ضرار

وفي ضوء ذلك، قد نستفيد منها قاعدة فقهية «جزئية» من خلال القاعدة الكبرى «لا ضرر ولا ضرار» تتصل بحق الوالد في ولده بأن تكون له الفرصة في تلبية حاجاته الأبوية العاطفية. فليس للأُم — التي قد يكون لها الحق في حضانتها — أن تمنع والده من رؤيته أو رعايته في تلك الحال تحت تأثير عقدة خاصة ناشئة من الطلاق أو غيره ثأراً منه، لأن ذلك، وأمثاله، يمثل حالة الضرر به. وهكذا الحال في سلوك الأب مع أم الولد بعد انقضاء حضانتها له أو انفصالها الواقعي عنه، فليس له أن يضارها بمنعها من رؤية ولدها ورعايته العاطفية في وقت معين، بالدرجة التي تلبي فيها حاجة الأمومة في نفسها، بقدر ما يتسع له الوضع الطبيعي في أمثال تلك الحالات.

وقد يكون لهذا التوافق الوالدي — بين الوالد والوالدة — تأثير كبير على روحية الطفل ونفسيته وشعوره بالأمان بينهما. وربما هذا ملحوظ في هذا التشريع لأن مضارة كل منهما للآخر في الولد يجعل الولد ممزقاً بينهما في مشاعره وتصرفاته، بحيث يؤدي ذلك، إلى تكوين عقدة خطيرة في نفسه قد تترك تأثيرها السلبي على مستقبل حياته في ذاته، وفي واقع حياته مع الآخرين.



مسؤولية الوارث

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾^(١) اختلف المفسرون في تحديد المراد من كلمة الوارث في هذه الفقرة، وأفاضوا الحديث في ذلك، وأشكلوا على الحكم الذي قد يستفاد من ظاهرها، واعتبرها مالك - في ما نقل عنه - من الآيات المنسوخة، مما يتسع له البحث الفقهي... ونحن لا نريد أن نفيض في نقل الأقوال كثيراً، ولكننا نستوحي من جو الآية، أنها في مجال الحديث عن مسؤولية الوارث، باعتبار أن مال الطفل موجود لديه للتأكيد على ضرورة استمرار الإنفاق عليه بالإنفاق على أمه، باعتبار أن الإرضاع من شؤونه التي لا بد من مواجهتها بما تحتاجه من النفقة... وليست في مجال الحديث عن مسؤوليته الذاتية في ما يملكه من مال شخصي.

ولعل صفة «الوارث» تعطي الإحياء بالعلاقة المالية التي تمتد إلى الطفل. وقد نستفيد بعض ملامح هذا المعنى مما ورد في تفسير العياشي عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد ورد فيه عن أحد الإمامين الباقر أو الصادق عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾، قال: «هو في النفقة، على الوارث مثل ما على الوالد»^(٢)، وقد ورد فيه عن الإمام جعفر الصادق في الآية قال: «لا ينبغي للوارث أن يضار المرأة، فيقول: لا أدع ولدها يأتيها، ويضار ولدها إن كان لهم عنده شيء، ولا ينبغي له أن يقتر عليه»^(٣). فإن الرواية الثانية ظاهرة في أن القضية مرتبطة بالوارث من حيث وجود مال الطفل لديه وقيامه برعايته بولاية أو وصاية أو نحوهما، لا من حيث تعلق الحكم به بشكل مستقل.

* * *

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٠٨، باب: ١٠٣، رواية: ٦.

(٢) م. ن. م. م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٠٨، باب: ١٠٣، رواية: ٨.

التراضي بين الوالدين على الفطام

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ فطاماً، ﴿عَنْ رَّاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ﴾ فللزوجين أن يتفقا على اختصار مدة الرضاع، إذا تراضيا وتشاورا في الموضوع، ورأيا المصلحة للطفل في ذلك، باعتبار أن القضية لا تعدوهما في نطاق ما لهما من الحق في رعاية شؤون الطفل في هذين الحولين، على أساس حق الولاية للأب وحق الحضانة للأم. فإذا حصل الرضى منهما، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا مجال للمنع. ﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أَنْيَمُ بِالْغُرُوفِ﴾ ويمكن للأم أن تتنازل عن حقها في إتمام الرضاعة، وقد تطلب أجراً أكبر من الأجر المتعارف الذي تطلبه بقية المراضع... فللأب أن يطلب لولده رضاع امرأة أخرى، بعد أن يدفع للأم حقها في رضاعها السابق، لأن الحق له في ذلك بعد سقوط حقها بإسقاطها إياه، أو بتجاوزها الحد المعقول للأجر... فله أن يتصرف بما يشاء في حدود مصلحة الطفل.



من وحي الآية

وقد نستوحي من هذه الآية أمرين:

الأول: إن الله أراد للأبوين أن يتشاورا في القضايا المتصلة بالولد، وأن يحاولا تحويل هذه الشورى إلى نقاط حاسمة إيجابية يتراضيان عليها. فلا يريد لأحدهما أن يتحدث مع الآخر من موقع عقدة، أو بذهنية تشنج نفسي؛ بل من

موقع تعاون على مصلحة الطفل . فإذا واجها مشكلة تختلف نظرة أحدهما عن الآخر فيها في تحديد ما هو الأصح للطفل ، فعليهما معالجتها بطريقة لا تضر به ، ولا بهما ؛ وذلك بالبحث عن البدائل التي تتجاوز الرأي الذي اختلفا فيه .

وإذا كانت الآية تتحدث عن التشاور والتراضي في دائرة رضاع الطفل ، فإنها توحى بأن هذا هو الأسلوب الذي ينبغي للأبوين أن يمارساه في رعايتهما للطفل في أموره الخاصة المتعلقة بجسده وروحه وشعوره وعقله وحركته في الحياة .

الثاني : إن الله جعل للمرأة الحق في طلب التعويض عن عملها المنزلي ، فلم يلزمها الشارع ببذل عملها — حتى إرضاع ولدها — مجاناً في النطاق القانوني ، بل ألزم الزوج — الأب بأن يقدم لها أجراً على ذلك ؛ ولها الأولوية على غيرها في إرضاع ولدها ، إلا إذا طلبت أجراً زائداً على المقدار المتعارف بين الناس .



دعوة للتقوى

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وكان ختام الآية دعوةً للتقوى ، وتذكيراً بأن الله خبيرٌ بما يعمل به الإنسان ، بصير بكل حركاته وتصرفاته في نطاق ذاته أو في علاقته بالآخرين ؛ وذلك لإيقاظ الروح الواعية المحاسبة في الوقوف عند حدود الله في ما أحله وما حرمه ، ليعيش الإنسان الجو الإسلامي المنضبط في حياته العامة والخاصة على هُدى أحكام الله وشرائعه .

وفي هذا إيحاء للأبوين أن تنطلق تصرفاتهما ومبادراتهما من روح

٣٣٤..... من وحي القرآن ج ٤

التقوى المنفتحة على الوعي الإيماني في رقابة الله على ما يسرانه ويعلنانه ، لا من روح الانتقام ؛ حتى يتوازنا في نظرتهما إلى الأمور وفي معالجتهم لأوضاع طفلهم بما يحقق له المصلحة على خط المسؤولية التي يحملانها من خلال أوامر الله ونواهيه .



الآية

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا
بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

* * *

معاني المفردات

﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: يموتون، بأن يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم.

﴿وَيَذَرُونَ﴾: يدعون ويتركون.

﴿أَجَلَهُنَّ﴾: غاية الوقت في محل الدين ونحوه لتأخيره إلى ذلك الوقت. والأجل: نقيض العاجل لتأخره عن وقت غيره.

﴿خَبِيرٌ﴾: الخبير: العالم بمخبر الخبر، وأصله: من السهولة. والخبار: الأرض السهلة. أخبرت بالشيء: فيه تسهيل لطريق العلم به.

* * *

عدة الوفاة والتوازن الحائطي الاجتماعي

في هذه الآية حديث عن عدة الوفاة، للمرأة التي يموت زوجها، فعليها الاعتداد بأربعة أشهر وعشرة أيام، وعليها - في ما جاءت به الأحاديث - أن تجتنب عن كل مظاهر الزينة التي تدعو إلى الرغبة بها. فإذا انتهت العدة، كان لها أن تتصرف في حياتها بما تشاء في ما يصلح أمرها من شؤون العلاقة الزوجية الجديدة بالمعروف، الذي يبني لها مستقبلها على أساس المصلحة المرتكزة على حدود الله في ما يأمر به وينهى عنه. فإن الله خبير بما يعمله الناس في سرهم وعلايتهم، مما يدفع بهم إلى مراقبته في ذلك كله.

وهناك أحاديث فقهية، أثارها الفقهاء في أجواء هذه الآية حول شمول هذه العدة للنساء مطلقاً في ما عدا الحامل. أما الحامل، فقد ذهب جمهور الفقهاء من أهل السنة إلى أن عدتها وضع الحمل، انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وذهب فقهاء الإمامية، إلى أن عدتها أبعد الأجلين من وضع الحمل ومن الأربعة أشهر وعشرة. فقد كانت المرأة الأرملة قبل الإسلام لا تمس طيباً حتى تمر بها سنة ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طير، فقتض به فقلما تقتض بشيء إلا مات. ثم تخرج فتعطى بعة فترمي بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره. والاقتضاض - بالقاف - هو: التمسح بها قيل: كانت تمسح به جلدها، قال ابن قتيبة: سألت الحجازيين عن الاقتضاض، فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر، ثم تقتض أي تكسر ما كانت فيه من العدة بطائر تمسح به قُبَلُها، فلا

يكاد يعيش ما تقتض به . انتهى ، والمراد أنه يموت من نيتها .

فقد نجد في هذا وأمثاله كيف انطلق الإسلام بالتشريع ليراعي الجانب العاطفي والاجتماعي للمرأة دون أن يفقدها إنسانيتها من موقع الحرية في أن تمارس حقها في الحزن بشكل طبيعي ، كما تمارس حقها في الممارسات الطبيعية للحياة بطريقة معقولة لا تنكر لمظاهر الحزن ومشاعره . . . ثم أعطاها المجال الكبير لتصنع بنفسها ما تريد في الاقتران بإنسان آخر في ما تفرضه عليها الحاجة إلى الزواج ، بعيداً عن كل التقاليد الظالمة التي تنكر عليها الزواج باسم الوفاء للزوج . فإنه لا معنى للوفاء في هذا المجال لإنسان تحول إلى عالم آخر ، لا يفكر فيه بأي شيء يحدث في هذا العالم من سرور وحزن ، أو لذة وألم . . . ولهذا فإن للمرأة أن تتزوج بعد انتهاء العدة من دون أن تشعر بأي تأنيب ضمير من وجهة نظر إنسانية إسلامية .

ولعل من الواجب على العاملين في الحقل الإسلامي أن يعمدوا إلى مواجهة هذه التقاليد التي درجت عليها بعض المجتمعات في منع الزوجة من الزواج بعد وفاة زوجها ، وذلك من موقع الالتزام الأخلاقي ، فيثيروا حولها الشجب والإنكار لتغيير إلى تقاليد إيجابية جديدة من خلال التشريع القرآني العادل .

وقد يجب علينا أن نبادر إلى مواجهة بعض مظاهر الحزن التي تفرض على المرأة من موقع التقاليد الاجتماعية ، في ما يزيد على المقدار المتعارف الذي تقتضيه العاطفة الهادئة ، وذلك باللجوء إلى صبغ الوجه بالسواد أو لطم الصدور ، وما أشبه ذلك مما لا يرتضيه الإسلام ، ويعتبره من مظاهر الجزع المحرم الذي يريد للمرأة — حفظاً لكرامتها وإنسانيتها — أن لا تنسحق تحت وطأة الحزن المريض .

وقد كانت بعض الأمم تقضي بإحراق الزوجة الحية مع زوجها الميت

ودفنها معه ، وهناك من يحكم بعدم زواجها بعده إلى آخر عمرها .

* * *

بين التشريع ورقابة الله على الإنسان

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ من زوجاتهم الباقيات على قيد الحياة بعدهم ، ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ . جاء في كتاب الكافي — عن الإمام أبي جعفر محمد الجواد عليه السلام ، مما رواه محمد بن سليمان عنه ، قال : قلت له : جعلت فداك ، كيف صارت عدة المطلقة ثلاثة حيضات أو ثلاثة أشهر ، وصارت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ؟ فقال : أما عدة المطلقة ثلاثة قروء ، فلاستبراء الرحم من الولد . وأما عدة المتوفى عنها زوجها ، فإن الله عز وجل شرط للنساء شرطاً وشرط عليهن شرطاً ، فلم يحابهن في ما شرط لهن ولم يجبر في ما اشترط عليهن . شرط لهن في الإيلاء أربعة أشهر ، إذ يقول الله عز وجل : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة : ٢٢٦] فلم يجوز لأحد أكثر من أربعة أشهر في الإيلاء ، لعلمه تبارك وتعالى أنه غاية صبر المرأة من الرجل . وأما ما شرط عليهن ، فإنه أمرها أن تعتد إذا مات عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً . فأخذ منها له عند موته ما أخذ لها منه من حياته عند إيلائه قال الله تبارك وتعالى : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ، ولم يذكر العشرة الأيام في العدة إلا مع الأربعة أشهر ، وعلم أن غاية صبر المرأة الأربعة أشهر في ترك الجماع ، فمن ثم أوجب عليها ولها^(١) .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو المطلع عليكم في كل أعمالكم وأوضاعكم ، فاتقوه في ذلك كله .

(١) الكافي، ج : ٦ ، ص : ١١٣ ، رواية : ١ .

وهذه الملاحظة في الآية وفي غيرها من الآيات، وهي اختتام الجملة المتضمنة للتشريع بالتأكيد على رقابة الله على الإنسان من خلال خبرته المطلقة بكل خفاياه وقضاياه، تمثل أسلوباً تربوياً في ربط المكلف بالحكم الشرعي على أساس الوعي لموقعه من ربه وموقع ربه منه، حتى لا يكون التكليف مجرد مادة قانونية جامدة يتلقاها الإنسان بشكل عادي، بحيث لا تثير في نفسه أي معنى يربط الإلزام بالخط الإيماني الروحي المنفتح على إشراف الله عليه.

وقد يكون من الضروري أن ينطلق الدعاة والمبلغون للأخذ بهذا الأسلوب في نطاق التبليغ للأحكام الشرعية الإسلامية، والدعوة إلى الالتزام بها في حياة المسلمين.



الآية

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

* * *

معاني المفردات

﴿عَرَّضْتُمْ﴾: التعريض: ضد التصريح، وهو أن تضمن الكلام دلالة على ما تريد. وأصله: من العرض من الشيء الذي هو جانبه وناحية منه. وقيل: من عرض، جعله عريضاً، فهو ما توسع في دلالاته فصار له وجهان: ظاهر وباطن. والفرق بين التعريض والكناية، أن التعريض هو تضمين الكلام دلالة على شيء ليس فيه ذكر، والكناية العدول عن الذكر الأخص بالشيء إلى ذكر يدل عليه. فالأول كقول القائل: ما أقبح البخل، تعرض بأن المخاطب بخيل، والثاني كقولك: كثير الرماد دليل على أنه سخي. والمراد به هنا، مثل

قول القائل: عسى الله أن ييسر لي امرأة مثلك.

﴿خُطْبَةٌ﴾: الخطبة: طلب المرأة للزوج، من الخطب. والمخاطب والتخاطب: المراجعة في الكلام. والخُطبة تختص بالموعة، والخطبة بطلب المرأة. وأصل الخطبة: الحالة التي يكون عليها الإنسان إذا خطب، نحو الجلسة والقعدة.

﴿أَكَنَنْتُمْ﴾: أسررتم وأضمرتم في أنفسكم. والإكنان من الكن، بمعنى السر، لكن يختص الإكنان بما يستر في النفس، والكن بما يستر بيت أو ثوب وغير ذلك من الأجسام... ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصفات: ٤٩].

﴿وَلَا تَعْرِضُوا﴾: العزم: عقد القلب على أمر تفعله.

﴿عُقْدَةٌ﴾: العقدة: من العقد وهو الشد. والتعبير في الآية وارد على تشبيه عقد النكاح بالعقدة التي يعقد بها أحد الخيطين بالآخر، بحيث يصيران واحداً بالاتصال. وكأن علاقة الزواج تصير الزوجين واحداً متصلاً.

* * *

الخطبة بين التحريض والتصريح

في هذه الآية معالجة واقعية للموقف الشرعي أمام المرأة المطلقة، التي قد يرغب بعض الناس في الزواج منها، فربما تظهر هذه الرغبة على فلتات النفس في ما يعبر به الإنسان عن إرادته المستقبلية للخطبة من أجل خلق جو طبيعي للعلاقة على أساس إبعاد الموانع والحواجز التي قد تحدث من خلال رغبة أخرى لشخص آخر؛ وربما تبقى هذه الرغبة حديثاً مكتوماً في النفس، فليس في القضية أيُّ إثم ما دامت في الحدود الشرعية التي تبقى الموقف في

نطاق المشاعر الداخلية أو الرغبة المستقبلية، بعيداً عن أجواء المواعدة السرية التي قد تفضي إلى أجواء حميمة تؤدي إلى الانحراف.

أما إذا كانت تتمثل في القول المعروف، فلا جناح على الإنسان فيه. وتبقى القضية في نطاق الإعلان عن مشروع زواج، أما الزواج نفسه الذي عبرت عنه الآية الشريفة بـ ﴿عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ فلا يجوز للإنسان أن يحققه إلا بعد بلوغ الكتاب أجله، وهو انتهاء مدة العدة، لأنه غير مشروع في أثنائها. ويأتي ختام الآية، ليثير في داخل الإنسان الشعور العميق برقابة الله الخفية، التي تطلع على ما في النفس فترصده، وتتابع حركته في ما يحل وما يحرم مما يوجب على الإنسان الحذر من الله بالحذر من عقابه... ثم يوحى من جديد بأن الله غفور رحيم، إذا أخطأ العبد وتجاوز حدوده، ثم رجع إلى الله وتاب عليه، لأنه لا يترك الإنسان واقعاً تحت ضغط الخطيئة، لتعيش كعقدة متأصلة في نفسه؛ بل يريد له - دائماً - أن يتحرر منها بالشعور بزوالها عن حياته بزوالها عن داخل ضميره. وهذا هو الأسلوب القرآني الحكيم الذي لا يريد أن يعقد الإنسان أمام رغباته الذاتية في ما لا ضرر منه. ولذلك فقد أثار أمام الإنسان أن الله يعلم أنه سيذكرهن، فلا ينبغي له أن يشعر بالإثم من ذلك. ثم أكد عليه كيف يقف عند حدود الله في ما يعلم أن الله مطلع عليه، في موقف يدعو إلى الالتزام، ولكنه لا يغلق عليه باب المغفرة على تقدير الخطأ؛ والله العالم.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم أيها الرجال ﴿فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ اللاتي تنفصلن عن أزواجهن بالطلاق في أوقات العدة؛ وذلك بالحديث عن الرغبة بالزواج بهن، من ناحية المبدأ، بطريقة لا صراحة فيها في الدلالة على الفكرة، بل على سبيل التعريض الذي لا يخرج الموقف ولا يسيء إلى الجو؛ وذلك بالحديث عن صفاتها الحسنة التي تجعلها محل رغبة للرجال في اتخاذها زوجة، أو بالتنديد بقضية طلاق زوجها لها بأن مثلها لا يمكن أن

يستغني عنها الزوج الذي يريد أن يحقق لنفسه السعادة في الحياة الزوجية، ونحو ذلك من الأساليب التي تتنوع تبعاً للأوضاع وللظروف وللتقاليد الاجتماعية... ولا حرج عليكم في ذلك ﴿وَأَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وذلك بأن أضمرتم وأسررتم التخطيط لمشروع الزواج بعد العدة، من خلال الرغبة الدفينة، فلم تظهروه لأحد، إذ لا فرق في الرخصة بين إضمار الرغبة في النفس أو التعبير عنها بأسلوب التعريض.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لأن طبيعة أية حالة نفسية كامنة في الذات تفرض التعبير عنها بطريقة أو بأخرى، إذا كانت مرتبطة بحياة الإنسان في مستوى الأهمية الكبرى في أوضاعه الخاصة والعامة. ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤْخِذُوهُنَّ سِرًّا﴾ لأن أجواء الاجتماعات السرية - على أساس المواعدة بينها وبينكم - قد يفسح المجال لبعض الوسواس الشيطانية التي تطوف في الخيال الغريزي. فإن التقاء ذكر وأنثى في مثل ظروفهما، ربما يثير الرغبة الكامنة في النفس لدى الرجل، والحرمان العميق في جسد المرأة بانفصالها عن الفرصة التي كانت تهيء لها إشباع غريزتها مع زوجها، فيؤدي إلى الانحراف والوقوع في المعصية.

وربما كان هذا هو مدلول الحديث الذي رواه أبو بصير، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: هو الرجل يقول للمرأة قبل أن تنقضي عدتها: أوعدك بيت أبي فلان أوعدك بيت فلان لترث ويرث معها^(١). فقد لا يكون الحديث المذكور إشارة إلى فعلية ذلك في سلوكهما العملي، بل ربما كان المقصود منه أداء الجواب إلى ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ فلا يتخلل الحديث أي كلام فحش، بما يتصل بالعملية الجنسية التي قد يتحدث بها بعض الرجال مع بعض النساء،

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٨١، باب: ١١٩، رواية: ٣٤.

للتدليل على قدرته على إشباع المرأة بطريقة فريدة أو ما أشبه ذلك؛ بل يتحدث معها عن صفاته الذاتية، وعن احترامه للحياة الزوجية وللمرأة، وعن أوضاعه المادية التي ترغبها في الارتباط به... بالمستوى الذي تشعر فيه بأن الحياة معه قد تحقق لها السعادة، فقد يكون من حقها أن تتعرف طبيعة هذا الرجل الذي يريد أن يتزوجها؛ وقد يكون من حقه أن يسألها عن نفسها، وعن نظرتها إلى الحياة الزوجية، وعن طبيعة الظروف التي فرضت عليها الطلاق...

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: «يقول الرجل للمرأة وهي في عدتها: يا هذه ما أحب لي ما أسرك، ولو قد مضى عدتك لا تفوتي إن شاء الله، فلا تسبقيني بنفسك»^(١).



بين إباحة التعريض بالخطبة والعودة إلى الزوج الأول

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتْبُ أَجَلَهُ﴾ فلا بد من البقاء في حالة الانتظار، التي تفرضها العدة في تشريعها بالامتناع عن الزواج في مدتها حتى تنقضي أيامها. فإذا بلغ الكتاب — وهو الفرض الإلهي الإلزامي بالتربص والامتناع عن الزواج — الأجل المضروب في العدة، فلهما أن يتزوجا.

وقد يثار — أمام مدلول هذه الآية — سؤال: وهو أن إباحة التعريض بالخطبة لذات العدة قد يبعد الفرصة التي استهدفها التشريع في إيجاد الظروف الملائمة لعودة الزوجين إلى حياتهما الزوجية، باعتبار أن العدة تمثل فرصة

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٨١، باب: ١١٩، رواية: ٣٧.

تدبر وتفكير وإعادة النظر في العودة إلى الزواج من جديد، من خلال السليبات التي يكتشفانها في تجربة الانفصال. فإذا أفسحنا المجال لإنسان جديد ليغري المرأة بتجربة جديدة، فقد لا تفكر في العودة إلى زوجها.

ويمكن الرد على ذلك، بأن هذه الفرصة الجديدة المطروحة أمام الزوجة قد تجعلها في الوضع الطبيعي المميز، الذي تدخل فيه في مقارنة بين الزوج القديم والزوج المنتظر، فلا تسقط في حصار ظروفها الصعبة التي قد تفرض عليها العودة إلى زوجها الأول، لأنها تفقد الخيارات الأخرى. فإذا جاء الخيار الجديد، أعطاهما الحرية في دراسة المسألة بدقة وانفتاح ومقارنة بين سلبات العودة وإيجابياتها، من خلال المقارنة بين سلبات الأول وإيجابياتها. لأن قصة العودة ليست مستحبة أو مرغوبة بقول مطلق، بل هي مطلوبة في نطاق النتائج الإيجابية التي يمكن اكتشافها في مدة العدة من قبل الزوجين. فإذا كان الأمر بالعكس، فعليهما الاستمرار في الانفصال حتى لا يواجهها تجربة جديدة فاشلة.



الحذر من الله العليم الخبير

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من الدوافع التي تدفعكم إلى خطبة هذه المرأة، من استغلال ظروفها الصعبة، أو الرغبة في الحصول على أموالها — إذا كانت غنية — أو إبعاد الزوج السابق عن العودة إليها بفعل العداوة بينهما، أو للإضرار به أو بها، أو الوصول إلى بعض الغايات السيئة في الواقع الاجتماعي الذي قد يسيء إليها أو إلى أحدهما... أو غير ذلك من الدوافع الخيرة الطيبة المنطلقة من الرغبة فيها من خلال القناعة بصلاحياتها لإسعاده، وبقدرته على إسعادها وتخليصها من تعسف زوجها الأول، أو التقرب إلى الله بذلك بلحاظ وجود بعض عناوين القربى في الموضوع. فلا بد لكم من أن

تفحصوا ما في أنفسكم من خير أو شر أمام الله، الذي يعلم كل شيء ﴿فَاخْذُرُوهُ﴾ في كل خطواتكم، ولا تأمنوا مكره، ولا تستهينوا بعقابه؛ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فهو الذي يغفر لكم إذا أخطأتم في هذا وغيره، وتراجعتم عن الخطأ قبل أن يتحول إلى جريمة في حق الآخرين من الأبرياء؛ وهو الذي يحلم عنكم، حتى كأنه لا ذنب لكم في كل ما تتحركون فيه.



الآية

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا
لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

* * *

معاني المفردات

﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: أي: تجامعوهن. والمس: كناية عن الاتصال الجنسي بهن.

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾: أعطوهن من مالكم ما يتمتعن به في حاجاتهن كبديل عن المهر.

﴿الْمَوْسِعِ﴾: الذي يكون في سعة لغناه.

﴿الْمُقْتَرِ﴾: الذي يكون في ضيق لفقره.

﴿قَدَرُ﴾ : مقداره الذي يطيقه هو الذي يختص به .

* * *

وقوع الطلاق قبل المس

ربما يتبادر إلى الوهم أن الطلاق لا يكون قبل الدخول، على أساس أن الزواج لا يكون كاملاً بدون الدخول . وقد يُظنُّ أنه لا يتحقق في صورة إغفال ذكر المهر في العقد، فنزلت هذه الآية لتدل على أن ذلك لا علاقة له بالعلاقة الزوجية التي تتحقق بالعقد . أما الدخول فإنه من نتائجها لا من مقوماتها . وأما المهر، فهو تابع للشرط، ولا علاقة له بصحة العقد، فقد يصح العقد الخالي منه وهذا ما يؤكد على أن الجانب المالي لا يعتبر أساساً في الزواج، بل هو رمز محبة ومودة، وعطيّة لا تخضع لطبيعة المعاوضة . . . ولكن الله أراد للإنسان أن لا يُنهي العلاقة بالطلاق من دون أن يقدم لها إمتاعاً مالياً بالمستوى المعروف بين الناس بحسب حاله من الإقتار أو اليسار، كنوع من أنواع التعويض المعنوي . وهو أمر واجب ينطلق من موقع الحق الذي أراده الله منطلقاً من روح الإحسان الذي يتحرك فيه الطلاق؛ وبهذا لا يتنافى جانب الإحسان مع جانب الوجوب . وهذا مختص بالطلاق قبل الدخول . . . أما إذا كان هناك دخول من دون فرض فريضة، فإن الحكم هو دفع مهر المثل كما ذكره الفقهاء .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ لأن العقد بين الزوجين هو الذي يحقق العلاقة الزوجية بينهما، من خلال مدلوله الذي يجعل أحدهما مرتبطاً بالآخر من خلال التراضي بينهما، وليس للدخول وعدمه تأثير فيه، إيجاباً أو سلباً؛ فإن الدخول متفرع على شرعية العقد وليس قيداً في

الشرعية، كما أن المهر لا علاقة له بصحته، كما في المعاوضات المالية التي لا تصح إلا مع ذكر العوض، فلا يصح البيع بلا ثمن، والإجارة بدون أجر... فإن الزواج يمثل ارتباطاً بين شخصين من خلال إرادتهما الحرة القائمة على التراضي، بحيث يعطي كل منهما الآخر من نفسه، في مقابل ما يعطيه الآخر من نفسه في نطاق الدائرة التي يملك فيها أحدهما الآخر من خلال الحقوق المفروضة بالعقد أو بالشرط؛ فلا علاقة للمال في الموضوع، ولذلك عبر الله عن المهر بأنه «نحلة»، وهي العطية من دون مقابل في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]. وإذا كان قد عُبر عنه في بعض الآيات بالأجر، فإنها واردة على سبيل المجاز أو المسامحة، من حيث إichاء الجانب الشكلي بذلك عندما يذكر في المهر أو يتحقق الاستمتاع بالمرأة.

وفي ضوء ذلك، لا مانع من الطلاق حتى في حالة عدم الموافقة وعدم فرض المهر، لأنه يتضمن فسخ العقد الذي شرع العلاقة في الواقع، ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن من مالكم ما يفتح قلوبهن، ويوحى إليهن بالمحبة، تماماً كما هي الهدية التي يقدمها الإنسان للإنسان تدليلاً على اهتمامه به، فلا يشعرون بأن هذه العلاقة التي بدأت من موقع الإخلاص للأشخاص الذين ارتبطن بهم، ولذلك لم يشترط المهر في العقد، فأقدمن على زواج لا مهر فيه، سوف تنتهي من دون أن يقدم لهن هؤلاء الرجال أي شيء يوحى بعرفان الجميل، ولو كان ذلك بشكل رمزي.

وهكذا أراد الله لهذه العلاقة أن تنتهي بمبادرة إنسانية، يقدمها الزوج لزوجته بعد الطلاق كهدية يمتعها بها روحياً ومادياً، بحسب الحجم المادي للزوج، ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ فيعطي بالكمية التي تناسب مع إمكانياته المادية الجيدة، ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾، فتكون المتعة رمزية في دلالتها على الاهتمام بها تبعاً لحاله، ﴿حَقًّا﴾ مفروضاً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين عاشوا

٣٥٠..... من وحي القرآن ج ٤

الإحسان في حياتهم، فهم يتحركون من موقع الإحسان الذي يتقربون به إلى الله في علاقتهم بعباده بما ألزمهم الله به أو استحبه لهم من ذلك كله.



الآية

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ
وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

* * *

معاني المفردات

﴿الْفَضْل﴾: التفضل والإحسان. والفضل: هو الزيادة كالفضول، غير
أن الفضل هو الزيادة في المكارم والمحامد؛ والفضول هو الزيادة غير
المحمودة.

* * *

لهنّ نصف ما فرضتم

إذا كان الطلاق قبل الدخول، وكان العقد مشتملاً على المهر، فإن

الحكم الشرعي أن ينتصف بالطلاق؛ فيجب عليه أن يدفع لها نصف المهر إلا إذا أسقطت المرأة حقها بالإبراء أو الهبة أو غيرهما، أو عفا وليّ العقد، من الأب أو الجد، أو من فوّضت إليه المرأة أمرها في هذا الموضوع بشكلٍ مطلق... وقد اعتبر البعض الزوج داخلاً فيمن بيده عُقْدَةُ النكاح، باعتبار أنه يملك أمره بالإبقاء أو بالإنهاء، وبذلك تكون الآية متضمنة لعدم رجوع الزوج عليها بالنصف في حال قبضها للكل إذا عفا عن حقه. وهذا أمر محتمل، ولكن الظاهر أنه في مقام الحديث عن حق الزوجة في ما يجب على الزوج دفعه لها بلحاظ حالة الطلاق. وقد عقّب الله على ذلك بالتشجيع على أخذ المبادرة بالعفو، باعتبار أنه أقرب للتقوى. وربما يدل عليه من روحية العطاء من جهة، ومن روح التقرب إلى الله من جهة أخرى؛ ومن إبعاده الموقف عن طبيعة الخلاف والمشاحنة التي تستدعيها حالة استيفاء الحق وإقراره وإعطائه. ثم يدعو الأزواج إلى عدم نسيان الفضل في ما بينهم عند إنهاء العلاقة، لتبقى لهم علاقة الصداقة والفضل إذا انقطعت علاقة الزواج. وذكرهم بعد ذلك بأن الله بصير مطلع على كل ما يعملونه، أو يقومون به من حسنات تقرب إليه في علاقاتهم مع بعضهم، أو سيئات تبعد عنه؛ لأنه العالم بكل الأمور.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ بحيث كان الطلاق قبل الاتصال الجنسي، ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فكان العقد مبنياً على المهر، ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ من المهر، باعتبار أن الزواج لم يكن من ناحية واقعية عملية كاملاً، فلم يحدث هناك أي استمتاع للرجل بزوجه بإزاء ما قدّمه من المهر؛ كما أن لها الحق عليه من خلال ما ملكته نفسها بالعقد، فكان التنصيف جمعاً بين الحقين، فلا يشعر أي واحد منهما بالغبين. وهذا هو حق المرأة الذي يجب على الرجل أن يدفعه إليها بعد الطلاق لأنها استحقته بالعقد، لكن الطلاق كان بمنزلة الفسخ بالنسبة إلى النصف.

العفو تقوى وانتصار على الذات

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوكَ﴾ أي: المطلقات، بحيث تسامح الرجل بما تستحقه عليه بشكل مباشر، ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الذي يملك الولاية بالذات من خلال التشريع كالأب أو الجد، أو الذي يملكه من خلال تولية المرأة أمر العقد إليه، كالوكيل المفوض — سواء أكان قريباً أم بعيداً — فإن له أن يعفو عن الزوج إذا رأى ذلك مصلحةً للمولى عليه، أو كان التفويض شاملاً لذلك.

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فإن الله يريد للإنسان أن ينتصر على حب المال في نفسه، وأن يتنازل عن حقه من خلال إرادة القرب من الله، وأن لا يرتبط بالأمور من خلال الحسابات المادية التي تضع المال في مقابل المال، والمصلحة في مواجهة المصلحة. لأن ذلك قد يحقق للإنسان الدقة في حساباته في شؤون حياته، ولكنه لا يحقق له السمو الروحي الذي يتعالى فيه على الذات، فيبقى مشدوداً إلى النوازع الذاتية والوساوس الشيطانية والهواجس المرضية، مما يبعده عن دائرة التوازن في نطاق المادة والروح.

ولذلك كان العفو عن الآخر وسيلة من وسائل تحصيل القوة ضد الذين يريدون إثارتهم في انفعالاته من أجل إيقاعه في الخطأ والخطيئة، فيملك من خلال ذلك نفسه، فلا يستطيع الآخرون إبعاده عن الخط المستقيم.

إن أي انتصار على الذات في جانب ما يمنح الإنسان قوة في الانتصار عليها في الجوانب الأخرى، ولذلك يتحوّل العفو ليكون حركة تدريبية في تجربة الإنسان على تجاوز نفسه إلى الانفتاح على مواقع رضى الله، مما يقربه من الانضباط الواعي في آفاق التقوى التي تمثل الثبات على المبدأ والإصرار

على البقاء في الخط . وهكذا نجد أن العفو هو السلوك العملي، المنطلق من عمق روعي في داخل الشخصية التي تتعالى عن الأخذ بالحق لنفسها، مما يجعلها أكثر قدرة على التعالي عما ليس لها بحق، وعلى الانضباط في ما يلزمها من الحق لله وللناس .



لا تنسوا الفضل بينكم

﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ في علاقاتكم ببعضكم وفي معاملتكم الدائرة بينكم، ليكون الحق هو الحد الفاصل مما تأخذون به أو تتركونه؛ لتستوفوا الحق الذي لكم بكل دقة وشمولية بعيداً عن القيم الروحية والأخلاقية التي تمثل حركة العلاقات الإنسانية في خط الخير والمحبة والانفتاح، فتنسوا الأوضاع الحميمة التي عشتوها في ما استلتموه من الصلة بينكم، وتهملوا الفضل الذي قدمه بعضكم لبعض من عمق الخير في النفس، والمحبة في القلب .

وعلى ضوء ذلك، فليكن العنصر الإنساني هو الذي يحدد لكم علاقاتكم التي تستقبلونها في الحقوق التي يملكها بعضكم على البعض الآخر، من دون أن تؤثر السلبات التي فصلت بينكم على ذلك؛ وليكن الفضل القائم على روحية العطاء، المنفتح على الذكريات الطيبة في الماضي، هو العنوان لما تأخذونه أو تتركونه، ولتفصلوا على وفاق لا يتعقد من الفراق .

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مما تقدمونه من أعمالكم في اتجاه مسؤولياتكم ﴿بَصِيرٌ﴾ لأنه العليم بكل شيء من شؤون خلقه، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وجاء في المجمع أنه «روي عن سعيد بن المسيب، أن هذه الآية ناسخة لحكم المتعة في الآية الأولى، وقال أبو القاسم البلخي: وهذا ليس بصحيح، لأن الآية تضمنت حكم من لم يدخل بها ولم يسم لها مهراً إذا طلقها، وهذه تضمنت حكم التي فرض لها المهر ولم يدخل بها إذا طلقها، وأحد الحكمين غير الآخر»^(١).



(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٩٨.

الآية

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

* * *

معاني المفردات

﴿حَافِظُوا﴾: الحفظ: خلاف النسيان. وأحفظه: أغضبه، لأنه حفظ عليه ما يكرهه. ومنه الحفيظة: الحمية. والحفاظ: المحافظة.

﴿الْوُسْطَى﴾: تأنيث الأوسط، وهو الشيء بين الشيئين على جهة الاعتدال. والمراد — هنا — الوسطى بين الصلوات.

﴿قَانِتِينَ﴾: القنوت: الدوام على أمر واحد، وقيل: أصله الطاعة. وقيل: أصله الدعاء حال القيام. وقال علي بن عيسى: والأول أحسن لحسن تصرفه في الباب، لأن المداوم على الطاعة قانت، وكذلك المداوم في صلاته على السكوت إلا عن الذكر المشروع، وكذلك المداوم على الدعاء. ويقال: فلان يقنت عليه، أي: يدعو عليه دائماً.

مناسبة النزول

أخرج أحمد وأحمد والبخاري في تاريخه، وأبو داود، والبيهقي، وابن جرير الطبري، عن زيد بن ثابت «أن النبي ﷺ كان يصلي الظهر بالهاجرة، وكانت أثقل الصلوات على أصحابه، فنزلت: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾»^(١). وهذا يدل على أن الصلاة الوسطى صلاة الظهر. وأخرج أحمد، والنسائي، وابن جرير الطبري عن زيد بن ثابت «أن النبي ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس في قابلتهم وتجارتهم، فأنزل الله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾» فقال رسول الله ﷺ: لينتهين رجال أو لأحرقن بيوتهم»^(٢). وفي روايته — كما في المجمع — فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن أحرق على قوم — لا يشهدون الصلاة — بيوتهم»^(٣).

ونلاحظ تعليقاً على هذه الرواية، أن النبي ﷺ كان يؤكد على حضور صلاة الجماعة، حتى في الحالات التي يكون الحضور فيها ثقیلاً على المصلين لشدة الحر أو لانشغالهم عنها بأعمالهم وتجاراتهم، بحيث يمثل هذا التأكيد في تهديد المتخلفين بإحراق بيوتهم عليهم.

* * *

(١) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٧٢٠.

(٢) م.ن.، ج: ١، ص: ٧٢٠.

(٣) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٩٩.

صلاة الجماعة وأثرها في حياة المسلمين

ونستفيد من ذلك قيمة صلاة الجماعة في الإسلام وأثرها في حياة المسلمين؛ فإن الإسلام يعطي أهمية للجانب الاجتماعي في الواقع الإسلامي، ليتشاوروا بينهم في كل أمورهم، وليتعاونوا على البر والتقوى، وليتحركوا في خط الجهاد في سبيل الله؛ فذلك ما يمنحهم صفة «المجتمع الإسلامي» في مرحلة، و «الأمة الإسلامية» في مرحلة أخرى.

وقد تكون صلاة الجماعة من أقوى المناسبات التي تحقق هذا الهدف، وتؤكد هذا العنوان، وتقوي هذه الروح؛ لأنها تجسد الاجتماع بين المسلمين أمام الله في الأجواء الروحية، التي توحى بها الصلاة التي أراد الله لها أن تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأن تكون معراج المؤمن - بروحه - إلى الله؛ وبذلك يتحسس المسلمون الجانب الاجتماعي في دينهم من خلال الله في مضمون صلاتهم، كما يتمثلون في نظام الإمامة في الصلاة والمأمومين فيها معنى القيادة التي لا بد للمسلمين من أن يطيعوها، فيتحركون عندما تتحرك ويقفون عندما تقف، كما تتمثل القيادة معنى أتباعها لتحفظ لهم أوضاعهم، فلا يطيل الإمام صلاته رحمة بالمأمومين.

وهذا ما ينبغي للمسلمين أن يحافظوا عليه في جميع صلواتهم، لأنه هو الذي يمثل الإيحاء اليومي الدائم بالمعنى العميق للرابطة الاجتماعية بينهم، ويدفعهم إلى الاستفادة من هذه المناسبة العفوية العبادية للتشاور في أمورهم، وللتعاون في ما بينهم، في ما يتصل بقضاياهم العامة أو الخاصة، وليستمعوا إلى الإمام الواعي للإسلام وللواقع بما يحدثهم عن مشاكل الواقع الإسلامي وأخطاره، ليكون لهم وعي المسؤولية في ذلك. وربما كان هذا هو السر في زيادة ثواب صلاة الجماعة على صلاة الفرادى، حتى ورد في بعض الأحاديث:

أنها إذا زاد المصلون فيها على العشرة، لا يحصى ثوابها إلا الله .

* * *

المحافظة على الصلاة

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ إن في الآية دعوة إلى المحافظة على الصلاة بشكل عام، وذلك بالقيام بأدائها في أوقاتها. وأكد الله على ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ للدلالة على أهميتها في حساب القرب إلى الله والدخول في رحمته. واختلف في تعيينها بين المفسرين؛ ف قيل: إنها صلاة الظهر باعتبار أنها في وسط النهار كما أنها واقعة بين صلاتين في النهار، وهما الصبح والعصر، كما هو المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ما رَوَاهُ عن صلاة رسول الله ^(١)، ورواه جماعة عن زيد بن ثابت كما عن تفسير الدر المنثور ^(٢). وقيل: إنها صلاة الصبح لتوسطها بين الليل والنهار، أو بين صلاتين من النهار وصلاتين من الليل. وقيل: إنها صلاة العصر، للسبب نفسه في صلاة الصبح. وقيل: إنها صلاة المغرب. كما قيل: إنها صلاة العشاء . . . وقيل: إن الله أخفاها كما أخفى ليلة القدر، ليهتم الناس بها. وربما ذكر أنها الجمعة ^(٣). . . والخلاف يرجع إلى الخلاف في الروايات، أو في الاجتهاد في تطبيق المعنى اللغوي على المناسبات الواقعية للتسمية.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ القنوت في اللغة هو الدعاء، أو مطلق العبادة في حال القيام. وربما يطلق على مطلق الطاعة. وقد روي عن الإمامين

(١) انظر: الدر المنثور، ج: ١، ص: ٧٢١، ومجمع البيان، ج: ٢٠، ص: ٥٩٩.

(٢) انظر: الدر المنثور، ج: ١، ص: ٧٢٠.

(٣) انظر: مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٥٩٩ - ٦٠٠.

الباقر والصادق عليهما السلام، أن المراد به — هنا — الدعاء في الصلاة حال القيام^(١). وهي دعوة للمؤمنين بأن يكون قيامهم، في حياتهم، لله لا لغيره؛ لتكون حياتهم في كل منطلقاتها ومعطياتها لله سبحانه، بحيث يتحركون في خط الله ولأجله في كل أعمالهم وأقوالهم؛ وأن يداوموا على الطاعة في صلاتهم وفي دعائهم وفي كل مواقع الطاعة، في كل قضايا الحياة التي يتعلق بها حكم الله من حرام أو واجب.

وجاء عن زيد بن أسلم قال: كنا نتكلم على عهد رسول الله ﷺ في الصلوة، يكلم الرجل منا صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام^(٢).



(١) البحار، م: ٢٩، ج: ٨٢، ص: ٥٨٤، باب: ٥٤.

(٢) الدر المنثور، ج: ١، ص: ٧٣٠.

الآية

فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا
عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

* * *

معاني المفردات

﴿فِرْجَالًا﴾: جمع راجل، وهو الكائن على رجله، واقفاً كان أو ماشياً.
﴿رُكْبَانًا﴾: جمع راكب. والركاب المطي. وركبت الرجل: أي ضربته
وأصبت ركبه.

* * *

لِمَ صلاة الخوف؟

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، إذا خاف الإنسان على نفسه من لص أو
سبع أو غير ذلك، جاز له أن يصلي راجلاً أو راكباً بما يستطيع من الصلاة،
ولو بالإيماء؛ وتلك هي صلاة الخوف من العدو التي تقصر في الحرب

والسفر، إلا في المغرب فإنها ثلاث ركعات.

فقد روي أن النبي ﷺ صلى يوم الأحزاب إيماءً — كما رواه في المجمع ^(١) — وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: فات الناس مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم صفين، يعني صلاة الظهر والعصر، والمغرب والعشاء الآخرة، فأمرهم علي أمير المؤمنين عليه السلام فكبروا وهللوا وسبحوا رجالاً وركباناً، لقول الله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا﴾، فأمرهم علي عليه السلام فصنعوا ذلك. ^(٢) وروى عنه عبد الرحمن بن أبي عبد الله، قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ كيف يفعل، وما يقول؟ ومن يخاف سبعاً ولصاً كيف يصلي؟ قال: يكبر ويومئ إيماءً براسه ^(٣).

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فإذا ارتفع الخوف وحصل الأمان، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالثناء عليه ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من شرائعه وعودوا إلى ما وجب عليكم من الصلاة.

وقد يبرز سؤال، لماذا هذا الإلحاح على أداء الصلاة بطريقة معينة حتى في حالات الخوف، التي قد يشغل الإنسان فيها بالأخطار المحدقة به، فلا يكون له مجال للتفكير بأي شيء خارج الواقع الصعب المحيط به؟ أليس ذلك حرجاً في التكليف؟!

والجواب عن ذلك: إن الله يريد للإنسان أن يبقى معه في وجدانه الروحي، وفي وعيه لعبوديته لله وربوبيته له، وارتباطه به، وحاجته إليه، وتوكله عليه في كل أموره... حتى يكون مع ربه دائماً، ليعصمه ذلك من السقوط تحت تأثير الضعف والانحراف تحت تأثير الغفلة، والاهتزاز النفسي

(١) مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٦٠١.

(٢) البحار، م: ٣١، ج: ٨٦، ص: ٦٨، باب: ٩٣، رواية: ١٠.

(٣) م. ن. م: ٣١، ج: ٨٦، ص: ٦٨، باب: ٩٣، رواية: ١٠.

والعملي تحت ضغط الهزاهز الروحية والواقعية... ولذلك أراد أن يأتي بالصلاة في جميع الأحوال، حتى في حالات الخوف التي تتجمع فيها الأخطار من حوله. لأن ذلك ما يشبهه ويقويه، ويوحى إليه أن الله فوق ذلك كله؛ لأن القوة له جميعاً.

وهذا ما نستوحيه من قول الله تعالى في حديثه عن الرسول محمد ﷺ : ﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، وفي حديثه عن المؤمنين المجاهدين من أصحاب النبي ﷺ : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إن اللجوء إلى الصلاة في حالات الخوف يمنح الإنسان قوة روحية معنوية تمنعه عن الضعف، والاهتزاز، والسقوط تحت تأثير الضغوط القاسية التي تفرضها عناصر الخوف عليه. وبذلك قد نجد تشريع الصلاة في هذه الحالات أشد ضرورة من تشريعها في الحالات الأخرى، لأنها هي الحالات التي يشعر الإنسان فيها بالحاجة إلى قوة غير عادية تحميه وتخلصه مما فيه، أو تعينه على الثبات في خط المجابهة عندما تضعف قوته الطبيعية. ولعل هذا ما يلتقي بالطبيعة الإنسانية التي يلجأ الإنسان — من خلالها — إلى الله في حالات الخوف من الغرق عند اشتداد الأمواج واهتزاز السفينة؛ وذلك هو قول الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئًا وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الله الذي شرع الصلاة خمس مرات في اليوم ليرتبط الإنسان به في كل أوقاته، وليبقى في وجدانه الروحي دائماً؛

أراد لهذه الصلاة أن تبقى في مسؤولية الإنسان حتى في أشد الحالات صعوبة، لأن كل شيء من أنواع المسؤوليات يمكن تجميده أو تأجيله، إلا الصلاة التي تمثل سرّ العلاقة بالله؛ فلا مجال لتجميدها أو تأجيلها، لأن اللقاء بالله لا بد من أن يكون شاملاً لكل مواقع حياة الإنسان اليومية من خلال شمولية الحاجة إلى الله والعبودية له في جميع الأحوال؛ ولذلك فإن الصلاة لا تسقط بحال.

وقد يلفت النظر ورود هاتين الآيتين في سياق أحكام الطلاق والعلاقة الزوجية، ولكن قد يكون السبب في ذلك بعض مناسبات الحديث عن الطاعة في ما تقدم من الآيات، لأن الصلاة هي الوجه البارز في خضوع الإنسان لله وطاعته له؛ والله العالم.



الآية

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ
مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

* * *

وصية الزوج لزوجته

كانت النساء في الجاهلية يقعدن حولاً كاملاً بعد وفاة أزواجهن، وربما كان هذا هو السر في تعريف الحول، باعتبار أنه من الأمور المعروفة لديهم؛ فجاءت هذه الآية لتوصي الأزواج بأن يتركوا لهن — على سبيل الوصية — ما يقوم بشؤونهن من النفقة والسكنى والكسوة وغير ذلك... من أجل إعانتهم على الاستمرار في العدة من دون جهد ومشقة. فإذا خرجن بإرادتهن طوعاً، فلا حق لهن بعد ذلك ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ لأن ذلك بمثابة إسقاط لحق... وقد ذكر في مجمع البيان أن العلماء اتفقوا على أن الآية

منسوخة بآية الربع والثلث، وبآية تحديد العدة بأربعة أشهر وعشراً^(١).

وروي عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام «كان الرجل إذا مات، أنفق على امرأته من صلب المال حولاً، ثم أخرجت بلا ميراث، ثم نسختها آية الربع والثلث، فالمرأة يُنفق عليها من نصيبها»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي الذين يكونون على مشارف الموت^(٣)، بقرينة توجيه الخطاب إليهم بالتكليف بالوصية ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ من بعدهم، فعليهم أن لا يهملوهن بتركهن بدون مال يستعين به على إدارة أمورهن وقضاء حاجاتهن، بل لا بد لهم من التفكير بهن من بعدهم بتخصيص مقدار من المال، ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ مما ينتفعن به من النفقة والكسوة والسكنى، حتى يتدبرن أمرهن ريثما يتخففن من ثقل الواقع الاجتماعي الذي يفرضه المجتمع عليهن من الإقامة سنة، بدون زواج، أو في دائرة احترام ذكرى الزوج.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فلهن الحق بالبقاء في بيوت أزواجهن، ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾

(١) انظر: مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٦٠٢.

(٢) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠١، ص: ٣٨٢، باب: ١١٩، رواية: ٤٠.

(٣) ربما توحى الرواية الواردة في سبب النزول بأن الخطاب لأولياء الميت الذي مات من دون وصية، فقد أخرج إسحاق بن راهويه عن مقاتل بن حيان «أن رجلاً من أهل الطائف قدم المدينة، وله أولاد ورجال ونساء، ومعه أبواه وامرأته، فمات بالمدينة، فرفع ذلك للنبي ﷺ فأعطى الوالدين، وأعطى أولاده بالمعروف، ولم يعط امرأته شيئاً، غير أنهم أمروا أن ينفقوا عليها من تركه زوجها إلى الحول، وفيه نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ الآية». [الدر المنثور، ج: ١، ص: ٧٣٩]. وفي ضوء ذلك يكون المراد بالوصية من الله لا من الزوج، فتكون تكليفاً موجهاً لأولياء الميت في قيامهم بحق الزوجة في النفقة والسكنى إلى الحول، وهو غير مقيد، لأن القرآن قد عبّر عن الفريضة الإلهية بأسلوب الوصية، كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] ولكن الرواية غير معتمدة من حيث السند، فلا يرفع إليها عن الظهور الأولى لأجلها.

واخترن الحرية في المسكن وغيره، ليمارسن حياتهن بعيداً عن أجواء أهل الميت، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ والظاهر أن الخطاب لأهل الميت، أو هو كناية عن أنه لا حق للميت في بقائها في البيت من بعده. فليس لأحد حق التدخل في قرارهن ولذلك فلا مسؤولية على أي إنسان، بقدر ما يتعلق الأمر به، في خروجهن وتصرفهن في أنفسهن ما دمن يتحركن في دائرة المعروف ولا يتعدن عن خط الشرع.

وقد اختلف المفسرون في متعلق رفع الجناح، فقال بعضهم إنه قطع النفقة والسكنى؛ وهذا ما ذهب إليه الحسن والذي قال — على ما نقله صاحب المجمع — وهذا دليل على سقوط النفقة بالخروج، وأن ذلك كان واجباً لهن بالإقامة إلى الحول. فإن خرجن قبله، بطل الحق الذي وجب لهن بالإقامة. وقال بعضهم: لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج، لأن مقامها سنة في البيت غير واجب، ولكن قد خيرها الله في ذلك، عن الجبائي. وقيل: لا جناح عليكم إن تزوجن بعد انقضاء العدة. وهذا ما اختاره الطبرسي، فقال: وهذا أوجه وتقديره إذا خرجن من العدة بانقضاء السنة، فلا جناح إن تزوجن. وقوله: ﴿مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ يعني طلب النكاح والتزين^(١).

* * *

مع تفسير الأمثل

وقد ذهب بعض المفسرين المتأخرين إلى أن الآية متعرضة لدفع نفقات المعيشة لمدة سنة، باعتبار أنه من حقوق المرأة على ورثة زوجها. فإذا رفضته مختاراً، ولم تبق في بيت زوجها المتوفى، فلم تعد هناك مسؤولية على أحد،

(١) انظر: مجمع البيان، ج: ٢، ص: ٦٠٢.

ولها أن تتزوج .

ويتابع هذا المفسر فيقول : إن هذا المعنى لا يستوجب نسخاً ، لأن هذه الآية تقول بأن مدة العدة سنة كاملة بشرط الاستفادة من النفقة والمسكن في تلك المدة ، كما أعطيت المرأة الحق إن شاءت أن تبقى في بيت الزوج ، وأن تأخذ النفقة حسب وصية الزوج مدة سنة وفاته . أما إذا لم ترغب في ذلك ، فلها بعد أربعة أشهر وعشرة أيام أن تخرج من بيت زوجها وتتزوج من جديد . وبخروجها من بيت زوجها المتوفى ، تنقطع عنها النفقة .

إن فترة الأربعة أشهر وعشرة أيام عدة إلزامية لا تتأثر برغبة المرأة ، ولكن إدامتها حتى نهاية السنة حق من حقوق المرأة ، ولها أن تستفيد منه بالبقاء في بيت الزوج والحصول على نفقة أو أن تترك بيت زوجها وتتزوج ثانية^(١) .

ونلاحظ على هذا الرأي أن هذه الآية اقتصرَت في حديثها على وصية الزوج لزوجته بالنفقة والسكنى بعد موته لمدة سنة حقاً على أولياء الميت وورثته ، من خلال ما تركه من مال ومسكن ، من دون أن تتحدث عن أي حق لهم في بقائها وخروجها من المنزل . فالأساس في القضية هو أن لا يخرجوها ، ولذلك كانت مسألة خروجها أمراً متعلقاً بها في أي وقت شاءت ؛ فلها أن تختار الخروج بعد موته مباشرة أو قبل انتهاء الحول بمدة قليلة أو كثيرة ، ولذلك تحدثت عن نفي مسؤوليتهم عنها في أي شأن من شؤونها ، فهم لا يملكون أي وضع خاص أو عام للسيطرة عليها ، فمن أين جاءت مسألة اشتراط تحديد العدة بالسنة باختيارها البقاء في البيت ، واعتبار الأربعة أشهر وعشرة أيام مشروطة بعدم رغبتها بالبقاء ؟ ثم الحديث عن اشتراط خروجها من البيت بمضي الأربعة أشهر وعشرة أيام ، فإن بقاء المرأة في بيت زوجها في العدة رخصة لا عزيمة . ثم إن الحديث عن عدتين في التشريع مختلفتين في الشرط

(١) انظر : تفسير الأمثل ، ج : ١ ، ص : ١٣٤ - ١٣٦ .

— وجوداً وعدماً — أمر غريب عن الجو الشرعي الفقهي والتفسيري . فلم يعهد من أحد من الفقهاء أو المفسرين أنه التزم بدوران عدة المتوفى عنها زوجها بين مدتين ، تبعاً لاختيار الزوجة وبقاء هذا الحكم حتى الآن ، لأن هذا المفسر يرى أن هذا المعنى يخرج الآية عن فرضية النسخ .

وقد جاءت الرواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن ابن أبي عمر ، عن معاوية بن عمار قال سألته عن قول الله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ ﴾ ؟ قال : منسوخة ، نسختها آية : ﴿ يَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ ونسختها آية الميراث ^(١) .



(١) البحار ، م : ٣٧ ، ج : ١٠١ ، ص : ٣٨١ ، باب : ١١٩ ، رواية : ٣٩ .

الآيتان

وَلَمَّا طَلَقْتَ مَنَعُ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

* * *

إمتاع المطلقات

﴿وَلَمَّا طَلَقْتَ مَنَعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هل يجب إمتاع المطلقات في جميع الحالات، بما في ذلك حالة فرض المهر لهن في العقد؛ أو يختص ذلك بصورة عدم فرض المهر مع عدم الدخول، بقرينة الآية السابقة التي اشترط فيها ذلك؛ أو يستحب ذلك في الجميع بقرينة ربط ذلك بالتقوى؟.. وربما قال البعض: إنها منسوخة، ولكن قد يبدو لنا أن المراد بالمتاع هو الحق الثابت لها في ما تستحقه من مهر أو نفقة أو إمتاع، وليس المراد شيئاً خاصاً في مقابل المهر والنفقة، ولا دلالة للتقوى على الاستحباب بل هي أعم.

إلا أن هذا الاحتمال يتنافى مع الأحاديث الواردة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا طَلَقْتَ مَنَعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: متاعها بعدما تنقضي عدتها، ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقَرِّ قَدَرُهُ﴾ فأما في عدتها فكيف

يتمتعها وهي ترجوه وهو يرجوها، ويجري الله بينهما ما شاء^(١). وفي ضوء ذلك، يكون المتاع المشار إليه في هذه الآية بمثابة هدية الفراق التي يقدمها الزوج للمرأة المطلقة، للتدليل على أن انفصالهما لا يمثل عقدة في ذاته تجاهها، ولا عداوة لها؛ بل هو أمر فرضته التعقيدات التي أحاطت بها. وربما كان هذا النهج الإسلامي حركة في إبقاء الذكريات المتبادلة — بعد الفراق — حية بطريقة حميمة بالرغم من سلبياته. وقد اعتبرته الآية: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ الذين عاشوا التقوى في ذواتهم رؤية تنفتح على الله، فتفتح على الناس بالخير كله، مما يلزمهم أو لا يلزمهم من أفعاله وأوضاعه. لأن من أحب الله أحب الناس، فأحب تقديم كل ما ينفعهم في أمورهم العامة والخاصة، وبذل المحبة لهم في عمق مشاعرهم العاطفية.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وتختتم الآية الفصل بالإشارة إلى أن بيان الله لآياته في تشريعاته يستهدف ربط الحياة بالخطوة المعتمدة على التأمل والعقل، الذي هو هدف الرسائل جميعاً في ما تدعو إليه من مفاهيم وحلول.

* * *

إحياءات الآية

وربما نستوحي من ذلك، أن الله يريد للعقل أن يتحرك في عملية استلهام لآيات الله في الكون وفي نظام الإنسان وحركة الحياة، ليتفهم — من خلال ذلك — القوانين والسنن الكونية والاجتماعية والحياتية التي أودعها الله في هذا النظام الكوني والإنساني، كما يتفهم — من خلاله — آيات الله التي تنظم

(١) البحار، م: ٣٧، ج: ١٠٠، ص: ٢٣٣، باب: ١٧، رواية: ٦٥.

للإنسان حياته القانونية في تشريعاته التي أوحى بها إلى رسله، فوضع له القواعد التي يستطيع من خلالها أن يحقق التوازن في شؤون حياته الفردية والاجتماعية. فليس العقل حركة في التجريد الذهني الذي يتأمل في أجواء المطلق، بل هو حركة في كل ما يتصل بالحياة الزوجية والعملية للإنسان، لأن لكل شيء عقله الذي يوازن الأمور على أساس الحسابات الدقيقة في فهم الظاهرة والحركة والقانون.

وقد نستوحي منها الدعوة إلى مواجهة التشريعات الإلهية بالفكر الذي ينطلق نحوها لبحث في خلفياتها ومعطياتها وحدودها، ولا يكتفي بالتعبد الجامد الذي يتقبل الأشياء من دون أن يحاول إدراك خصائصها في حياة الإنسان، لأن المكلف الذي يتحرك في امتثال التكليف، يتحرك من موقع الوعي لمضمونها الروحي والعملية في المصالح والمفاسد النوعية.



الآيتان

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ
حَذَرُ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ٢٤٣ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٤٤

* * *

معاني المفردات

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾: ألم تعلم. فالرؤية هنا بمعنى العلم. عبّر بذلك لدعوى ظهوره، بحيث يعد العلم فيه رؤية، وأصله: ألم ترأ، وأسقطت الهمزة للتخفيف.

قال الزمخشري: ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع، لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجب.

﴿ أُلُوفٌ ﴾: ألوف كثيرة العدد.

* * *

مناسبة النزول

يذكر المفسرون لهذه الآية، قصة من قصص الأمم السالفة، ففي الكافي في ما رواه — بسند ضعيف — عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام — وعن أبيه أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾، فقال: إن هؤلاء أهل مدينة من مدائن الشام، وكانوا سبعين ألف بيت، وكان الطاعون يقع فيهم في كل أوان. فكانوا إذا أحسوا به، خرج من المدينة الأغنياء لقوتهم، وبقي فيها الفقراء لضعفهم، فكان الموت يكثر في الذين أقاموا ويقل في الذين خرجوا. فيقول الذين خرجوا: لو كنا أقمنا، لكثرت فينا الموت. ويقول الذين أقاموا: لو كنا خرجنا، لقل فينا الموت. قال: فاجتمع رأيهم جميعاً، أنه إذا وقع الطاعون فيهم وأحسوا به، خرجوا كلهم من المدينة. فلما أحسوا بالطاعون، خرجوا جميعاً، وتنحوا عن الطاعون حذر الموت؛ فساروا في البلاد ما شاء الله.

ثم إنهم مروا بمدينة خربة قد جلا أهلها عنها وأفناهم الطاعون، فنزلوا بها. فلما حطوا رحالهم واطمأنوا بها، قال لهم الله عز وجل: موتوا جميعاً. فماتوا من ساعتهم، وصاروا رميماً يلوح. وكانوا على طريق المارة، فكنستهم المارة فتحوهم وجمعوهم في موضع. فمر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له حزقيل، فلما رأى تلك العظام بكى واستعبر وقال: يا رب لو شئت لأحييتهم الساعة كما أمتهم، فعمرؤا بلادك، وولدوا عبادك، وعبدوك مع من يعبدك من خلقك. فأوحى الله إليه: أفتحب ذلك؟ قال: نعم يا رب، فأحيهم. قال: فأوحى الله عز وجل إليه أن قل كذا وكذا. فقال الذي أمره الله عز وجل أن يقول — فقال أبو عبد الله عليه السلام، وهو الاسم الأعظم —، فلما قال حزقيل

ذلك الكلام، نظر إلى العظام يطير بعضها إلى بعض، فعادوا أحياء ينظر بعضهم إلى بعض، يسبحون الله عز ذكره، ويكبرونه، ويهللونه. فقال حزقيل عند ذلك: أشهد أن الله على كل شيء قدير^(١).

وقد أورد الطبري في تفسيره، والسيوطي في الدر المنثور عدة روايات تشبه هذه الرواية، مع بعض الاختلاف في التفاصيل^(٢). وقد ذكر بعض المفسرين أن الآية واردة مورد المثل. وحاول بعضهم أن يوجه الحياة والموت إلى الجانب المعنوي منهما بما يقرب من العز المتمثل في مواجهة الأعداء، والذل الذي يتمثل في الوقوع تحت سيطرتهم. واعتبر الأحاديث الواردة في هذا الباب من الإسرائيليات التي لا يعتمد عليها في تفسير القرآن أو في تقرير أية حقيقة من حقائق الإسلام... ونحن لا نريد أن نتوقف طويلاً أمام هذه الروايات لنحقق صحة سندها وضعفه، ولنجمع بينها في ما تتفق فيه، ولنعالجها في ما تختلف فيه، لأن ذلك كله لا يقدم شيئاً ولا يؤخر في ما نحن بصدد من فهم معنى الآية واستيحائها.



الآمة والتحديات: بين الهروب والمواجهة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾... فإنها تحدثنا عن جماعة من الناس خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت، دون أن تعرّفنا ظروف هذا الخوف، هل هو العدو المتربص بهم، أو هو المرض الذي يوشك أن يحل بهم أو هو شيء آخر... ولم يرض

(١) الكافي، ج: ٨، ص: ١٩٨، باب: ٨، رواية: ٢٣٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ج: ٢، ص: ٧٩٢ - ٨٠٠، والدر المنثور، ج: ١، ص:

الله لهم بهذا الخروج، لأن ذلك لن يحل لهم المشكلة، فللموت أسباب كثيرة تنتظر الناس في الطريق. فإذا هربوا من سبب التقوا بسبب آخر، فكأن الله يريد لهم أن يواجهوا الموقف من موقع الصمود الواعي الذي يتعامل مع الحياة والموت بإرادة واعية، لا تتعد عن الواقع عندما تقترب من الإيمان... فأماتهم الله جميعاً ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾، ليعرفهم أن الموت بيده، فهو الذي يحدد وقته من خلال حكمته في الكون بشكل مباشر أو غير مباشر، فقد يأتي الموت للإنسان من حيث لا يحتسب، وقد يتركه من حيث يرى أنه قادم إليه.

﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بما يملكه من القدرة على الإحياء، لأنه مالك الحياة والموت، ليأخذوا العبرة من ذلك في ما يستقبلون من حياة جديدة، فلا يهربون من الموت عندما تدعوهم المسؤولية إلى مواجهة الخطر الذي يقترب بهم من الموت، بل يُقبلون عليه إقبال الإنسان الواثق بأن قضية الحياة والموت بيد الله، ولا راد لقضاء الله تماماً كما هو وحي الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَٰؤُلَاءِ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ...

وقوله تعالى في آية أخرى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَّلَاتُهَا﴾ [آل عمران:

١٤٥].

وهكذا كانت الآية تعبر عن صورة من صور الواقع بما توحيه من حكاية التاريخ في مدلولها اللفظي. وربما كان قوله تعالى لهم: ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ دلالة واضحة على أن للقضية وجهاً مادياً في ما تعنيه كلمة الحياة والموت، لا سيما بعد حديثه عنهم بأنهم خرجوا من بيوتهم حذر الموت. فكأنه أراد أن يأخذهم بعكس ما قصدوه، فقد فكروا بأن الخروج يحقق لهم النجاة من الموت، فإذا به يلقيهم في منتصف الطريق.

وفي هذا الجو، نفهم من الإحياء بعد ذلك معنى يلتقي بالعبارة التي أراد الله لهم أن يأخذوها من ذلك كله. ولعل في ابتداء الآية بكلمة ﴿الْمَ تَرَ﴾ ما يوحي بأن القصة كانت معروفة بشكل واضح، أو هكذا تريد الآية أن توحي، مما يؤكد الطبيعة الواقعية للقصة، ولهذا كله فإننا نتحفظ بشدة في تأويل كلمات الآية إلى غير ما هو الظاهر من معناها اللغوي، لا لأننا نرفض الاستعمالات المجازية في القرآن، بل لأن جو الآية لا يسمح بذلك... ولكن هذا لا يمنع من أن يستوحي القارئ للقرآن من هذه الآية المعاني الكبيرة التي تربط الناس بالفكرة.



اتجاهات متعاكسة في التفسير

وقد يكون من المناسب - في هذا السياق - أن نشير إلى قضية حيوية في التفسير القرآني المشتمل على قصص التاريخ في ما يتحدث لنا به عن الأمم السابقة التي عاشت في إطار النبوات وفي غيرها... وهي أن البعض يحاول أن يندفع إلى الأخذ بكل أقاصيص الرواة، من دون تمييز بين الصحيح والفساد منها، ولا بين المعقول وغير المعقول، ولا بين الموضوع وغير الموضوع... لأنه يعتقد أن مجال ذلك هو الأحكام الشرعية التي تتمثل بالحلال والحرام، فلا بد فيها من التدقيق في الروايات من خلال سند الرواية ومضمونها، لئلا نحكم بحلية ما حرمه الله، أو بحرمة ما أحله الله، فنستحق بذلك عقاب الله عندما ننسب إلى الله ورسوله شيئاً لم يقله أو لم يشرعه.

أما الأقاصيص، فإنها لا تمثل أي جانب سلبي من هذه الجهة، لأنها مما لا يترتب عليها أي أثر في الشرع وفي الحياة، كما في هذه القصة التي رواها

المفسرون في تفسير هذه الآية، فما الذي يترتب من الأثر السلبي على مثل هذا التفسير — سواء أكان خطأ أم كان صواباً — فالفكرة هي الفكرة من حيث العبرة والإيحاء، فلا ضرورة للتدقيق والأخذ والرد من المناقشات، التي قد ترد في هذا الباب.

وهناك من يحاول أن يقف في الخط المعاكس لهذا الاتجاه، فيرى أن علينا أن نشير الكثير الكثير من علامات الاستفهام أمام ما ورد من روايات القصص القرآني في التفسير، لأن الإسرائيليات قد اقتحمت علينا الساحة بما أثاره الرواة الذين تتلمذوا على كعب الأحبار ووهب بن منبه، من قضايا أراد اليهود أن يدخلوها في الفكر الإسلامي في ما يتصورونه للحياة وللتشريع وللتاريخ من تصورات لا تتفق مع المفاهيم الأصلية للتصور الإسلامي الصحيح...

ولذلك، فإن علينا أن نواجه الموقف بطريقة الرصد الواعي لكل رواية نحتمل فيها السير في هذا الاتجاه ولو من بعيد. وقد يؤكد هذا البعض على رفض الروايات التي تدخل عنصر الغيب في القصص والأحداث؛ فتكثر من ربط الحياة بالغيب، من خلال التفسير الغيبي للمفاهيم القرآنية التي لا تبتعد كثيراً عن الواقع في طبيعتها الواقعية الأصلية... وقد يحاول مثل هؤلاء أن يفسروا هذه الغيبات تفسيراً مادياً خالصاً، لأنهم يستبعدون الغيب كفكرة، وإن كانوا لا يكفرون به كعقيدة؛ وبذلك اعتبروا كثيراً من التعابير القرآنية أدباً رمزياً يعتمد على الرمز في ما يريده، ولا يركز على الوضوح والبيان...

أما نحن، فنقف موقفاً وسطاً بين هذين الاتجاهين؛ فلا نوافق الاتجاه الأول في الأخذ بكل الأقاصيص والتخفيف من خطورة السلبات الناشئة من الأقاصيص التي قد تكون مكذوبة، لأن ذلك يمثل مسؤولية شرعية في القول في القرآن بغير علم، بل ربما كان ذلك أعظم إثماً من تفسير القرآن بالرأي الذي رفضته الأحاديث الشريفة المتواترة. وثانياً، إن طبيعة التصور الذي

تحدثه القصة في النفس يخلق لدى الإنسان مفهوماً معيناً من خلال القصة، الأمر الذي قد يترك تأثيرات سلبية على طبيعة الممارسة العملية لكثير من قضايا الواقع والحياة. ولعل الأثر الذي تحدثه القصة في تربية المفاهيم السلبية أو الإيجابية في عمق الشخصية، أكثر من الأثر الذي يحصل من خلال أسلوب فكري أو تحليلي مجرد، وهذا ما نعرفه في مهمة الأسلوب القصصي في التربية العامة والخاصة.

وفي ضوء ذلك، فإننا نؤكد على ضرورة التدقيق في سند القصة التفسيرية ومضمونها، من أجل أن نعرف صحيح الحديث من فاسده على أساس الموازين العلمية الصحيحة؛ فلا نأخذ بحديث إلا بعد أن تثبت لنا صحته وواقعيته وأصالته، وبهذا نستطيع أن نكتشف زيف الإسرائيليات الموضوعة التي لا أساس لها في كتب الله ورسالاته. وقد نتعرف في بعض هذه الإسرائيليات التي رواها علماء اليهود، ما قد يكون صحيحاً في فكرته وأسلوبه، لأن وجود الوضع والدس والافتراء لا يعني أنه يمثل ظاهرة شاملة في كل هذه الأحاديث.

أما وجود الغيب في بعض القصص والأحاديث، فلا يكون دليلاً على الضعف. لأننا لا نستطيع أن نمنع ما في الغيب من أصالة الإيمان والحقيقة، فإن الإيمان بالغيب عقيدة إسلامية إيمانية أصيلة. ولكننا لا نوافق - في الوقت نفسه - على أن الغيب ظاهرة شاملة في كل الواقع، فإن الله قد أقام الحياة على أساس القوانين الطبيعية المودعة في الكون، وأراد منا أن نفهم الحياة من خلالها من خلال ربط المسببات بأسبابها، مع إعطاء فسحة للغيب في بعض المجالات.

ولهذا فإننا قد نقبل التفسير الغيبي في بعض الموارد التي لا نجد لها أساساً معقولاً للتفسير الطبيعي للأشياء؛ ونحتفظ في بعض الموارد التي نجد لها أساساً واقعياً تربط القضية بالقوانين الطبيعية للأشياء؛ فنستبعد الجانب

الغيبي، لأنه لا يقدم لنا تبريراً لإنكار السبب الواقعي واستبداله بالسبب الغيبي، من دون أن يضر ذلك بقضية الإيمان بالغيبي، لأنه لا يرفض الغيب كعقيدة تعيش في الحياة وفي الإيمان، ولكنه يتحفظ فيه كظاهرة شاملة ترفض الأسباب الواقعية للأشياء.



القتال في طريق الحياة

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا نداء للمؤمنين، بالاندفاع في مواجهة الموت، وعدم الخوف منه بالتراجع عن المسؤوليات الجهادية التي تفرض عليهم القتال في سبيل الله، فإن ذلك هو ما يحقق لهم سبيل الحياة القيومية الحرة الكريمة. فإننا نستوحي، من ذكر هذه الآية، بعد القصة المتقدمة التي خرج أشخاصها من ديارهم حذر الموت فماتوا ثم أحياهم الله، أن الأمة التي تفر من الموت لتفرض على نفسها الهزيمة لا تستطيع تفادي الموت، وأن الأمة التي تموت في خط العزة والجهاد قد يعيدها ذلك إلى الحياة.

وهو إعلان لهم بأن الله يسمع كل ما يفيضون به من حديث في ما يتحركون فيه من الإقبال على الجهاد أو الإدبار عنه، ويعلم كل ما يضمرونه وما يعملونه من طاعة ومعصية. وفي هذا التأكيد على هاتين الصفتين من صفات الله، إحياء بالرقابة الشاملة لله على الإنسان في كل ما يضمره أو يقوله وما يفعله، ليتعمق في داخله الشعور بالانضباط الواعي أمام مسؤولياته.



الآية

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

* * *

الإنفاق والتجارة

هذه دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، سواء في مواقع السلم أو في مواقع الحرب. فإن كل واحد من هذه المواقع يحتاج إلى المال الذي ينفقه المؤمنون لبناء القوة الذاتية للأمن، من خلال السيطرة على كل نقاط الضعف الذاتي. . . .

وقد أراد الله أن يوحي للإنسان بأن ذلك لا يمثل أي نوع من أنواع خسارة المال، كما قد يخيل للبعض، عندما يفكرون بأنه لا يستتبع تعويضاً؛ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بل هو نوع من القرض الحسن الذي يقرضه المؤمن لله مالك السماوات والأرض، باعتبار أن الجهات التي يصرف المال في سبيلها هي لله مالك السموات والأرض في ما يحبه ويرضاه ويريده. . . . وقد وعد المنفقين بأن يعطيهم ثواب القرض الحسن، ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ويرد إليهم ما أنفقوا مضاعفاً أضْعَافاً كثيرة، فعليهم أن

يراقبوه في حالة الإنفاق وعدمه، ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ﴾ لأنه الذي يقبض يده عندما يريد ويبسطها عندما يريد، في ما يعطي وما لا يعطي ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾، وإليه يرجع الناس كلهم فيجدون لديه نتائج أعمالهم في ما يجدون من ثوابه وعقابه.

وقد جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩] قال رسول الله ﷺ : اللهم زدني. فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] قال رسول الله ﷺ : اللهم زدني، فأنزل الله عز وجل : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَلِّعَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ، فعلم رسول الله أن الكثير من الله عز وجل لا يُحصى وليس له منتهى ^(١).



الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَنَوْا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ
لَهُمْ أَعْتَلْنَا مَلِكًا نُّقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ
مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً
مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ
وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ وَنُوحٌ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ
إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَن أَغْرَقَ غُرْفَةً يَدِيهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ
كَثِيرَةٌ يُأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ
قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يُأْذِنُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ
اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

* * *

معاني المفردات

﴿الْمَلَأَ﴾: أشراف القوم ووجوههم، سمووا بذلك لأنهم يملأون العيون
رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً.

﴿بَسَطَ﴾: سعة، من بسط الشيء: نشره وتوسّعه وامتداده.

﴿التَّابُوتُ﴾: روي أنه الصندوق الذي أنزله الله على أم موسى فوضعت
فيه ابنها وألقته في البحر، وقد وضع فيه موسى الألواح ودرعه، وما كان عنده
من آثار النبوة.

﴿سَكِينَةً﴾: السكينة: الهدوء وطمأنينة القلب. وأصله: السكون الذي هو ثبوت الشيء بعد تحرك.

﴿دَفْعُ اللَّهِ﴾: الدفع: الرد بقوة. وهو — هنا — بمعنى قانون الصراع التاريخي في حركة المجتمعات.

* * *

قصة طالوت وجالوت: درس في الثبات والنكوص

وهذه قصة أخرى من القصص القرآني، الذي أريد به التأكيد على بعض المفاهيم التربوية العامة في الحياة العملية للإنسان، وقد أفاض المفسرون فيها بما رووه من التفاصيل المتعلقة بالأشخاص والأحداث والأشياء. ولكننا نتبع الأسلوب القرآني في طريقة تناولنا للقصة، فنجمل في ما أجمل ونفصل في ما فصل فيه الحديث، لأن القضية في هذه القصة — وفي غيرها من القصص — هي قضية الفكرة التي توحى بالهدف، لا السرد الذي يدفع إلى أجواء الملهاة، فلا بد من أن نتناول منها الإنسان النموذج والحدث النموذج، في ما نتناوله من تفاصيلها. . .

إنها قصة نبي من أنبياء بني إسرائيل مع قومه. ولا يهمنا معرفة اسمه، لأن ذلك لا قيمة له في ما نحن بصده من الانفتاح على الفكرة التي نريد أن نخرج بها من الحوار القصصي في هذه القصة القرآنية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى أَلْمَلَأَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الذين كانوا يشعرون بالفراغ في جانب الواقع الاجتماعي من حولهم، فقد ابتعدوا عن حركة الصراع، وأصبحوا على هامش مواقع القوة في الناس. لأن الذي يربح الموقع المتقدم، هو الذي يقاتل الآخرين الذين يملكون السيطرة الكبيرة بين الناس، فيفرضون

كلمتهم ورأيهم وسلطتهم على الفئات المستضعفة في المجتمع — كما هو واقعهم آنذاك — ولهذا جاؤوا إلى نبيهم الذي أرسله الله إليهم — في سلسلة النبوات الرسالية — ليتحدثوا معه حول المستقبل الذي يتطلعون إليه في حركة القوة كأصحاب رسالة مفتوحة على قضايا الإنسان والحياة. فقد انطلقت التوراة في عهد موسى، لتكون قاعدة للتشريع والحكمة والحركة والقوة، مما يجعل القائمين عليها في موقع الامتياز الكبير على المستوى المادي والروحي.

﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهْمُ ﴾ اختلف المفسرون في اسمه، فقال بعضهم: إنه صموئيل وهو بالعربية إسماعيل، وقيل شمعون، وقيل يوشع وغير ذلك مما لا جدوى من الحديث فيه. ﴿ أَعَبْتُ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾. وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام — كما في المجمع — كان الملك في ذلك الزمان هو الذي يسير بالجنود، والنبي يقيم له أمره ويثبت بالخير من عند ربه ^(١). ولعل هذا ما دعاهم إلى طلب تعيين الملك، لأن النبي لم يكن في هذا الموقع من الناحية الفعلية. وقد أعطوا حركتهم المبتغاة عنوان القتال في سبيل الله، لأن هذا العنوان هو الذي يمنح الصراع قدسيته ويخرجه من ماديته إلى عنوان الروح، وهو الذي يستثير النفوس ويحولها إلى طاقة عظيمة منفتحة على الإيمان بالله ومنطلقة في سبيله، فكأنها تؤدي واجباً دينياً في الحرب الدفاعية، لا حاجة ذاتية في الواقع.

إن الظاهر — في هذه المرحلة أو في ما قبلها من مراحل النبوة في بني إسرائيل — هو توزيع الأدوار، بين النبوة والملك، فللنبي دور التوجيه والتربية والدعوة إلى الله والإشراف على تعيين المراكز القيادية، وللملك دور الحرب والقتال والممارسة العملية للقيادة. ولهذا لم يطلب هؤلاء القوم من نبيهم أن يقودهم للقتال، كما هو الحال في الإسلام عندما كان النبي ﷺ أو الإمام هو الذي يقود الجيوش في المعارك الكبيرة، بل طلبوا منه أن يعين لهم ملكاً،

يشعر الجميع بأن له حق الأمر، ليكون عليهم حق الطاعة.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ وكان هذا النبي في شك من جدية هذا الطلب، فقال لهم: إنه يخشى أن لا يستجيبوا للقتال إذا فرضه الله عليهم، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فأعلنوا - في جوابهم له - تصميمهم على القتال ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ انطلاقاً من واقع الاضطهاد الذي تعرّضوا له، من إخراج الظالمين لهم من ديارهم وأهاليهم، مما يجعل من قضية القتال قضية ترتبط بالذات من جهة، وبالعقيدة من جهة أخرى. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الذين ينكصون عهدهم ...

وبدأت التجربة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فقد عين النبي القائد، وأوضح لهم أن التعيين من الله لا منه، ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ ولم يخفوا اعتراضهم على ذلك، لما يحسبونه أساساً للملك أو للقيادة، ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾ وهي القدرة المالية الواسعة التي لا يملكها هذا القائد المعين، في الوقت الذي كانوا يأملون أن يكون القائد أحدهم، لأنهم يرون أنفسهم حائزين على هذا الامتياز، مما يجعلهم أحق منه بالملك.

﴿قَالَ إِنْ اللَّهَ أَصْطَفٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ ووقف النبي لشرح لهم أن المال لا يمثل قيمة مميزة في الملك القائد، لأن القيادة تحتاج إلى قوة يقاتل بها، وعلم يخطط به خطط الحرب والقتال. وكلاهما موجودان في هذا الإنسان الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم، ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالقضية، أولاً وأخيراً، قضية الإرادة الإلهية التي تتحرك من موقع الحكمة.

ثم شرح لهم علامة ملكه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي أن يأتي حاملاً الصندوق الذي فيه السكينة، وهي الإيمان في ما روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام،

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ﴾ من موارث العلم والحكمة .

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ وانطلق طالوت ، وهذا هو اسم الملك الذي عيّنه النبي ، ومضى معه جنوده . ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وبدأت التجربة بين القائد وجنوده ، فقد أعلن لهم أن الله قد ابتلاهم وامتحانهم — ليختبر انقيادهم — بالنهر الذي يمرّون به ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فعليهم أن لا يشربوا منه إلا بمقدار غرفة مهما بلغ عطشهم .

وسقط الأكثرون في الامتحان ، ووهنت عزائمهم ، ودبّ الضعف فيهم . ووقف المؤمنون المخلصون ، ليكون النصر لهم في نهاية المطاف .

* * *

إحياءات ودروس

تلك هي خلاصة القصة ؛ فما الذي نستوحيه منها لحركة الدعوة إلى الله في الحياة ، وما الذي نستفيده منها من نقاط توضيحية للواقع الذي كان يعيشه هؤلاء القوم آنذاك ؟ .

هذا درس للعاملين في سبيل الله أن يقفوا موقف الحذر من كثير من المتحمسين والمندفعين الذين يطرحون الشعارات الحادة ، ويعلنون — في حماسٍ زائد — استعدادهم للجهاد والقتال في ما إذا حصلت لهم القيادة الحكيمة الصالحة وهم يظنون أو يأملون في أنفسهم أن لا تحصل .

إن علينا أن نستفيد من هذه القصة ، بالطريقة التي يمكننا — فيها — التفاهم معهم ، من أجل اكتشاف ما هم عليه من جدية وتصميم ، لتمييز العناصر المخلصة من العناصر المزيفة سواء في وضعهم أمام التجربة العملية في ما يريدون ، أم في إدارة الحوار معهم في بعض القضايا التي توضح لنا الفرق بين الجوانب المرتبطة بالذات وبين الجوانب المرتبطة بالعقيدة .

إن قضية النصر والهزيمة ليست بالقلة والكثرة، بل هي بالإيمان والتخطيط والتنظيم، والأخذ بأسباب القوة؛ مما يجعل النصر في جانب القلة المؤمنة المنظمة، على الكثرة التي تفقد الإيمان والتنظيم والتخطيط، انطلاقاً من الشعار الذي طرحه هؤلاء المؤمنون الذين واجهوا المعركة بقلوب مؤمنة واثقة بالله: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. الأمر الذي يجعل العاملين في موقع الثقة، مهما كانت قوة الخصوم كبيرة.

إن قيمة الحوار، في هذه القصة، هو أننا استطعنا أن نتمثل كل المشاعر والأجواء التي كان يعيشها هؤلاء من خلال مواقفهم القلقة في جانب، والثابتة في جانب آخر؛ مما لا يتسنى لنا معرفته لو كانت القضية تعيش في إطار التقرير العادي للقصة. إنه الفرق بين أن يُحكى لك الموقف من خلال الآخرين، أو ينقل لك الموقف بنفسه وتمثله بنفسك.

أن يبقى المؤمن المجاهد في موقف الاستعانة بالله، والشعور بالحاجة إليه في ما يحصل عليه من قوة، وما يحتاج إليه من مواقف الصبر والصمود والثبات، وما يتطلع إليه من نصر لا اعتقاده بأن النصر من عند الله أولاً وأخيراً، فلا يدفعه الشعور بالقوة إلى الغرور والتعالي ونسيان الله، ولا يمنعه الشعور بالضعف من التماسك إزاء قوة الله، كما يحصل لكثيرين من الذين ينسون الله في مواقف الحرب والسلام، فينسيهم أنفسهم، فيخيل إليهم أنهم على شيء، وليسوا بشيء.

إنه الفرق بين المؤمن الذي يشعر بالقوة الروحية والمعنوية التي تمتد من الأرض إلى السماء فلا تقف عند حد، فيتحول إلى قوة تدمر كل قوة تقف أمامها؛ وبين غير المؤمن الذي يستمد قوته من الأرض، ومما يحوطه من إمكانيات محدودة، فيبقى حيث هو في إطار محدود.

إن إيتاء الله الملك لمن يشاء، لا تعني رضى الله عن كل هؤلاء الذين يملكون زمام الأمور في الحياة، فإن فيهم الكافرين والظالمين والمنحرفين، بل قد تعني خضوع الحوادث في الكون لمشئته الله التي قد تتعلق بالأشياء بطريقة مباشرة، كما في الأمور التي يحدثها الله من خلال إرادته التكوينية المباشرة، كما في خلقه للكون في ابتداء الخلق. وقد تتعلق بالأشياء بطريقة غير مباشرة، وذلك من خلال القوانين العامة التي أودعها في حدوث الأشياء وحركة المجتمعات وسير التاريخ، انطلاقاً من حكمته النوعية في ما يصلح أمر الحياة وبينها على أساس متين. وقد جعل إرادة الإنسان، فرداً أو جماعة، قانوناً طبيعياً يحرك الحياة في اتجاه النمو والتطور والاستقامة والانحراف. وفي ضوء ذلك، لا مانع من أن نلتزم بأن الله لا يرضى عن ملك كثير من الأشخاص في ما يمارسونه من أعمال الكفر والانحراف، ولذلك نهاهم عنها أشد النهي؛ ولكنه — في الوقت نفسه — ليس بعيداً عن سلطة الله وإرادته في الكون، فإن من الممكن لله أن ينزع ملكه قهراً بإرادته التكوينية، ولكن حكمته اقتضت أن يملئ للإنسان في ما يعيش وما يعمل، ليقرر مصيره بإرادته واختياره.

إن الآية تؤكد بأن الإخراج من الديار والأموال يشكّل عدواناً على الإنسان الفرد والمجتمع، وذلك لو قام بها إنسان فرد أو جماعة، وبذلك يعتبر مبرراً للدخول في قتال ضد المعتدي، بحيث يعتبر ذلك شرعياً عند الله. وهذا ما نستظهره من خلال التركيز على هذا المبرر، مما يعطينا الفكرة الواضحة بتقرير النبي لهم على ذلك. ولا بد لنا، في هذا المجال، في أن نحدد الموضوع في نطاق الإيمان الذي يتعرض لعدوان الكفر، كما حدث في المبررات التي سبقت الإذن للمسلمين بالقتال، لأنهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوكٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ربما نستوحي من هذه الفقرة من الآية، أن هناك قانوناً طبيعياً فطرياً في حركة الحياة الاجتماعية التي يعيشها الناس، في ما أودعه الله في الحياة من قوانين تنظم لها سيرها، وتدفع بها إلى المجالات الكبيرة التي تحقق لها أهدافها العليا... وخلاصته: إن كل إنسان منا يعمل في اتجاه الأشياء التي يألفها ويريدها ويؤمن بها، وفي اتجاه مقاومة الأشياء التي يكرهها ويرفضها أو يكفر بها، لأنها تعطله عن الحصول على ما يريد... وربما يتحقق ذلك في الأفكار، وربما يتحقق في الأشياء العامة، وقد يحصل في القوى التي تحيط به. فإذا لاحظ أن هناك فكراً يقاوم فكره، أو شيئاً يواجه بعض الأشياء التي يحبها، أو قوة تريد أن تصادم قوته فتصرعها وتهزمها... فإنه يبادر إلى الوقوف أمام تلك الأفكار والأشياء والقوى، ليحمي فكره وأشياءه وقوته... وهكذا تسير الحياة في أجواء الصراع، فيتولد من ذلك الفكر المتنوع المتحرك، والقوة المتجددة بما تملك من أساليب الحرب وأدواتها، والأوضاع المختلفة المحيطة بالأشياء في وجوهها المختلفة...

إن الله يريد أن يشير إلى هذا القانون الفطري الذي سارت عليه الحياة، ولا تزال تسير، في حركتها الاجتماعية؛ فيقرر لنا قيمة هذا القانون ودوره في إصلاح الحياة؛ فلولاها لفسدت الأرض، لأن الإنسان الذي يبلغ مقداراً كبيراً من القوة، يستطيع من خلاله أن يفرض رأيه وموقفه وذاته على الآخرين، لا بد له من ممارسة السيطرة عليهم من خلال قوته. فإذا وقفوا منه موقفاً سلبياً ضعيفاً وتركوه يفعل ما يشاء، كانت النتيجة أن يمتد في قوته وفساده، ولا يفسح المجال للخير وللحق أن ينمو أو يعيش. ولما كان الله يريد للحياة أن تزدهر وتصلح، كان الصراع في عملية دفع الناس بعضهم ببعض يفسح المجال لقوى الخير أن تؤكد وجودها، ولو في نهاية المطاف، عندما

تتحرك نحو أهدافها لتقاوم كل الموانع والقوى التي تقف ضد الأهداف، فيحصل من خلاله ما يصلح الأرض من قوى جديدة تنشأ بفعل الصراع، وأفكار كبيرة تندفع من خلال النزاع، وخطوات عملية تنطلق في حياة الناس؛ وتلك هي قصة الصراع، في ما يريد أن يوحيه لنا القرآن الكريم؛ فهو لا يمثل مزاجاً للتحكم وللسيطرة، وإنما يمثل دفع سيطرة الشر على الخير، والحق على الباطل، والعدل على الظلم والطغيان... من أجل أن تعيش الأرض في بعض مراحلها، أو المرحلة الأخيرة منها، الجو الإنساني المنفتح الذي يحصل فيه الإنسان على ما يوجب له الطمأنينة والراحة والكرامة... وتلك هي قصة الدوافع الفطرية التي أودعها الله في تكوين الفرد والمجتمع. فهي التي تقود الإنسان إلى ما يبني له حياته ويصلحها ويرفع مستواها في جميع مجالاتها، وذلك هو فضل الله على العالمين.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ويختم الله هذا الفصل، وهذا الجزء، بالإشارة إلى آيات الله في الكون وفي الوحي لتكون دليلاً للإنسان على الله الذي يفتح له آفاق الوعي في ما يفتح له من آفاق المعرفة بالحق. فلا بد للإنسان من أن يفتح عليها ويسير في هداها ليحصل على المصير السعيد. ثم يؤكد للنبي، بعد ذلك أنه من المرسلين، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ليؤكد في نفسه الشعور بالرسالة بعمق من أجل تعميق الشعور بالمسؤولية تجاهها، وليؤكد في نفوس الناس الشعور الحي بضرورة اتباع الرسول في ما بلغهم وما دعاهم إليه، عندما يعرفون أنها رسالة الله على لسان رسول الله، مما يجعل طاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله.



الفهرس

الصفحة

الموضوع

تفسير سورة البقرة [١٨٠ - ٢٥٢]

٧	 الآيات : [١٨٢ - ١٨٠]
٧	 معاني المفردات
٨	 الوصية .. الصوم .. الدعاء ..
٩	 هل الآية منسوخة ؟
١١	 جولة مع مفردات الآية
١٥	 الإيحاءات والدروس
١٨	 الآيات : [١٨٣ - ١٨٥]
١٨	 معاني المفردات
١٩	 الصيام مع بعض أحكامه
٢٢	 الصوم والتقوى
٢٤	 الإفطار في السفر رخصة أم عزيمة ؟
٢٥	 متى تجب الفدية ؟
٢٧	 ما معنى نزول القرآن في شهر رمضان
٢٨	 القرآن هدى للناس
٢٩	 بين القضاء واليسر
٣٢	 الآية : [١٨٦]

٣٢	الدعاء .. في علاقة العبد بربه
٣٣	الدعاء عبادة
٣٤	ملاحظات بخصوص الدعاء
٣٩	إجابة الله دعاء عباده
٤٦	الآية: [١٨٧]
٤٦	معاني المفردات
٤٨	مناسبة النزول
٤٩	الصوم وحدود العلاقات الجنسية في شهر رمضان
٥١	لا تقربوا حدود الله
٥٣	الآية: [١٨٨]
٥٣	معاني المفردات
٥٤	لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
٥٧	بين الملكية الفردية وأكل الحرام
٦٠	الآية: [١٨٩]
٦٠	معاني المفردات
٦١	مناسبة النزول
٦٢	الإسلام يفتح على الاستجابة أمام إثارة التساؤلات
٦٤	السؤال والجواب أسلوب تربوي
٦٨	مع صاحب تفسير الميزان
٦٩	يسألونك عن الأهلّة
٦٩	البرّ من اتقى
٧١	من وحي الآية
٧٤	الآيات: [١٩٠ - ١٩٣]
٧٤	معاني المفردات
٧٥	تشريع القتال في الخطوات الأولى
٧٧	الفتنة أشد من القتل

٧٨	القتال في المسجد الحرام
٨١	كيف نفهم القتال من موقع الجهاد؟
٨٤	الآيتان: [١٩٤ - ١٩٥]
٨٤	معاني المفردات
٨٥	القتال في الشهر الحرام
٨٦	الإنفاق في سبيل الله وحفظ النفس
٨٩	مع صاحب مجمع البيان في دلالة الآية
٩٢	بين التهلكة وصراع الاستكبار
٩٣	الإحسان.. شريعة أخلاقية
٩٥	الآيات: [١٩٦ - ٢٠٣]
٩٦	معاني المفردات
٩٨	جولة في آفاق الحج
١٠١	الإحصار في الحج
١٠٢	حج التمتع
١٠٤	لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج
١٠٥	لا جناح في ابتغاء الفضل بعد إتمام الحج
١٠٧	في عرفات.. والمشعر الحرام
١٠٩	إلغاء النوازع الطبقية
١١٠	الدعاء بين نموذجين من الناس
١١٢	الجانب التربوي في الدعاء
١١٣	واذكروا الله في أيام معدودات
١١٥	الآيات: [٢٠٤ - ٢٠٧]
١١٥	معاني المفردات
١١٧	مع نموذجين من الناس في مواقف الحياة
١٢٣	ماذا نستوحي من هذين النموذجين؟
١٢٥	الآيات: [٢٠٨ - ٢١٢]

- ١٢٥ معاني المفردات
- ١٢٦ الدخول في السلم: المعاني والإيحاءات
- ١٣٠ خطوات الشيطان تصادر خطوات السلام
- ١٣٣ المنحرفون.. ماذا ينتظرون ليستقيموا؟
- ١٣٦ سل بني إسرائيل
- ١٣٨ الفوقية الزائفة والفوقية الحقيقية
- ١٤١ الآية: [٢١٣]
- ١٤١ معاني المفردات
- ١٤٢ الرسائل ودورها في الاختلافات
- ١٤٦ التشريع يشمل كل مجالات الحياة
- ١٤٧ البغي كان أساس الاختلاف
- ١٤٧ الذين يحبون الحقيقة يفتحون على الحوار
- ١٤٨ مع صاحب الميزان في تفسير الاختلاف
- ١٥٢ مع العلامة الطباطبائي في الاستدلال بالآية على عصمة الأنبياء ...
- ١٥٧ الآية: [٢١٤]
- ١٥٧ معاني المفردات
- ١٥٨ الجنة لا تنال بالاسترخاء أو بالتمنيات
- ١٦٢ وقفة أمام مفهوم النصر القريب
- ١٦٧ الآية: [٢١٥]
- ١٦٧ معاني المفردات
- ١٦٨ مناسبة النزول
- ١٧٠ السؤال باب للمعرفة والعمل
- ١٧٢ من هو الأولى بالإنفاق؟
- ١٧٦ الآية: [٢١٦]
- ١٧٦ معاني المفردات
- ١٧٧ لماذا لم يشرع القتال في بدء الدعوة؟

١٨١	كتب عليكم القتال وهو كره لكم
١٨٣	الإيحاءات والدروس
١٨٥	الآيتان: [٢١٧ - ٢١٨]
١٨٥	معاني المفردات
١٨٦	مناسبة النزول
١٨٧	القتال في الشهر الحرام
١٨٨	الفتنة أكبر من القتل
١٩٠	الارتداد يحبط الأعمال
١٩١	تفسير الميزان وحبط الأعمال
١٩٤	هل الأعمال يبطل بعضها بعضاً؟
١٩٧	بين الردة والموت كافراً
١٩٩	نظرة الإسلام إلى المرتد في قبول توبته
٢٠١	الدلالات والإيحاءات
٢٠٢	زمن السلام
٢٠٢	التزاحم بين الحكمين
٢٠٥	صراع المسلمين مع قوى الكفر مستمر
٢٠٦	الإيمان قيمة كبرى
٢١٠	الآيتان: [٢١٩ - ٢٢٠]
٢١٠	معاني المفردات
٢١٣	مناسبة النزول
٢١٦	القرآن والتصدي لقضايا الواقع
٢١٧	طريقة القرآن في إثارة القضايا
٢١٨	القرآن والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات
٢٢٠	ما موقف الإسلام من الخمر والميسر؟
٢٢٣	وقفه مع آراء المفسرين في هذه الآية
٢٢٤	ملاحظة على رأي الطباطبائي

٢٢٥	 الآية في مستوى القاعدة الفقهية
٢٢٧	 الآية في خط الدعوة والتربية
٢٢٩	 العفو من الإنفاق
٢٣١	 ويسألونك عن اليتامى
٢٣٥	 الآية: [٢٢١]
٢٣٥	 معاني المفردات
٢٣٦	 مناسبة النزول
٢٣٧	 الزواج بين الرغبة العاطفية والمصلحة الواقعية
٢٣٧	 من هم المشركون في الآية؟
٢٣٩	 ولأمة مؤمنة خير من مشركة
٢٤٢	 الفارق بين أهل الكتاب والمشركين
٢٤٣	 الآيتان: [٢٢٢ - ٢٢٣]
٢٤٣	 معاني المفردات
٢٤٦	 مناسبة النزول
٢٤٧	 يسألونك عن المحيض
٢٥٥	 المفسرون والفقهاء واختلافهم في كلمة «الحرث»
٢٥٨	 المرأة بين الوطء والحرث
٢٦٠	 بين الأسلوب القرآني وصلة الإنسان بالله
٢٦٣	 الآية: [٢٢٤]
٢٦٣	 معاني المفردات
٢٦٤	 مناسبة النزول
٢٦٥	 اليمين: دوره ومعطياته
٢٦٩	 الآية: [٢٢٥]
٢٦٩	 معاني المفردات
٢٦٩	 اليمين بين اللغو والجذبة
٢٧١	 لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم

٢٧٢		الآيتان: [٢٢٦ - ٢٢٧]
٢٧٢		معاني المفردات
٢٧٣		مناسبة النزول
٢٧٣		الإيلاء بين خيارين
٢٧٥		مدلول الأربعة أشهر
٢٦٩		الآية: [٢٢٨]
٢٧٩		معاني المفردات
٢٨٠		مناسبة النزول
٢٨١		بين الطلاق والإصلاح
٢٨٣		ولهنّ مثل الذي عليهنّ
٢٨٥		مع بعض الأحاديث في حقوق المرأة والرجل في الزواج
٢٩٠		ضرورة العدة
٢٩١		حرمة الكتمان
٢٩٢		حق الرجعة
٢٩٣		وللرجال عليهنّ درجة
٢٩٥		موقع الطلاق من التشريع الإسلامي
٢٩٨		الطلاق بيد من؟
٢٩٩		ما الحكمة في العدة؟
٣٠٠		الرجوع بيد من؟
٣٠٢		الآيتان: [٢٢٩ - ٢٣٠]
٣٠٢		معاني المفردات
٣٠٣		مناسبة النزول
٣٠٥		حدود الله في تشريع الطلاق
٣٠٩		فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان: قاعدة فقهية
٣١٣		لماذا التحجير في حدود الطلاق؟
٣١٥		الآية: [٢٣١]

معاني المفردات	٣١٥
مناسبة النزول	٣١٦
إمساك الضرر ظلم للنفس واستهزاء بآيات الله	٣١٧
الآية: [٢٣٢]	٣٢٠
معاني المفردات	٣٢٠
مناسبة النزول	٣٢١
لا تمنعوا المطلقات من العودة	٣٢١
الأخذ بموعظة الله أذكى وأطهر لمن يؤمن	٣٢٣
الآية وحرية الاختيار عند المرأة	٣٢٤
الآية: [٢٣٣]	٣٢٥
معاني المفردات	٣٢٥
الرضاع: أهميته، مدته، حقوقه	٣٢٦
لا ضرر ولا ضرار	٣٣٠
مسؤولية الوارث	٣٣١
التراضي بين الوالدين على الفطام	٣٣٢
من وحي الآية	٣٣٢
دعوة للتقوى	٣٣٣
الآية: [٢٣٤]	٣٣٥
معاني المفردات	٣٣٥
عدة الوفاة والتوازن العاطفي الاجتماعي	٣٣٦
بين التشريع ورقابة الله على الإنسان	٣٣٨
الآية: [٢٣٥]	٣٤٠
معاني المفردات	٣٤٠
الخطبة بين التعريض والتصريح	٣٤١
بين إباحة التعريض بالخطبة والعودة إلى الزوج الأول	٣٤٤
الحذر من الله العليم الخبير	٣٤٥

٣٤٧		الآية : [٢٣٦]
٣٤٧		معاني المفردات
٣٤٨		وقوع الطلاق قبل المس
٣٥١		الآية : [٢٣٧]
٣٥١		معاني المفردات
٣٥١		لهن نصف ما فرضتم
٣٥٣		العفو تقوى وانتصار على الذات
٣٥٤		لا تنسوا الفضل بينكم
٣٥٦		الآية : [٢٣٨]
٣٥٦		معاني المفردات
٣٥٧		مناسبة النزول
٣٥٨		صلاة الجماعة وأثرها في حياة المسلمين
٣٥٩		المحافظة على الصلاة
٣٦١		الآية : [٢٣٩]
٣٦١		معاني المفردات
٣٦١		لِمَ صلاة الخوف؟
٣٦٥		الآية : [٢٤٠]
٣٦٥		وصية الزوج لزوجته
٣٦٧		مع تفسير الأمثل
٣٧٠		الآيتان : [٢٤١ - ٢٤٢]
٣٧٠		إمتاع المطلقات
٣٧١		إحياءات الآية
٣٧٣		الآيتان : [٢٤٣ - ٢٤٤]
٣٧٣		معاني المفردات
٣٧٤		مناسبة النزول
٣٧٥		الأمة والتحديات: بين الهروب والمواجهة

٤٠٢ من وحي القرآن ج ٤

٣٧٧	اتجاهان متعاكسان في التفسير
٣٨٠	القتال في طريق الحياة
٣٨١	الآية: [٢٤٥]
٣٨١	الإنفاق والتجارة
٣٨٣	الآيات: [٢٤٦ - ٢٥٢]
٣٨٤	معاني المفردات
٣٨٥	قصة طالوت وجالوت: درس في الثبات والنكوص
٣٨٨	إحياءات ودروس

